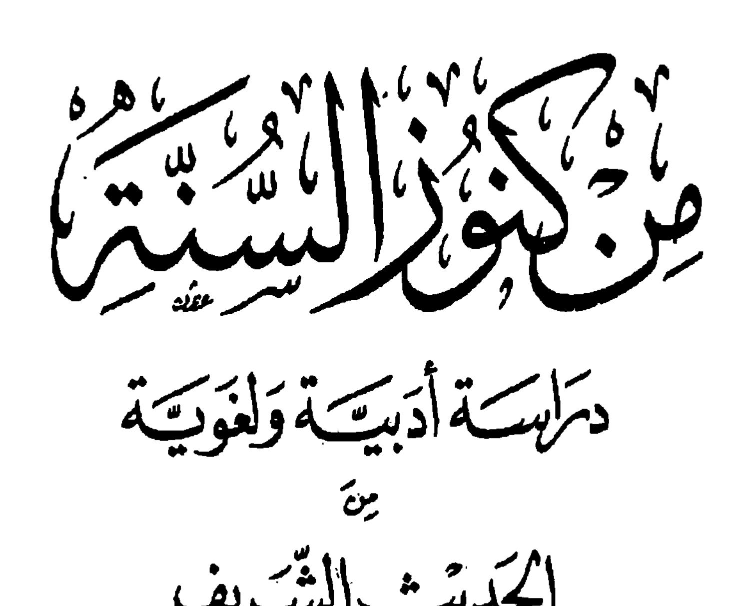


من كنوز السنة

دراسة أدبية ولغوية

من

الحديث الشريف

بقلم

محمد علي الصابوني

الأستاذ بجامعة أم القرى

بمكة المكرمة

الطبعة الثالثة

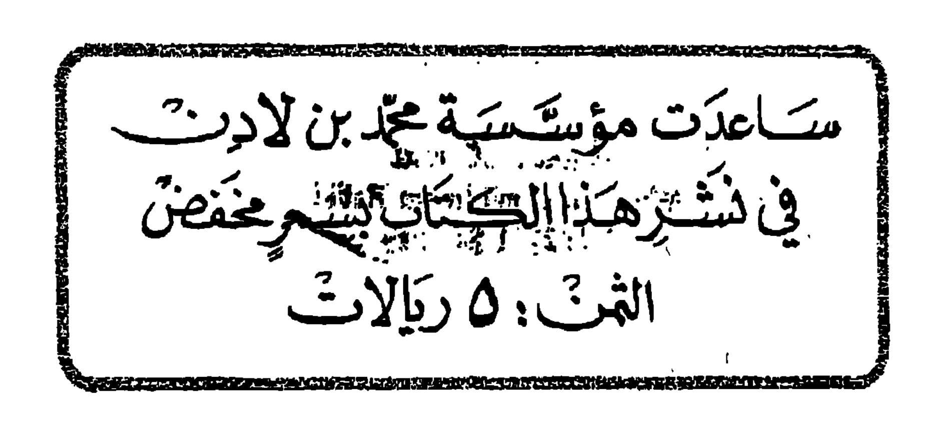
مزيدة ومنقحة

دار القلم

دمشق

الطبعة الثالثة
١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١


ساعدت مؤسسة محمد بن لادن
في نشر هذا الكتاب بسعر مخفض
الثمن: ٥ ريالات

تقديم

بقلم سيادة الأستاذ عبدالله البغدادي
عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة

من خلال التجارب الطويلة، التي عاشتها هذه الكلية الرائدة، للتعليم الجامعي في المملكة، ومن منطلقها الهادف البنّاء، جاءت مناهجها الدراسية، نابعةً من روح الشريعة الغرّاء، كنظام متكامل للحياة الصالحة، غايتها وأهدافها الكبرى إعداد الدارسين والطلاب الجامعيين، لحمل رسالة الإسلام الخالدة ونقلها بأمانةٍ ووعيٍ، وفهمٍ وإخلاص، إلى شباب الجيل الصاعد، ونقل هذا التراث من جيل إلى جيلٍ، ومن هنا جاءت الدراسة بهذه الكلية متكاملة متماسكة، شاملة للحياة الإنسانية المثلى، ولمعطياتِ الإسلام كنظام اجتماعي واقتصادي وتربوي، فيه كل ما في الحياة من خير، لافظاً كل عناصر الشر وبذور القلق، زارعاً آمال الاستقرار والأمن في نفوس بني البشر أجمعين.

ولقد جاءت موادُّ الدراسة في هذه الكليّة الناشئة، محققةً لتلك الأهداف، ومهيئة جيلاً منطلقاً إلى مسيرة الخير، سائراً إلى ركاب الأمل الخالد.

وغنيٌ عن البيان أن نذكر (معجزاتِ البيان) من القرآن الكريم، أو الحديث الشريف، وأن نبيِّن أسرار البلاغة ومحكمَ الكلام فيهما. فإنَّ الصورَ البيانيَّة والمعجزاتِ الكلامية مما أفحم فصحاء ربيعة ومضر حتى عجزوا على ﴿ أن يأتوا بمثْلِهِ ولوْ كانَ بعضهُمْ لبعضٍ ظَهيراً ﴾.

إنني أقول على سبيل المثال: لو أخذنا صفحة واحدة من الصفحات الناصعات ولوحة من اللوحات البارعات، لصورةٍ كلاميةٍ رُسمت بالبيان المبين، وجاءت على لسان محمد الأمين، زيّنها بيان ثري مزج الله وحده ألوانه. إنَّ مثل

هذه الصورة لا يستطيع مبدع، أو فنّان - مهما أوتي من روعة وسحر، وألواح ودهان - أن يرسم بريشته صورة مماثلة أو حتى مقاربة، وسوف يرتد عاجزاً كما عجز سادة الكلام أن يأتوا بمثله.

وبعد، فهذه مادة «الدراسات الأدبية واللغويّة من الحديث الشريف» دُرِّست بكلية الشريعة، مع الدراسات الأدبية واللغويّة من القرآن الكريم، ليتذوّق طلابنا طعم الأدب الخالد، وحلاوة الحِكَم النوابغ في جوامع كَلِم الرسول ﷺ. ففي ظلال هذه الأحاديث النبوية، ومن خلال النظرة في هذا الكتاب القيِّم، يجد القارىء صوراً أدبيَّة أخّاذة، وحِكَماً بلاغية رائعة، بعد أن ترتسم في ذهنه صورة جميلة مشرقة لهدي سيِّد المرسلين وأحاديثه الغرر، التي هي من جوامع كَلِمه صلوات الله وسلامه عليه. . وفي ذلك خير للدارسين أن يجدوا في ظلال القرآن الكريم، وأحاديث الرسول الأمين الشاهدَ اللغوي، والنصّ الأدبي المعجز، والبلاغة المحكمة من أن يتلمسوها في بيتٍ شعريّ، أو حكمة قديمة، وبذلك يجد الدارس المتعة المشتركة، والفائدة المزدوجة والطريقة التعليمية المثلى.

وأخيراً فقد كانت محاولة طيبة وجهداً مشكوراً مأجوراً من أخي الأستاذ العلّامة «الشيخ محمد المبارك» أن يجمع كتابه «دراسات أدبية من القرآن» ويخرجها في ثوب رائع لطلاب كلية الشريعة في مكة المكرمة وقبلها في دمشق، ثم هذا الجهد المشكور، من الشيخ الجليل الوَقور «محمد علي الصابوني» فيخرج كتابه «دراسات أدبية ولغوية من الحديث الشريف» ويجمع المحاضرات التي ألقاها على طلاب قسم اللغة العربية لكلية الشريعة بمكة في كتابه هذا الذي لا أشك في أنّه سيأتي صورة رائعة مشرقة، تنطق ببلاغة الحديث النبوي، وحسن تصويره، وجمال لفظه، وعذوبة معناه، ورقة تعبيره، وصدق الله العظيم: ﴿ وما ينطقُ عن الهَوَى * إنْ هُوَ إلا وحيٌ يُوحَى ﴾.

فتحيةً من الأعماق، لهذا الجهد الرائع، وشكراً لشيخنا الجليل الذي أحسن الظنَّ بي فجاء إليَّ - وأنا أصطاف في لبنان الأشمّ - ليطلب مني أن أقدم كتابه الذي جمعه - كما يقول - تعميماً للفائدة ونشراً للعلم والثقافة الإسلامية. .

إنّني أيها الأخ الكريم قد عرفتك منذ أقبلتَ للتدريس بكلية الشريعة بمكة تُسْهم مع غيرك، وتنشر رسالة ربك مؤمناً بطبيعة عملك «معلِّم جيل» يأخذ منك

التدريس صفوة مجهودك، ويستولي على شغاف قلبك، ويأخذ برقة إحساسك هكذا عرفتك.. تسكب لهذا العمل النبيل غاية ما عندك قطراتٍ من الحياة الصالحة، ودفقات من المجهود الطيب المأجور، لتكون هذه الكلية كما أراد لها المسؤولون أن تكون، وفي مقدمتهم رائد المسيرة الإسلامية الخالدة، وكما أقبل عليها الأساتذة الكرام أداءً لهذه الرسالة الخالدة والمهمة الإنسانية المثلى..

فبارك الله لك عملك وسدَّد خطاك، ووفقنا وإياك لنكون جميعاً رائداً، ووزيراً، وأستاذاً، في خدمة ديننا الذي هو عصمة أمرنا لمناط أملنا شباب الجيل لخير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، ولله عاقبة الأمور.

المخلص

عبدالله عبد المجيد بغدادي

عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

بمكة المكرمة

في ٤/٦/١٣٩٠ هـ؛ الموافق ٦/٨/١٩٧٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدّمة

حمداً لله، وصلاة وسلاماً على نبيّه الكريم، الذي أُعطي جوامعَ الكَلِم، ونوابغَ الحِكَم، ودانت له الفصاحة والبلاغة، فكان لـه منها الحظُّ الأوفى، والنصيب الأكمل، حتى أعجز بلغاء ربيعة ومضر، وعلى آله وأصحابه مصابيح الدجى، وشموس العلم والعرفان، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

وبعد، فهذه مقتطفات من أحاديث سيِّد المرسلين، انتقيتها من كتب الصّحاح لطلبة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية (قسم اللغة العربية) بمكة المكَرمة، وقد أبرزت ما فيها من مواطن الجمال، والروعة والإبداع، وبينت ما فيها من وجوه البلاغة، وأسرار البيان، وقد رأيت أن أجمعها في كتاب تعميماً للفائدة، ونشراً للعلم والثقافة.

والله أسأل أن ينفع بها أبناءنا الطلبة، وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، إنه سميع مجيب الدعاء، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

غرة جمادى الأولى سنة ١٣٩٠ هـ
١٩٧٠م

محمد علي الصابوني

المدرس بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية

بمكة المكرمة

الإِيمَانُ فطرةٌ في الإِنسَانِ

الحديث الأوّل

عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:

«كلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ على الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أو يُنَصِّرَانِهِ، أو يُمَجِّسانِهِ، كَما تُنْتَجُ البَهِيْمَةُ بَهِيْمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟»، ثُمَّ يقولُ أبو هُرَيْرَةَ: واقْرَأُوا إنْ شِئْتُمْ:

﴿ فِطْرَةَ اللهِ الَّتي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيْلَ لِخَلْقِ اللهِ، ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ ولكنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمون ﴾.

(رواه البخاري)

الأبحاث العربيّة

كلُّ : لفظ من ألفاظ العموم، يفيد الاستغراق والشمول، مثل قوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾، وكقول الشاعر:

كُـلُّ ٱلْحَوَادِثِ مَبْـدَاهَـا مِنَ ٱلنَّـظَرِ
وَمُعْـظَمُ ٱلنَّـارِ مِنْ مُسْتَصْغَـرِ الشَّـرَرِ

مولود : أي مخلوق وهو الجنين الذي خرج من بطن الأم سواء كان ذكراً أو أنثى.

قال الشاعر العربي في التذكير بالمنشأ والمصير:

وَلَدَتْكَ أُمُّكَ يَا ٱبْنَ آدَمَ بَاكِيًا
وَٱلنَّاسُ حَوْلَكَ يَضْحَكُوْنَ سُرُوْرَا

فَٱعْمَلْ لِنَفْسِكَ أَنْ تَكُوْنَ إِذَا بَكَوْا
فِي يَوْمِ مَوْتِكَ ضَاحِكًا مَسْرُوْرَا

الفطرة : المراد بها الدين الحنيف مشتق من فَطَر بمعنى خلق ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ؟ ﴾. وقول النبي ﷺ للبراء بن عازب بعد أن علّمه دعاء النوم: «فَإِنْ مِتَّ مِتَّ عَلَى ٱلْفِطْرَةِ» أي إنك إذا قلت هذا الدعاء ثم متّ من ليلتك تموت على الإيمان وعلى الدين الحنيف.

يهوِّدانه : أي يجعلانه يهودياً، وهو مشتق من هاد بمعنى تاب قال تعالى: ﴿ واكتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ.. ﴾ أي تبنا ورجعنا، والمراد من التعبير «يهوّدانه»: أن الأبوين يخرجانه من الإسلام الفطري إلى اليهودية الضالة.

ينصِّرانه : أي يجعلانه نصرانياً، والنصارى هم أتباع عيسى عليه السلام وهم يسمون أنفسهم مسيحيين والقرآن الكريم سمّاهم نصارى، وهم أهل الإنجيل وقد نُسخت شريعتهم كما نُسخت شريعة اليهود بعد بعثة محمد ﷺ فأصبح دينهم باطلاً غير مقبول عند الله، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غيرَ الإسلامِ دِيْنَاً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِن ٱلْخَاسِرِيْنَ ﴾.

يمجِّسانه : أي يجعلانه مجوسياً، والمجوس هم عُبَّاد النار أو عَبَدة الشمس والقمر وغيرها من المعبودات الكونية، والمجوس موجودون في زماننا بكثرة وهم يعبدون الكون أو يعبدون الشجر والبقر، وهم مشركون ليس لهم كتاب سماوي.

تُنْتَج : مضارع مبني للمجهول بمعنى تولَد وتخلَق، وهو مشتق من الرباعي (أنتج) لا من الثلاثي.

البهيمة : اسم للدابة التي لا تعقِل، وقد يشبه بها الرجل الأحمق ناقص العقل والتفكير.

كما قال الشاعر العربي:

أَبُنَيَّ إنَّ مِنَ ٱلرِّجَالِ بَهِيْمَةً
فِي صُوْرَةِ ٱلرَّجُلِ السَّمِيْعِ المُبْصِرِ

فَطِنٌ بِكُلِّ مُصِيْبَةٍ فِي مَالِهِ
فَإِذَا أُصِيْبَ بِدِيْنِهِ لَمْ يَشْعُرِ

جمعاء : أي كاملة الخِلقة، ليس فيها نقص أو تشويه.

هل تحسون : أي هل تشعرون بنقص فيها أو هل ترون وتجدون فيها نقصاً؟ وهو مشتق من (أحسّ) الرباعي، قال تعالى: ﴿ فلمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾.

جدعاء : أي مقطوعة الأنف أو الأذن مشتقة من جدع بمعنى قطع، ومنه قوله ﷺ: «مَنْ قَتَلَ عَبْدَهُ قَتَلْنَاهُ، وَمَنْ جَدَعَ عَبْدَهُ جَدَعْنَاهُ»، وفي الأمثال: (لأَمْرٍ مَّا جَدَعَ قَصِيرٌ أَنْفَهُ).

الأبحاث البلاغية

١ ـ قوله: «يولد على الفطرة» كناية عن النشأة الطيبة، والعقيدة السليمة، التي هي عقيدة التوحيد الخالص.

٢ ـ قوله: «فأبواه» المراد به الأب والأم، فهو من باب التغليب، مثل (العُمرين) أي أبي بكر وعمر، و(القمرين) أي الشمس والقمر، و(الأسودين) أي التمر والماء.

٣ ـ قوله: «يهوّدانه، ينصّرانه، يمجّسانه»، استعمال هذه الأفعال في صيغة المضارع تفيد التجدّد والثبوت.

٤ ـ قوله: «كما تنتج البهيمة» فيه تشبيه لطيف بديع يسمى (التشبيه التمثيلي). فقد مثّل ﷺ للمولود الذي يولَد على الإيمان، بالشاة التي تُولد كاملة الأعضاء والخلقة، ثمّ يعتريها النقص من البشر أنفسهم، فيقطعون أذنها أو أنفها ويشوهونها، كذلك الطفل يولد موحّداً مؤمناً، ثم تفسد عقيدته وتتلوث بالتربية السيئة والبيئة الفاسدة.

٥ ـ قوله: «جمعاء» و«جدعاء» بينهما جِناس لطيف، وهو من المحسّنات البديعية، وهو جناس ناقص لتغير بعض الحروف بين الكلمتين مثل (الخيل، والخير) في قوله ﷺ: «الخيلُ معقودٌ في نواصِيها الخيرُ إلى يوم القيامةِ». ولا يخفى ما للجناس من وقع في الحسّ، وتأثير في النفس.

الأبحاثُ النحْويّة

(كلٌ): مبتدأ، والخبر جملة (يولد على الفطرة) والتقدير: كل إنسان مولود على الفطرة. (على الفطرة): الجار والمجرور متعلق بـ(يولد). (يهوّدانه): جملة يهوّدانه أو ينصرانه خبر المبتدأ (أبواه). (البهيمة): نائب فاعل (تُنتَج). (بهيمة): حال منصوبة بالفتحة الظاهرة. (جمعاء): صفة البهيمة وصفة المنصوب منصوب. (من جدعاء): من حرف جر زائد، و(جدعاء) مفعول به لتحسون.

وتُزاد (مِنْ) في بعض المواطن:

١ ـ بعد النفي مثل: ﴿ما جاءنا من بشير﴾.

٢ ـ بعد الاستفهام مثل: ﴿هل من خالق غير الله يرزقكم؟﴾. ويشترط أن يأتي بعدها نكرة قال ابن مالك:

وزيد في نفيٍ وشبهه فجرّ   نكرة كما لباغٍ من مَفَرّ

(إن شئتم): جملة اعتراضية، وجملة (فطرة الله) في محل نصب مفعول به لـ(اقرءوا).

التعريف براوي الحديث

راوي هذا الحديث هو الصحابي الجليل (أبو هريرة) رضي الله عنه، وهذه كنيته كنّاه بها النبي ﷺ واسمه الحقيقي (عبدُ الرحمن بنُ صَخْر الدَّوْسِي) وهو من كبار الصحابة الذين حفظوا للأمة الإسلامية هذا الركن العظيم من الشريعة المطهَّرة، ألا وهي (السنَّة النبوية) التي نقلها إلينا أمثال هؤلاء الحفّاظ الثقات من صحابة رسول الله ﷺ ومَن جاء بعدهم من المحدِّثين الأخيار، ولقد كان أبو هريرة من أكثر الصحابة روايةً عن رسول الله ﷺ، لأنه كان يلازمه ملازمة تامة، حتى شهد له الرسول الكريم بالحرص على الحديث، ودعا له بثبات الحفظ، فلم يسمع شيئاً من رسول الله ﷺ إلا حفظه ببركة دعائه صلوات الله عليه، أسلم في السنة السابعة من الهجرة عام خيبر وتوفي بالمدينة المنورة سنة ٥٧ هجرية، ودفن بالبقيع، وقبره معروف حتى الآن، رضي الله عنه وأرضاه.

الشرح الأدبي

في هذا الحديث الشريف نفحة من نفحات الجمال، وإشراقة من إشراقات النبوة، فقد وضّح عليه الصلاة والسلام ببيانه العذب، وأسلوبه اللطيف الرصين، ناحية علمية هامة، يُعنى بها علماء الاجتماع، ويهتم بها الفلاسفة والمفكرون وهي: هل الدين فطرة في الإنسان؟ وهل الخير أصل فيه أم الشر؟ وهل يكون الطفل عند ولادته مزوداً بطاقة روحية تلهمه السداد والرشاد؟؟ فالنبي الكريم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وضع أصلاً من أصول التربية الخُلُقية الكريمة، يعتبر نبراساً مضيئاً لكل مربّ ينشد السعادة، ولكل باحث ومفكر يطلب المعرفة والحقيقة.. وهذا الأصل الذي أرشد إليه الرسول الكريم هو: أن الخير في الإنسان أصيل، وأن الشر فيه عارض، وأنه يخلق على الفطرة السليمة، والصفاء والنقاء، وأن استعداده للخير كامل، ولكنَّ المجتمع هو الذي يفسده، والبيئة التي يعيش فيها هي التي تلوّث فطرته، وتفسد خلقه ودينه، ولا سيّما أبواه فهما سبب هلاكه ودماره، وسبب فساده أو صلاحه، وسبب استقامته أو اعوجاجه. فالطفل حين يولد يكون عضواً صالحاً في المجتمع، ولو خلّي بين هذا الطفل وفطرته،

لنشأ على الإيمان، وعاش على الخير والصلاح، ولكن المجتمع الفاسد، والبيئة المنحرفة - وأقرب الناس فيها الأبوان - هي التي تفسد نفسية الطفل، وتخرّب عقليته وفطرته، فتقلبه من الهدى إلى الضلال، ومن السعادة إلى الشقاوة، ومن الإيمان إلى الكفر، ولولا الأسرة الفاسدة، ولولا المجتمع المنحرف، ولولا الأبوان الضالّان، لبقي الإنسان على فطرته، طيب النفس، سليم العقيدة، مندفعاً نحو حياة الفضيلة والكمال!.

فانظر - هداك الله - إلى التمثيل الرائع الذي مثّله عليه الصلاة والسلام حيث صوّر الطفل (بالشاة) التي يخلقها الله تبارك وتعالى كاملة الخلْق، جميلة الشكل والصورة، ولكنَّ الناس هم الذين يشوّهون جمالها، فيقطعون أنفها أو أذنها، ويعبثون بها حتى تصبح ناقصة الخلق مشوهة التصويرا.

أفليست هذه حقيقة يدركها كل شخص، وهي أن الخلْق الكامل هو خلْق الله، وأن النقص إنما يأتي من فعل الإنسان؟!.

فهذا الحديث الشريف ما هو إلا تصوير دقيق (لحقيقة الإنسان) وسموٌّ به وارتفاع، من حضيض الشر القاتم، إلى أفق المعرفة المشرق، وضياء الحق المنير، فالناس في جميع العصور والدهور، يولدون على الفطرة، وعلى الاستعداد التام الكامل للخير والصلاح، وصدق الله: ﴿ فطرةَ اللهِ التي فطر النّاسَ عليها لا تَبْديلَ لَخلقِ اللهِ ﴾.

وفي الحديث الشريف ردٌ صريح واضح، على أولئك الذين ينكرون الفطرة، كما هي (الفكرة الشيوعية الخبيثة) التي تقول: إن الإنسان يخلق خالياً من كل شيء يسمى بالدوافع، وإننا نستطيع أن نصنعه كما نشاء.. فهم يعتبرونه كالآلة الصماء، أو كالدابة العجماء، ولا عجب في أن ينكروا الدين أو الفطرة، فقد أنكروا من قبلُ وجود الله، وصدق الله حيث يقول: ﴿ أولَئكَ كالأنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ، أولَئكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾.

* * *

السعداء في الآخرة

الحديث الثاني

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«سَبْعَةٌ يُظِلُّهم اللهُ في ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظلَّ إلاَّ ظِلُّهُ:

- إمَامٌ عَادِلٌ.
- وَشَابٌ نَشَأ في عِبَادَةِ رَبِّهِ.
- وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ في المَسَاجِدِ.
- وَرَجُلاَنِ تَحابّا في اللهِ، اجْتَمَعا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ.
- وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امرأةٌ ذَاتُ منصِبٍ وجَمَالٍ فَقالَ: إنِّي أخافُ اللهَ.
- وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لا تَعْلَم شمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ.
- وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيَاً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ».

(متفق عليه)

الأبحاث العربية

يظلّهم : المراد بالظل هنا هو الظل الحقيقي حيث يكون هؤلاء السّعداء تحتَ ظِلِّ العَرْشِ يوم القيامة بقرينةِ قوله: «يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه».

فلا يمسُّهم حرّ الشمس ولا وهجها، وقيل: المراد بالظلّ: الكرامةُ والحمايةُ فهو (كناية) عن الرعاية والحماية، والأول أرجح.

في ظلّه : إضافةُ الظل إلى الله إضافةُ تشريفٍ وهو على حَذْفِ مضافٍ، أي في ظِلِ عرشِهِ، وإنّما أضافهُ إليه تكريماً وتشريفاً كما يقال للمسجد: (بيتُ الله).

إمامٌ عادلٌ : المراد بالإمام الحاكمُ أو السلطانُ ويشمل أيضاً القاضي وكُلُّ مَن له ولايةٌ على غيره، والعادلُ الذي يحكم بالعدل بين الناس فلا يميلُ مع هوى ولا يرتشي بمال.

معلّق في المساجد: أي محبٌّ لها حباً شديداً فهو ينتظر الصلاة بعد الصلاة ويصلّيها بالجماعة ولا يؤخرها عن وقتها، كما قال تعالى في هذا الصنف: ﴿ والذين هم على صلاتهم يُحافظون ﴾.

تَحَابَّا في الله : أي لأجله لا لغرضٍ دنيويٍ، وتحابّا أصلُهُ تحاببا أدغم الأول في الثاني، والتفاعل عبارة عن معنى يقتضي المشاركة، أي إن كلًا منهما أحب صاحبه في الله.

اجتمعا عليه : الضمير يرجعُ إلى الحب في الله، والمعنى اجتمعا على ذلك الحبِ وتفرقا عليه، فهو إشارةٌ إلى أن الحب تمكّن من قلب الرجلين تمام التمكن من أجلِ الله تعالى لا لغرضٍ دنيوي، وفي الحديث: «من أحبَّ لله، وأبغَضَ لله، ومنع لله فقدْ استكمل الإيمان».

ذات منصب : أي امرأةُ صاحبةِ جاهٍ من أصلٍ أو شرفٍ أو سُلطان أو مال، وفي الحديث الشريف: «تُنْكَحُ المرأةُ لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفَر بذات الدين تَرِبَتْ يداك». ومعنى تَرِبَتْ يداكَ: أي إن لم تفعل هلَكْتَ.

أخاف الله : الخوف من الله هو الرهبة من عذابه وهو دليل الإيمان، قال تعالى: ﴿ وَخَافُونِ إن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾.

شماله ما تنفق يمينه : الشمال واليمين اليدان اللتان بجانبي الإنسان، وضرب المثل بها لِلتوضيح فلو فرضنا أن الشمال رجُلٌ مستيقظ وتصدق الإنسان بيمينه لما شعر ذلك الرجل الذي عن يساره.

ذَكرَ الله : من الذِّكْرِ ـ بكسر الذال ـ فهو باللسان، أو من التذكر بالفكر والقلب، أي تذكر عظمة الله وجلاله فبكى من خشيته سبحانه، فيكون المراد بالذكر الذكر القلبي.

خالياً : أي بعيداً عن الناس ليكون أقربَ إلى الإخلاص وأبعدَ عن الرياء.

ففاضت عَيناه : أي سالتِ منها الدُّموع كأنها فيضٌ لغزارتها، وذلك دليلٌ على الخوف من الله وقوة اليقين به سبحانه، وفي الحديث: «عيْنان لا تمسهما النار، عين بَكَت من خشية الله وعينٌ باتت تحرسُ في سبيل الله».

الأبحاث النحوية

(سبعة): مبتدأ، وخبره جملة (يظلهم الله)، وجوّز الابتداء بها مع أنها نكرة لكونها على معنى الإضافة، أي: سبعةُ أشخاصٍ من الناس. (إمامٌ عادل): إمام خبر لمبتدأ محذوف تقديره أحدهم إمامٌ، وعادلٌ صفة لإمام. (وشابٌ نشأ): وشاب خبر لمبتدأ محذوف أيضاً تقديره: والثاني شاب، وجملة (نشأ في عبادة الله) صفة لها. لأن القاعدة «أنَّ الجُمَل من بعد النكرات صفاتٌ ومن بعد المعارف أحوال». ويكون التقدير وشاب ناشىء. (قلبه معلق): قلبه مبتدأ ثاني وخبره معلق في المساجد، والمبتدأ الثاني وخبره في مَحَلِّ رفع صفة لرجل. (حتّى لا تعلَم): بالنصب فتكون حتى للغاية، وبالرفع (فتكون تفريعية) نحو: مرض زيد حتى لا يرجونه. (خالياً) حال من فاعل ذكر، أي ذكر الله حال كونه وحيداً فريداً ليس معه أحد.

التعريف براوي الحديث

تقدمت ترجمة الراوي في الحديث الأول فارجع إليه في صفحة (١٥).

الأبحاث البلاغية

١ - قوله: «معلّق في المساجد» فيه كناية لطيفة، فقد كَنّى عن مُلازمته للمسجد، وتردّده عليه، ومحافظته على الصلاة بالجماعة، بتعلق قلبه في المساجد، وهو (كناية عن صفة).

٢ - قوله: «لا تعلم شماله ما تُنفق يمينه» فيه استعارة لطيفة تسمى (الاستعارة المكنيّة) فقد شبّه اليد اليمنى بإنسان، واليد اليسرى بإنسان آخر، وحذف المشبّه به وهو الشخص الأول، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهي اليد على طريق (الاستعارة المكنيّة).

٣ - قوله: «دعته امرأة» كناية عن المراودة عن النفس من أجل عمل الفاحشة، وهي (كناية عن صفة).

٤ - قوله: «ففاضت عيناه» مجاز مرسَل على حذف مضاف، أي فاضت دموع عينيه، لأن العين لا تفيض إنّما يفيض الدمع فيها، وذلك علامة الإيمان. قال الشاعر:

ذَاقَ طَعْمَ ٱلإِيمَانِ مَنْ ذَكَرَ اللهَ فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ بِٱلْعَبَرَاتِ

الشرح الأدبي

في هذا الحديث النبوي الشريف، تقسيم لطيف، وبيان شافٍ مجيد، لأولئك السعداء الأبرار، الذين نالوا الكرامة الإلّهية، والسعادة الأبدية، في دار الخلد والنعيم، بسبب ما قدّموا في الدنيا من صالح الأعمال، واتصفوا به من جميل الخصال.

فالرسول الكريم - عليه أفضل الصلاة والتسليم - يحدثنا عن شمول العناية الإلّهية والرحمة الربّانية، تحت ظل عرش الله الكريم، لكل من اتصف بواحدة من تلك الخصال الحميدة، التي يحبها الله ورسوله، وقد أوضحها عليه الصلاة والسلام في أجمل عرض، وأقوى بيان، ليُلهب نفوس المؤمنين ويحرّكَ فيهم روح الجد والإخلاص والعمل الصالح، ليسيروا على النهج القويم، ويقتدوا بالأخيار

الأطهار من عباد الله الصالحين. فهو يدعو أولاً إلى مراعاة العدل ومجانبة الظلم لكل من تولى شأناً من شؤون المسلمين، أو ولي أمراً من أمورهم، سواء كانت الولاية عامة أم خاصة، فالعدل شريعة الله، والله تعالى يمقت الظلم ويكرهه، أياً كان مصدره، وصدق الله حيث يقول: ﴿ يا داود إنّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً في الأرْضِ، فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بالحَقِّ، ولا تَتَّبِع الهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبيلِ اللهِ ﴾. وهو يدعو ثانياً الشباب إلى الإقبال على طاعة الله وعبادته، منذ بدء حياتهم، ونعومة أظفارهم، ليكونوا رجال المستقبل، وليحققوا (الجيل المثالي) الذي ينشده الإسلام، ولقد أثنى القرآن على فتية أهل الكهف بقوله :﴿ إنَّهُم فِتيَةٌ آمنوا بِرَبِّهِم وَزِدْنَاهُم هدى ﴾، فالشباب موطن الرجاء والأمل، وهم عدة المستقبل.

وفي الخصلة الثالثة: إشادة بفضل ذلك الرجل الصالح، الذي عمرَ الإيمان قلبه، وتعلقت جوارحه وقلبه بذكر الله عن طريقة المحافظة على الصلاة التي هي عماد الدين، لِتتشرب القلوب حب الاجتماع والألفة، وتتوحد صفوف الأمة عن طريق الاجتماع في بيوت الله، ولقد أثنى الله عزّ وجلّ على هذا الصنف من الناس بقوله: ﴿ في بيوتٍ أَذِنَ اللهُ أنْ تُرفعَ ويُذكَرَ فِيها اسْمُه، يُسبِّحُ لهُ فيها بالغُدُوِّ والآصالِ رجال. . . ﴾.

وفي الخصلة الرابعة: يدعو الرسول الكريم إلى (الحبُّ في الله) ابتغاء وجهه الكريم، لا لغرضٍ دنيوي، أو كسبٍ ماديٍّ، أو مصلحةٍ دنيئة. . وهل الدين إلا حبٌّ في الله، واجتماعٌ على مرضاته، والتقاء على دعوة الحقِّ التي جاء بها رسول الله ﷺ، ليكون الحب طهراً وصفاءً، وسمواً ونقاءً؟!.

وفي الخصلة الخامسة: إظهارٌ لأسمى ما تصورته البشرية من طهارةٍ وسموٍّ وصفاء، إنه طهارة الوجدان، وصفاء الإيمان، الذي يعصِم صاحبه من الانزلاق في مزالق الرذيلة، فها هي الفتنة والإغراء تتزيًا بصورة واقعية في صورة (امرأة جميلة) ذاتِ حسبٍ ونسبٍ، تدعو الرجل إلى نفسها، وتراوده على عمل الفاحشة بها، ولكنه تَجنَّبَ كل ذلك خوفاً منُ الله.

وفي الخصلة السادسة: نرى روعة البيان في أجمل صورة يصورها الرسول

عليه الصلاة والسلام، صورة ذلك الرجل المحسن الذي تصدَّق بصدقة خُفْيةً عن أعين الناس، ابتغاء مرضاة الله، فأخفى صدقته حتى عن أقرب ما يتصل به ألا وهي شماله، حتى لو تصورنا أن يمينه تصدَّقت بشيء لما شعرت يده اليُسرى فيما أنفق في سبيل الله.

وأخيراً يختم عليه الصلاة والسلام حديثه الشريف بفضل البكاء من خشية الله. فللّه ما أروع هدي الرسول وما أجمل حكمته ومغزاه!! إنَّه الهدي النبويُّ، والحكمةُ المحمَّديَّة.

* * *

الفِتَنُ المتلاحقةُ بين يدي السَّاعةِ

الحديثُ الثالث

عَنْ أبي موسى الأشْعرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أن رَسُولَ الله ﷺ قال:

«إنَّ بينَ يَدَي السَّاعَةِ فِتَناً كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِم، يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيها مُؤْمِناً ويُمْسِي كافِراً، ويُمْسِي مُؤْمِناً ويُصْبِحُ كافِراً، يَبِيعُ دِينَهُ بِعرَضٍ مِنَ الدُّنيا قليل».

(رواه التِّرْمِذِيُّ)

الأبحاثُ العربيّة

بين يدي الساعة: أي قرب قيام الساعة وأمامها، والمراد بالساعة (القيامة) وسميت بذلك لأنها تظهرُ في أدنى لحظة من الزمن وهي مما اختص الله سبحانه وتعالى بعلمه، قال تعالى: ﴿ يسألُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إنما عِلْمُهَا عِنْدَ الله ﴾.

فتناً: جمع فتنة، والمراد بالفتن هنا المصائب والنكبات والبلايا التي تنزِلُ على الناس في آخر الزمان فتصيبهم في أنفسهم أو في أموالهم أو في أولادهم أو في عقائدهم قال الشاعر العربي:

إنَّ للهِ عِبَاداً فُطَنَا
طَلَّقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتَنَا

نَـظَرُوا فِـيْـهَـا فَـلَمَّـا عَـلِمُـوا
أنَّــهـا لَـيْـسَـتْ لِـحَـيٍّ سَـكَـنَـا
جَـعَـلُوهَـا لُـجَّـةً وَٱتَّخَذُوا
صَـالِـحَ ٱلأعْـمَـالِ فِيْهَـا سُفُنَـا

كقِطَع الليل : جمع قطعة وهي الجزء من الشيء والمراد أن الفتن تأتي متلاحِقة متتالية كما يأتي الليلُ متلاحِق الأجزاءِ وكلما تقدَّم الليل اشتدَّ الظلام.

يصبح ويمسي : معنى أصبح دخل في الصبّاح، وامسى دخل في المساء، قال تعالى: ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ﴾ وفي الحديث الشريف: «أيَعْجز أحدكم أن يكون مثلَ أبي ضمضم؟ قالوا: ومن هو أبو ضمضم يا رسول الله؟ قال: رجل مِمَّنَ كان قبلكم كان كلما أصبح أو أمسى قال: اللهم إني قد جعلت عِرْضي لمن شتمني» أي عفوتُ عنه وسامحتُه.

كافراً : أي مرتداً عن الدين جاحداً بآيات الله، مشتق من الكفر بمعنى الجحود والإنكار، قال تعالى: ﴿ أفرأيْتَ الّذي كَفَرَ بِآياتنا وَقَالَ لأوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً. . . ﴾ الآية.

بعرضٍ من الدنيا : المراد بالْعَرَضِ الشيءُ الحقير من حطام الدنيا، ونُكِّر اللفظ ليشير إلى الحقارة والقلة، أي بشيءٍ قليل وحقير من الدنيا وسمِّي عرضاً لأنه يزول ولا يدوم.

الأبحاث البلاغيّة

١ ـ في قوله ﷺ: «بين يدي الساعة» استعارة مكنيّة وطريق إجراء هذه الاستعارة أن نقول: شبّه الساعة برجلٍ، وحذف المشبَّه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو اليد، على سبيل الاستعارة المكنيّة، بجامع القرب بين كلٍ منهما، فاليد قريبة من الرجل والفتن قريبة من الساعة.

٢ ـ في قوله: «فتناً كقطع الليلِ المظلم» تشبيه يسمى (مرسَلاً مفصَّلاً) لأن أداة التشبيه قد ذكرت فيه ـ وهي الكاف ـ فهو (مرسل) من هذا الوجه و (مفصَّل) لأن وجه الشبه وهو الظلمة قد ذكر فيه، وقد تمت فيه الأركان.

٣ ـ في قوله: «يُصبح ويُمسي» وفي قوله: «مؤمناً وكافراً» تقابُل جميل، وهذا ما يسمى في علم البلاغة (الطباق) مثل قوله تعالى: ﴿ وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ﴾. والطِباق: هو أن يجمع المتكلم بين لفظين متقابلين، وقد يكون الطباق في الفعل كما في الأول: «يصبح» و «يمسي»، وقد يكون في الاسم كما في قوله: «مؤمناً» و «كافراً»، وقد يكون في الحرف مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَهُـنَّ مثلُ الّذِي عليهنَّ بالمعروفِ ﴾.

٤ ـ قوله: «يبيع دينه بعرضٍ من الدنيا» جملة خبرية يقصد منها التحذير والتخويف.

الأبحاث النحوية

جملة (بين يدي الساعة): خبر إنَّ مقدّم و (فتناً): اسمها مؤخر. وجملة (كقطع الليلِ المظلم): صفة لفتناً لأن الجمل بعد النكرات صفات. و (يصبح الرجل مؤمناً): الرجلُ اسم أصبح التي هي من أخوات كان و (مؤمناً) خبرها، وكذلك في (يمسي) لها اسم وخبر لأنها أيضاً من أخوات كان. (يبيع دينه بعرض... إلخ): هذه الجملة كالتعليل لما سبقها فكأن سائلاً يقول: لم يَحدثُ ذلك؟ فقال: يبيع دينه بعرض من الدنيا.

التعريف براوي الحديث

راوي الحديث الصحابي الجليل (أبو موسى الأشعري) رضي الله عنه، واسمه (عبدالله بن قيس) وهو من قبيلة الأشعريِّين الذين أثنى عليهم النبي ﷺ بقوله: «إنَّ الأشعريِّين إذا أرملوا في الغزو أو قلّ طعام عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسويّة فهم منّي وأنا منهم».

أسلم رضي الله عنه ورجع إلى بلاد قومه، ثم قدم المدينة مع الأشعريين وهم نحو خمسين رجلاً في سفينةٍ فألقتهم الريح إلى النجاشي بأرض الحبشة، فوافقوا خروج (جعفر بن أبي طالب) وأصحابه منها فأتوا معهم، وقدمت السفينتان معاً على النبي ﷺ بعد فتح خيبر. واستعمله النبي ﷺ على بعض بلدان اليمن، ثم استعمله (عمر) على البصرة فافتتح الأهواز وأصبهان، وفي خلافة عثمان استعمله على الكوفة. وكان رضي الله عنه حسن الصوت بالقرآن سمعه النبي ﷺ ذات ليلةٍ وهو يقرأ فقال له: «لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود». وكان عمر إذا رآه قال له: «ذكِّرْنا ربنا يا أبا موسى» فيقرأ عنده القرآن، وأبو موسى هو الذي فقَّه أهل البصرة وأقرأهم القرآن. قال (ابن المديني): (قضاة الأمة أربعة: عمر، وعلي، وأبو موسى، وزيد بن ثابت). مات سنة ٤٢ هـ وهو ابن ثلاث وستين سنة رحمه الله تعالى.

الشرح الأدبي

في هذا الحديث الشريف صفحة من صفحات الجمال الفنيِّ في روعة العرض، وسمو التصوير والتشبيه.. فإن الإنسان لَيحس بالبلاء الذي ينزل، والفتن التي تحيط به، وكأنها ملموسة محسوسة، تلاحقه كما يلاحق الظلام غَسَقَ الليل، وتلازمه كما يلازم الهلع قلب الجبان.. وأي إنسان لا يفزع وهو يرى ذلك المنظر المخيف، وتلك الصورة الرهيبة، التي تملك عليه شعوره وإحساسه؟!.

صورة الفتن تتلاحق كتلاحق الجيوش، يطارد بعضها بعضاً، وتشتد هذه الفتن كاشتداد الظلام.. يبدأ رويداً رويداً، ثم لا يزال يشتدُّ، ويشتدُّ، حتى يعمَّ أرجاء الكون، ويصبح ظلاماً مطبقاً دامساً، لا يرى فيه الإنسان ما حوله ﴿ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لم يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً، فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾.

وإن الناظر لَيلمس خطر هذه الفتن العصيبة، والمحن المريرة في الانقلاب العظيم الذي تحدثه في نفوس البشر.. إذ ينقلب الإنسان ـ ما بين عشية وضحاها ـ من الإيمان إلى الكفر، ويعود من الهدى إلى الضلال، وينتقل من النور إلى الظلام، فيُصاب بأعظم نكسة، وأفدح مصيبة، وهل هنالك من مصيبة تعدل

المصيبة في الدين والإيمان؟ وهل هنالك من خسارة توازي هذه الخسارة؟.

إنها «المادية الطاغية» التي حدثنا عنها الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى. إنها فتنة المادة، التي تجرف في تيارها أصحاب النفوس المريضة، الذين عاشوا (لبطونهم) و(شهواتهم) ممن آثروا الحياة الدنيا على الآخرة، فخدعوا ببريقها، واغتروا بحطامها، حتى باعوا أقدس شيء لديهم ألا وهو (الإيمان) بأتفه شيء ألا وهو (الحطام) ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾!! إنه (طغيان المادة) الذي يطغى على القيم الروحية، والخلقية، والدينية، فيجعل الفرد لا يفكر إلا في المادة، ولا يعيش إلا من أجل المادة.. فهل بعد هذا الانتكاس من انتكاس؟؟ وهل بعد هذا الشقاء من شقاء؟! ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾.

* * *

الحريّةُ الشخصيّة

الحديث الرابع

عَنْ النُّعْمانِ بن بشيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُما، عَنِ النبيِّ ﷺ أنَّه قال:

«مَثَلُ القَائِمِ عَلى حُدُوْدِ اللهِ، والوَاقِعِ فيها، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلى سَفِينَةٍ فأصَابَ بَعْضُهُمْ أعْلاهَا وأصَابَ بَعْضُهُم أسْفَلَها، فَكَانَ الَّذِين في أسفِلِها إذا ٱسْتَقَوْا مِن ٱلْمَاءِ مَرُّوا عَلى مَنْ فَوْقَهُمْ فَآذَوهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أنَّا خَرَقْنَا في نَصِيْبِنَا خَرْقاً وَلَمْ نُؤذِ مَنْ فَوْقَنا، فإنْ تَركُوهُمْ ومَا أرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعاً، وإنْ أخَذُوا عَلى أيْدِيهِمْ نَجَوْا ونَجَوا جَمِيعاً».

(رواه البخاري والترمذي)

الأبحاث العربيّة

القائم على حدود الله: المراد به المستمسكُ بالدين، القائم بواجب الدعوة من أمر بالمعروف، ونهي عن المنكر. وحدودُ الله تقسم إلى قسمين: حدود الأمر، وحدود النهي، فحدود الأمر يجب امتثالها، وحدود النهي يجب اجتنابها؛ فمن الأول قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُدُوْدُ اللهِ يُبَيِّنُها لِقَوْمٍ يَعْلمُون ﴾، ومن الثاني: ﴿ تِلكَ حُدُود الله فلا تَقْرَبُوها ﴾.

الواقع فيها : المراد به المستهتر بأمور الدين، المرتكب للمنكرات والمعاصي الذي لا يبالي بما فعل من فُحْشٍ ومُوبِقات.

استهموا : أي اقترعوا فيما بينهم، والقرعة إنَّما تكون لقطع النزاع ورفع الخلاف. وفي الحديث الشريف: «لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهَموا». والمراد بالنداء: الأذان، وكان ﷺ إذا أراد سفراً أسهم بين نسائه، أي ضرب القرعة بينهن فأيّتهن خرجت قرعتُها أخذها معه.

خرقنا في نصيبنا: أي ثقبنا المكان الذي نحن فيه لنستخرج منه الماء والمراد خرق السفينة.

أخذوا على أيديهم: أي منعوهم مما أرادوه من خرق السفينة، والتعبيرُ بلفظ (أخذوا على أيديهم) يفيد المنع بالقوة كمن شدّدْنا يديه بالوثاق لمنعه من الحركة والعمل. وهذا كما قال السفهاء من كفار قريش لبعضهم البعض (خذوا على يديه قبل أن تظهر دعوته) أي امنعوه بالقوة والحزم قبل أن ينتشر دينه.

الأبحاثُ النحْوِيَّة

(مثل القائم): مثل مبتدأ، وخبره جملة (كمثل قوم استهموا على سفينة). وجملة (استهموا على سفينة): صفة لقوم. ولفظ (أعلاها): مفعول به لأصاب وهو مضاف إلى الهاء، أي أعلى السفينة. (مرُّوا على من فوقهم): مَنْ اسم موصول بمعنى الذي ومحلُّه الجر بعلى، وفوقهم منصوب على الظرفية، والجار المجرور متعلق بمروا. (فقالوا: لو أنا خرقنا... إلخ): جملة لو أنا خرقنا مَقول القول، لأنَّ (قال) تنصب الجمل ولا تنصب المفرد. (خرقاً): مفعول مطلق.

الأبحاثُ البلاغيَّة

١ ـ قوله: «مثل القائم.. كمثلُ قوم استهموا» فيه تشبيه يسمى (تشبيهاً تمثيلياً) لأن وجه الشبه صورةٌ منتزَعة من متعدد.. وهذا النوع من التشبيه له تأثير

عظيم على النفس فإنّه إذا وقع في صدر القول بعث المعنى إلى النفس بوضوح وجلاء مؤيدٍ بالبرهـان ليقنع السامع، وإذا جاء بعد تمام المعاني كان كالبرهان الذي تثبت به الدعوى، والحجة التي توجب الإذعان مثل قول الشاعر:

لَا يَنْـزِلُ ٱلْمَجْـدُ إِلَّا فِيْ مَنَـازِلِنَـا   كَٱلنَّوْمِ لَيْسَ لَهُ مَأْوَىً سِـوَى ٱلْمُقَلِ

٢ - بين لفظ «أعلاها» ولفظ «أسفلها» طباق بين اسمين، والطباق هو الجمع بين لفظين متقابلين في المعنى كما هو معلوم في (علم البديع) وكذلـك يوجد طباق بين قوله: «القائم» و «الواقع».

٣ - «وإن أخذوا على أيديهم» في هذا اللفظ (كناية) لطيفة فقد كنّى عن المنع بالأخذ على الأيدي فهو إذاً كناية عن (صفة) أي فإذا منعوهم عن تنفيذ ما أرادوا . . . إلخ.

التعريف براوي الحديث

راوي هذا الحديث الشريف هو (النعمان بن بشير بن سعد) الأنصاري الخزرجي يُكنى (أبا عبدالله)، وهو أول مولود في الإسلام من الأنصار، وُلِدَ بعد الهجرة بأربعة أشهر وله صحبة بالنبي ﷺ هو وأبوه ولذلك يقال: رضي الله عنهما. تولى قضاء الشام ثمّ استعمله (معاوية) رضي الله عنه على الكوفة، وكان من الخطباء المشاهير الذين لا يجاريهم أحد في قوة البيان، وجودة التعبير. وقد قُتل رحمه الله بالشام في إحدى القرى التابعة لحمص في ذي الحجـة سنة ٦٤ هـ ودفن هناك، وكان مقتله في عهد (مروان بن الحكم)، روي له عن النبي ﷺ ١١٤ مائة وأربعة عشر حديثاً، أخرج بعضها البخاري وبعضها مسلم، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

الشرح الأدبي

مثل في منتهى الجمال والروعة، يضربه الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه لأولئك الذين أخطأوا الطّريق، وضَلوا الجادّة، وتنكّبوا عن سبيل الهدى،

ففهموا (الحرية) فهماً خاطئاً، وساروا في هذه الحياة حسب أهوائهم وشهواتهم..
ومثلٌ آخر لأولئك الذيـن رأوا المنكر فسكتوا عنه، وأغمضوا أعينهم عما يدور حولهم من آثام وموبقات، كأنّ الأمر لا يَعْنيهم، وظنّوا في أنفسهم الصلاح والفلاح!.

إنّه مثل رائع من روائع الحِكَم النبويـة، التي ضربها الرسول الكريم، معلّم الإنسانية ومهذب البشرية، الذي دانت له الفصاحة والبلاغة، وأعطي جوامع الكَلِم، فكان له منها النصيب الأوفر، فصلوات ربي وسلامه عليه!.

مثل في غاية الروعة يصوّر فيه الرسول الكريم (المجتمع البشري) بما فيه من أخيار وأشرار، ومتقين وفجّار، بركاب سفينة في بحر خِضَمٍّ متلاطم الأمواج، هذه السفينة تسير وسط البحر، تشق طريقها بين الأمواج والأعاصير، وقد انقسم الركاب فيها إلى قسمين: قسم في أعلى السفينة، يتمتعون بجمال الكون، وروعة الطبيعة، ونضارة الحياة، وقد تأمّنت لهم كل أسبـاب الرفاهية والراحة، من مياه عذبة نقية، وسُرر وأرائك، وخدمٍ وولدان يسعون في خدمتهم وقضاء حاجاتهم..
وقسم في أسفل السفينة، لا يرون مناظر الطبيعة، ولا يتمتعون بجمالها الخلّاب، ولا ينعمون بما ينعم به إخوانهم في الطبقة العليا، حتى الماء فقد كانوا يجلبونه من الأعلى.

وهنا خطرت لهم خاطرة: وهي أن يثقبوا أسفل السفينة ويستخرجوا من البحر الماء، حتى لا يُتعبوا أنفسهم في حمل الماء، ولا يزعجوا جيرانهم، وهنا بدأوا بما عزموا عليه وقرروا ثقب السفينة، فاستخرجوا المعاول والفؤوس، وراحوا يضربون بها السفينة لاستخراج الماء.. وسمع الذين هم في الطبقة العليا أصوات السفينة وهي تُخرق، فهرعوا نحوهم ووقفوا في وجههم يريدون منعهم، ولكنَّ أولئك الأذكياء «الشُّطار» استاؤوا من تدخل إخوانهم وقالوا لهم: هذا مكاننا نصنع فيه ما نشاء لأننا «أحرار»، وهل تمنعون الناس من استعمال حرياتهم؟ فإن تركوهم على إرادتهم وصنيعهم هلك ركاب السفينة جميعاً، وإن منعوهم وأخذوا على أيديهم نجوا جميعاً!.

وهكذا حالنا نحن في هذه الحياة، نعيش فوق سطح هذا الكوكب الأرضي، (كركاب السفينة) فينا البرّ والفاجر، وفينا الصالح والطالح، فإن تركنا أهل الشر والفساد يسرحون ويمرحون، ويفعلون ما يحلو لهم وما يشاءون، دون أن نوجّه لهم النصح، أو نمنعهم عن اقتراف المُوبِقات والآثام هلكنا جميعاً، وإن منعناهم منها نجونا جميعاً، فكان في ذلك نجاتنا ونجاتهم، وحياتنا وحياتهم.. فيا له من مثلٍ رائع، وتوجيه حكيم. نبهنا إليه رسول الهدى والرحمة ونبي العلم والعرفان. يا له من مثل رائع لو أنّ الناس كانوا يعلمون!!.

* * *

الجَليسُ الصَّالح، وَجَليسُ السوءِ

الحديث الخامس

عَنْ أبي مُوْسَى الأشْعَريِّ رضي اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ ﷺ قال:

«إنَّما مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وجَلِيسِ السُّوءِ، كَحَامِلِ المِسْكِ ونافخِ الكِيرِ، فحاملُ المِسْكِ إمَّا أن يُحْذِيَكَ، وإمَّا أن تَبْتَاعَ مِنْهُ، وإمَّا أنْ تَجِدَ مِنْهُ ريحاً طَيِّبَةً، ونافخُ الكِيرِ إمَّا أنْ يُحْرِقَ ثِيابَكَ، وإمَّا أنْ تَجِدَ مِنْهُ ريحاً مُنْتِنَةً».

(رواه البخاري ومسلم)

الأبحاث العربيّة

إنما مثل : إنما أداة حصر، والمَثَلُ - بفتحتين -: الشأن العجيب والأمر الغريب، ويُستعمل في تقريب البعيد، وتوضيح الغامض، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا ٱلْعَالِمُونَ﴾. والأمثال لها أثر عظيم في النفوس ولذلك فقد أكثر منها القرآن.

الجليس الصالح: يُقصد بالجليس الصالح هنا الصديق الفاضل المتحلّي بالأخلاق الكريمة. وفي الحديث الشريف: «لا تُصاحبْ إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تَقِيٌّ».

جليس السَوْء : يُقصد به الصديق والصاحب السيء الذي فسدت طباعه وساءت أخلاقه، والسُوْءُ بالفتح مصدر، وبالضم اسم مصدر، وقال اللغويون: يجوز فتح السين وضمها.

كحامل المسك: المراد بحامل المسك بائع المسك وهو الطيب الذي يتطيب به الناس والمقصود منه هنا هو (بائع العطورات) لأنه يقابل (الحدادّ) نافخَ الكير.

ونافخ الكير : الكِيْر: هو مِنْفَـخُ الحدّادِ، وأمّا نافخ الكير فالمراد به الحدّاد الذي ينفخ النار على الحديد حتى يحمرّ فيستعمله.

تبتاع منه : أي تشتري منه، وهو فعل مضارع من باب الافتعال للمبالغة في طلب البيع. وفي الحديث الشريف: «إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا له: لا ربَّحَ الله تجارتك».

ريحاً مُنتنة : أي رائحة كريهة تنفر منها النفس، يقال: أنتن الطعام إذا فسد وانتشرت منه رائحة خبيثة، وفي الحديث: «دَعُوها فإنها مُنْتِنة» وهي قولهم: يا لَلأنصار ويا لَلمهاجرين... إلخ.

الأبحاث النحوية

(إنما): كافة مكفوفة ملغاة لا عمل لها، وهي تفيد االحصر. (مثل): مبتدأ، وخبره جملة (كحامل المسك ونافخ الكير). (حامل المسك): حامل مبتدأ، والمسك مضاف إليه، والخبر هو جملة: (إمّا أن يحذيك...) إلخ. (ريحاً طيبة): ريحاً مفعول به لـ (تجد)، وطيبة صفة وصفة المنصوب منصوب، ومثلُها ريحاً منتنة. وقوله: (إمّا): شرطية تفيد معنى التفصيل.

الأبحاث البلاغية

١ ـ قوله: «إنّما مثل» قصر إضافي يسمى هنا (قصر موصوف على صفة)، وعلماء النحو يقولون: إنّما للحصر مثل: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا ﴾.

٢ - قوله: «مثلُ الجليس الصالح» فيه تشبيه يسمى (التشبيه التمثيلي) حيث شبّهه ببائع الطيب الذي يدخل إلى حانوته الإنسان، فيشتري منه أو يهديه البائع، أو يشم الرائحة العطرية الزكيّة.

٣ - قوله: «كحامل المسك، ونافخ الكير» فيه لفٌ ونشر مرتب، وهو من المحسِّنات البديعية، فحامل المسك مثلٌ للجليس الصالح، ونافخُ الكير مثلٌ للجليس السوء، وسمّي (لفاً ونشراً مرتباً) لأنه قد عاد عليهما بالترتيب، ومثله قوله تعالى: ﴿ ومِنْ رحْمَتهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وٱلنَّهـارَ، لِتَسْكُنُوا فِيـهِ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْله ﴾.

الشَــرحُ الأدبيّ

ما أروعه من معنى وما أجمله من تصوير! تتجلى فيه البلاغة اللغويه وروعة البيان، وإن من البيان لَسحراً، صورة حية صادقة للجليس. فالجليس الصالح هو الذي ترتاح إليه نفسك، ويطمئن به فؤادك وتنتعش روحك.. تطرب لحديثه وتنعم بمجالسته، وتسعد بصحبته، إنه عدة في الرخاء وزينة في الشدة، ويلسَم الفؤاد وراحة النفس:

صُحْبَـةُ ٱلـصَّـالِحينَ بَلْسَمُ قَلْبِي إنَّـهَـا لِلنُّـفُـوسِ أعْـظَمُ رَاقِـي

وقد شبهه الرسول ﷺ ببائع الطيب، الذي ينفحك بعطره، ويغمرك بنشره؛ فإما أن يهديك، وإما أن تجد عنده ريحاً طيبة، فأنت معه في ربح دائم ونشوة غامرة.

أما جليس السوء فليس هناك أبلغ من تشبيهه بالحدَّاد، الذي ينفخ بكيره، فأنت معه في خسارة دائمة فإن لم يحرقك بناره، أحرقك بشرره، فصحبته همٌ دائم، وحزن لازم.

وقد سأل أحدُ الشعراء عن جوَاب لهذا البيت:

مَالِيْ ارَى ٱلشَّمْعَ يَذْوِيْ فِي مَعَادِنِـهِ مِنْ صُحْبَةِ ٱلنَّارِ امْ مِنْ فُرْقَةِ ٱلْعَسَلِ؟

فأجابه أحد الأدباء:

مَنْ لَمْ تُجَانِسْهُ فَاحْذَرْ أَنْ تُجَالِسَهُ   مَا ضَرَّ بِالشَّمْعِ إلاَّ صُحْبَةُ الفُتُلِ

وهكذا يقولون: من جالس جانس، لأن النفس تقتبس الخير أو الشر من الجلساء، ولهذا أمر الباري تبارك وتعالى بصحبة الصالحين: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله، وكونُوا مع الصادقين ﴾.

وفي هذا البيان النبوي الرائع، تتجلَّى الحقيقة للناظر، ساطعةً واضحةً منيرة، في خطر الاختلاط بأهل المجون والفجور، وأهل الشر والفساد، فمصادقتهم خسران وندامة، ومجالستهم شقاء وبلاء، لأن عدوى الأخلاق كعدوى الأمراض، تنتقل من المريض إلى السليم، فتعكِّر صفوه، وتفسد حياته، وكما يشم الإنسان الطيب من حانوت بائع المسك، كذلك يشم الداخل إلى حانوت الحداد، الرائحة الكريهة، المنبعثة من نتن الحديد، وذلك أبلغ تمثيل، وأبدع تصوير، لمصادقة الإنسان لأهل الخير والصلاح، أو أهل البغي والفساد، يوضحه لنا الرسول الكريم، عليه أفضل الصلاة والتسليم، في بيانه المشرق، وأسلوبه البديع، الذي يأخذ بالألباب، بسلاسته وحلاوته.

فليحرِصْ المرء على البعد عن صداقة الأشرار، فإنها خزي وعار، والعاقل من صاحب أهل الصفاء والصلاح، واجتنب أهل البدع والأهواء، وما أحسن قول القائل:

عنِ المرءِ لا تَسَلْ وسَلْ عن قَرِينهِ   فكلُّ قَرِينٍ بالمُقَارِنِ يقتدي

* * *

هلاك الأمم بالفسق والفجور

الحديث السادس

عن أمِّ المُؤمِنينَ زَينبَ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّ النبيَّ ﷺ دَخلَ عليها فَزِعاً يقولُ:

«ويلٌ للعربِ مِنْ شَرٍّ قَد اقتَرَبَ، فُتِحَ اليومَ مِنْ رَدْمِ يأجُوجَ ومَأجُوجَ مِثْلُ هَذِه - وحَلَّقَ بأُصْبعَيْهِ الإبهامِ : والتي تَلِيْها - فَقلتُ: يا رسولَ الله: أنَهْلِكُ وفينا الصَّالِحونَ؟ قالَ: نَعمْ إذا كَثُرَ الخَبَثُ».

(رواه البخاري ومسلم)

الأبحاث العربية

فَزِعاً : الفَزَع: الذعرِ والخوف، ومنه قوله تعالى: ﴿ لَا يَحزُنُهمُ الفَزَعُ الأَكْبَرُ ﴾، وقوله سبحانه: ﴿ وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُوْنَ ﴾. وفي الحديث الشريف الذي رواه أنس: «فزع أهل المدينة ذات ليلة فخرجوا جهة الصوت فرأوا الرسول ﷺ وهو راجع يركب بغلته، وهو يقول: لن تراعوا، لن تراعوا فكان الرسول ﷺ أسبقهم...».

ويل للعرب : كلمة ويل تستعمل للتهديد: والوعيد، مثل قوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهم، وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾، وقوله

سبحانه: ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِيْنَ ﴾ أي: هلاك وعذاب لهم، قال في الصّحاح: ويلٌ كلمة مثل ويح إلا أنها كلمة عذاب. وقد تستعمل لإظهار الحسرة والتفجع كما في الحديث هنا، وكما في قوله تعالى: ﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ﴾. والعَرَب: اسم جمع يقابِل الفُرسَ والعَجَم، وأما الأعراب فهم سكان البوادي يقابِل سكان المدن وهم الحاضرة. (انظر دليل الفالحين).

ردم يأجوج : الرَّدْم: السدّ العظيم، ومنه قوله تعالى: ﴿ أَجْعَل بَيْنَكُم وبَيْنَهُم رَدْمَاً ﴾ أي: سداً متيناً. والرَّدْم أكبر من السدّ وأوثق فهو السدُّ المتين والحاجز الحصين. وردم يأجوج ومأجوج هو السد العظيم الذي بناه (ذو القرنين) وإلى ذلك تشير الآية الكريمة: ﴿ قَالُوا يَا ذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يأجُوجَ ومَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ في الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجَاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا وَبَيْنَهُمْ سَداً؟ ﴾. ويأجوج ومأجوج هما: التتر والمغول، أصلهما من أبٍ واحد يسمى (تُرك) وكانوا يسكنون الجزء الشمالي من آسيا وهم من الأمم المتوحشة.

الخَبَث : أي إذا كثر الفسوق والفجور، هكذا فسّره الجمهور، وقيل: المراد به المعاصي مطلقاً. وأصل الخَبَث الشيء النجِسُ المستقبَح، ثم أُطلق على كل فاسدٍ وقبيح من القول والعمل.

الأبحاث البلاغية

١ ـ قوله: «ويل للعرب» جملة خبرية أبتدائية، والغرض من هذا الخبر إظهار (التفجع والحزن) على ما يحلّ بالعرب في آخر الزمان.

٢ ـ بين لفظي «العرب» و«اقترب» في علم البديع ما يسمّى بـ (السَّجع) وهو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير، وهو في النثر كالقافية في الشعر، وأفضله ما تساوت فِقره، وهو على ثلاثة أنواع (سجع مطرَّف، وسجع مرصّع، وسجع متوازي). وللسّجع نغمة موسيقية ووقع جميلٌ، ولا يستحسن إلا إذا جاء عفواً،

خالياً من التكلف والتصنع كما في هذا الحديث الشريف، وإلا فهو ثقيل يشبه سجع الكُهّان.

٣ ـ قوله: «مثل هذه» فيه تشبيه وهو (مرسل مجمَل) لأن أداة الشبه مذكورة، ووجه الشبه محذوف.

٤ ـ قوله: «الخبث» هو كناية عن الفسوق والفجور الذي يكثر في آخر الزمن فهو (كناية عن صفة).

٥ ـ قوله: «أنهلك وفينا الصالحون؟!» استفهام للتعجب من هلاك الأمة وفيها العباد الصالحون، والأبرار المتقون.

الأبحاث النحوية

(ويل للعرب): ويل مبتدأ، والجار والمجرور هو الخبر. وجاز الابتداء بها مع أنها نكرة لكونها موصوفة، والوصف هنا تقديري، أي: ويل عظيم للعرب.

وقد ذكر النُّحاة أن الوصف على ثلاثة أنواع: وصف لفظي كقوله: رجل من الكرام عندنا، ووصف تقديري كقوله تعالى: ﴿وطائفة قد أهمتهم أنفسهم﴾ فإن تقدير الكلام وطائفة من غيركم، ووصف معنوي وهو إذا كانت النكرة على صيغة التصغير كقولك: رُجَيْلٌ عندنا، فإن المعنى رجل صغير عندنا[1].

(فزعاً): حال من فاعل دخل، أي: دخل عليها الرسول حال كونه مذعوراً مضطرباً، وهو فعلٌ مشتق وليس جامداً. (يقول): فعل مضارع والجملة من الفعل والفاعل في محل نصب حال ثانٍ، أي: فزعاً قائلاً: ويل للعرب. (يأجوجَ ومأجوج): لفظ يأجوج ومأجوج مضاف إليه ومحل الجر بالإضافة، ولكنه ممنوع من الصرف للعَلَمية والعُجْمة. (مثل): نائب فاعل لفُتِحَ. (وحلَّق): الواو واو الحال والجملة حالية. (وفينا الصالحون): الواو للحال والجار والمجرور خبر مقدم، والصالحون مبتدأ مؤخر. وجملة (إذا كثر الخبث): مقول القول.

---

(١) انظر: شرح ابن عقيل صفحة ١٨٨.

التعريف براوي الحديث

الراوي للحديث الشريف زوج الرسول ﷺ وهي (زينب بنت جحش) رضي الله عنها التي أسلمت مع المسلمين الأوائل وهاجرت مع رسول الله ﷺ، وهي ابنة عمة الرسول الكريم، وأمها هي (أميمة بنت عبد المطلب). وقد تزوجت (زيد بن حارثة) مولى رسول الله ﷺ ومتبنّاه ثم بعد أن طلقها زيد أراد الرسول الكريم أن يتزوجها ليبطل (حكم التبني) ولكنه كان يخشى من ألسنة المنافقين أن يقولوا: تزوّج امرأة ابنه من التبني، فكان يتمهل في الأمر حتى أنزل الله سبحانه وتعالى حكمه القاطع بتزويج الرسول من (زينب) وإلى ذلك تشير الآية الكريمة: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ... ﴾ الآية. توفيت بعد الرسول ﷺ سنة عشرين من الهجرة، ودفنت بالبقيع، وصلى عليها عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع جمع من الصحابة الكرام، أسكنها الله فسيح جناته، ورزقنا الله محبتها ومحبة جميع أمهات المؤمنين.

الشرح الأدبي

في هذا الحديث الشريف من دلائل النبوّة ومظاهر الرسالة ما فيه، فقد أشار إلى ناحية غيبيّة تقع للعرب في المستقبل القريب، وقد حصل كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ حيث كثُرت الفتن والنكبات على العرب والمسلمين واشتد عليهم البلاء وحلت بهم الكوارث، وذلك كله ناتج عن تغيرهم وانحرافهم عن هدي الإسلام الحنيف، واستبدالهم النظم والقوانين الغربية التي هي من وضع البشر، بالنظام السماوي الإلهي.. فلذلك استحقوا عذاب الله وانتقامه، وإذا كثُر الشر والفساد وانتشرت المعاصي والمنكرات هلك الناس جميعاً صالحهم وطالحهم، وأحاط بهم العذاب لأنهم بهذا السكوت عن مقاومة المنكر جرؤوا الناس على اقتراف الآثام والفواحش، وهذا ما أشار إليه هدي الرسول العظيم ﷺ حين سألته السيدة زينب: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نَعَمْ إِذَا كَثُرَ ٱلْخَبَثُ».

والحديث الشريف يصوّر حالة النبي ﷺ وهو يدخل بيت زوجه زينب رضي

الله عنها وهو في حالة من الفزع والاضطراب تشير إليهما علائم وجهه الشريف، وحزنه العميق وهو يردِّد هذه الكلمات: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب»، فإن هذه الصورة المفزعة لَتشهد بمبلغ الأسى والحزن الذي كان يختلج في صدر النبي عليه الصلاة والسلام لما يلحق العرب من كوارث ومصائب لا تعدُّ ولا تحصى، وقد أشار الرسول الكريم إلى تلاحق الفتن وتتابع النكبات على العرب بكناية لطيفة هي ابتداء انثقاب السد (سدُّ يأجوج ومأجوج) وهو السد الذي يحجز وراءه تلك الأقوام المتوحشة التي إن خرجت أهلكت الحرث والنسل، فهو إذاً تشبيه للفتن التي تحصل للعرب والمسلمين بالبلاء الذي يكون وراء خراب ذلك السد وما يتولد على أثر الخراب من أضرار فادحة تلحق بالناس الآمنين، أجارنا الله من فتنة الدنيا والدين، وقد أشار القرآن الكريم، إلى بعض هؤلاء الأقوام المفسدين، فقال تقدست أسماؤه ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وهم من كل حَدَبٍ يَنْسِلُونَ. وَاقْتَرَبَ الوَعْدُ الحَقُّ، فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا، يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ فخراب السدِّ، وخروج يأجوج ومأجوج، علامة على انتهاء الدنيا، وخراب العالم، وإنذار من اللهِ بفناء البشرية.

وما أتعس الإنسانية، حين يكثر فيها الشر والضلال، فتستحق العذاب والنكال، كما أخبر الصادق المصدوق عليه أفضل الصلاة والتسليم!!.

* * *

الإسلام دين القوة

الحديث السابع

عن ابي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:

«المُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيرٌ وأحبُّ إلى اللهِ مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ واسْتَعِنْ باللهِ ولا تَعْجِزْ، وإنْ أصَابَكَ شيءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أنِّي فَعلْتُ كان كذَا وكذَا، ولكنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ ومَا شَاء فَعَلَ، فإنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطانِ».

(رواه مسلم)

الأبحاث العربية

المؤمن القوي: لفظ (القوي) هنا ليس المراد منه قوة الجسم فحسب، بل إنَّ اللفظ جاء عاماً ليشمل القوة بجميع أنواعها، من قوة البدن، وقوة النفس، وقوة العلم، وقوة الإيمان. وهكذا فالمؤمن القوي في إيمانه وفي عقيدته وفي علمه وفي جسمه خير من المؤمن الضعيف.

خير : أفعل تفضيل حذفت ألفه تخفيفاً، وليس مصدراً لأن معناه التفضيل بدليل ما بعده وهو (أحبُّ) وأمَّا في قوله: (وفي كل خيرٌ) فإنها مصدر.

وفي كلٍ : التنوين في (كلٍ) يسمى (تنوين عوض) وهو التنوين الذي يأتي عوضاً عن الاسم ويلحق لفظ كل، فهذا التنوين عوض عن قوله: (وفي المؤمن القوي خير والمؤمن الضعيف خير).

احرص : من الحِرْص وهو العناية بالشيء والاهتمام به حتى لا يفوت، والماضي (حَرَص) بفتح الراء، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾. والمضارع يحرِص، قال تعالى: ﴿ إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ ﴾.

واستعن بالله : الاستعانة طلب العون من الله سبحانه والاعتماد عليه دون الاعتماد على الأسباب أو الأشخاص، فمن أعانه الله فهو المعان، وقد أحسن القائل:

إِذَا لَمْ يُعِنْكَ اللهُ فِيمَا تُرِيدُهُ
فَلَيْسَ لِمَخْلُوقٍ إِلَيْهِ سَبِيلُ

وَإِنْ هُوَ لَمْ يُرْشِدْكَ فِي كُلِّ مَسْلَكٍ
ضَلَلْتَ وَلَوْ أَنَّ ٱلسِّمَاكَ دَلِيلُ

ولا تَعجِز : بكسر الجيم على الأفصح، أي: لا تفرّط ولا تقصّر في العمل بل اعتمد على الله مع اتخاذ الأسباب.

كذا وكذا : أي حصل الأمر الفلاني أو الشيء الفلاني فهما كناية عن شيء مبهم.

تفتح عمل الشيطان: أي وساوس الشيطان وأوهامه التي يلقيها على الإنسان فيكون سبباً لخسرانه وهلاكه.

الأبحاث البلاغية

١ ـ قوله: «المؤمن القوي» جملة خبرية من الضرب الابتدائي، وفائدة الخبر هو تحريك الهمة، والحث والترغيب لاكتساب أنواع القوة.

٢ ـ قوله: «خير» أفعل تفضيل بمعنى أكثر فضلاً، ومثله «أحبُّ إلى الله»، فإنّ كِلا اللفظين يقصد به التفضيل، لكنّ لفظ (خير) لا تدخله الهمزة وكذلك لفظ (شر) تقول: فلان خير من فلان ولا تقول: أخير.

٣ ـ قوله: «وفي كلٍ» فيه (مجاز بالحذف) وهو حذف إيجاز، وفي التنوين إشارة إلى هذا الحذف، وأصله في المؤمن القوي خير، وفي المؤمن الضعيف خير.

٤ ـ قوله: «القويُّ»: بين لفظ (القوي) ولفظ (الضعيف) من المحسّنات البديعية ما يسمّى بـ (الطباق) مثل قوله تعالى: ﴿ وَتحسَبُهُمْ أيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ ﴾.

٥ ـ قوله: «تفتح عمل الشيطان» المراد: تأتي بالوساوس والأوهام، فهو إذن كناية عن الوساوس التي تصيب الإنسان من جراء قوله: (لَوْ).

الأبحاث النحوية

(المؤمن القوي): المؤمن مبتدأ، والقويُّ صفة، والخبر هو (خير). (وفي كلٍ خير): الجار والمجرور خبر مقدم وخير مبتدأ مؤخر. (على ما ينفعك): ما اسم موصول في محل جر بعلى والجار والمجرور متعلق باحرص. (قدّر الله): فعل وفاعل، وضبَّطه بعضهم بفتح الدال ورفع الراء فيكون مبتدأ (قَدَرُ الله) أي: تقدير الله ومشيئته، وجملة قدَّر الله... إلخ: مَقول القول. (فإن لَوْ): كلمة (لو) كلمة قصد لفظها اسم إنَّ، وجملة (تفتح عمل الشيطان): خبر إنَّ.

الشرح الأدبي

في هذا الحديث النبوي الكريم، دعوة إلى القوة، وإلى الأخذ بأسباب العزة والنصر، فالإسلام دين القوة، ودين العزة والكرامة، لا يرضى ـ بحال من الأحوال ـ أن يكون أتباعهُ في ضعفٍ وهوان، أو ذلةٍ واستكانة، لأن المؤمن عزيز ﴿ وَلِلّهِ ٱلعِزَّةُ وَلِرَسُوْلِهِ وَلِلْمُؤْمِنِيْنَ وَلَكِنَّ ٱلْمُنَافِقِيْنَ لاَ يَعْلَمُوْنَ ﴾، فلا يجتمع إيمان وهوان كما لا يجتمع النور مع الظلام، كيف لا.. والمؤمن يعلم أن له إحدى

الحُسنين: إما النصر والسعادة، وإما الفوز بالشهادة، وشعاره الذي يردده قول الشاعر العربي:

عِشْ عَزِيزاً أَوْ مُتْ وَأَنْتَ كَرِيمٌ بَيْنَ طَعْنِ ٱلْقَنَا وَخَفْقِ ٱلْبُنُودِ

ولهذا فقد دعا الإسلام إلى القوة في كثير من آيات الذكر الحكيم ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ، وَمِنْ رِبَاطِ ٱلْخَيْلِ، تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ... ﴾ الآية. وضرب رسول الإنسانية محمد ﷺ أروع الأمثلة في الشجاعة والقوة، حين فرَّ الناس يوم حنين، ولم يبق معه إلا نفر يسير، فكان ﷺ وهو راكب على بغلته يخترق صفوف الأعداء وهو يقول:

أَنَا ٱلنَّبِيُّ لَا كَذِبْ أَنَا ٱبْنُ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبْ

ولا عجب أن نرى هذا التوجيه الكريم من رسول الهدى ونبي الرحمة، يدعونا فيه إلى سلوك طريق القوة، ويفضل المؤمن القوي على المؤمن الضعيف، لأن القوة هي طريق العزة، وهي طريق النصر، وليست القوة التي دعا إليها نبي الإسلام قاصرة على قوة العضلات أو قوة الجسم، بل هي تشمل ضروب القوة، من قوة الجسم، والعقل، والعلم، وقوة الخلق والدين، وجميع السبل التي تقوي الإنسان جسمياً أو عقلياً أو روحياً، حتى يبقى المؤمن مَهيب الجانب، عزيز النفس، مَصون الكرامة، وليس الأخذ بالأسباب يتنافى مع الاعتماد على الله، والاستعانة به، فعلى الإنسان أنْ يسعى للأخذ بالأسباب مع اعتماده الأساسي على الله عزّ وجلّ. ولو أن المسلمين أخذوا بهذا الهدى النبوي الكريم، لعاشوا أعزة، سعداء كرماء. وليتهم يفعلون!!.

* * *

علماءُ السُّوءِ

الحديث الثامن

عَنْ أُسَامَةَ بنِ زَيدٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ، قالَ: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول:

«يُؤْتَى بالرَّجلِ يَوْمَ القِيامةِ فيُلْقَى في النَّارِ فتَنْدَلِقُ أقْتابُ بَطْنِهِ فَيدُورُ بها كما يَدورُ الحِمارُ في الرَّحَى، فيَجتَمعُ إليهِ أهْلُ النَّارِ فيَقُولونَ: مَالكَ يا فُلانُ؟ ألَمْ تَكنْ تأمُرُ بالمَعْرُوفِ وتَنْهى عَنِ المُنْكَرِ؟ فيقولُ: بلَى، كُنتُ آمُرُ بالمعروفِ ولا آتيهِ، وأنْهَى عَنِ المُنكَرِ وآتيهِ».

(رواه مسلم)

الأبحاث العربية

تندلق : الاندلاق: خروج الشيء من مكانه. يقال: آندلق الماء، وآندلقت الفتنة.

أقتاب بطنه : جمع قتب بمعنى الأمعاء جمع مِعًى، والمعنى: تخرج أمعاؤه من بطنه فيدور بها كما يدور الحمار بالطاحون.

الرّحى : المراد بالرّحى الحجر الكبير المسمى بالطاحون يطحن الحب فيجعله دقيقاً، فهو من باب التمثيل لا الحقيقة.

المعروف : المعروف كل ما يستحسنه الشرع وترتضيه العقول السليمة من قول أو عمل.

المنكر : والمنكر كل ما يستقبحه الشرع ولا ترتضيه العقول السليمة من قول أو عمل. والمعروف والمنكر متلازمان غالباً، فقلّما يأتي لفظ الأمر بالمعروف إلا ويتبعه النهي عن المنكر في الآيات والأحاديث الشريفة، قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.

ولا آتيه : المراد لا أفعله، أي: كنت آمر الناس بالمعروف ولا أفعل المعروف وأنهاهم عن المنكر وأفعله، وفي أمثال هؤلاء يقول الله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾.

الأبحاث النحوية

(يؤتى): فعل مضارع مبني للمجهول، ونائب الفاعل هو الجار والمجرور (بالرجل). (يوم القيامة): منصوب على الظرفية الزمانية، مضاف ومضاف إليه. (أقتاب بطنه): أقتاب فاعل لتندلق، و(بطنه) مضاف إليه. (كما يدور): الكاف حرف تشبيه وجر و(ما) مصدرية، أي: كدوران الحمار بالرّحى. (مالك يا فلان): ما: اسم استفهام في محل رفع مبتدأ والجار والمجرور (لك) متعلق بمحذوف خبر، والتقدير: أيُّ شيء حاصل لك. (تكن تأمر): تكن متصرفة من كان الناقصة، واسمها هو الضمير المستتر، وخبرها هو جملة تأمر بالمعروف.

الأبحاث البلاغية

١ ـ قوله: «يؤتى بالرجل» جملة خبرية من النوع الابتدائي، والغرض إفادة المخاطب الحكم الذي تضمنته الجملة، ويسمى هذا النوع (فائدة الخبر).

٢ ـ قوله: «كما يدور» فيه تشبيه يسمى (مرسَلاً مفصّلاً) لأنه تام الأركان، فالرجل يدور بأمعائه في جهنم، كما يدور الحمار برحى الطاحون.

٣ ـ قوله: «تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر» فيه من المحسِّنات البديعية ما يسمّى بـ (المقابَلة)، فلفظة (تأمر) يقابلها (تنهى) ولفظة (المعروف) يقابلها (المنكر).

٤ ـ قوله: «بلى» تفيد معنى التحقيق وهي توجب ما يقال، فإذا قيل: ألست عالماً، فقلت: بلى فمعناه أنا عالم، وإذا قلت في الجواب: نعم فمعناه لست عالماً، قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا: بَلَى ﴾ قال: لو قالوا: نعم لكفروا، لأن المعنى يصبح لستَ ربنا، وهذا دقيق فتنبّه له.

٥ ـ قوله: «ألم تكن تأمر» هذا استفهام إنكاري، والغرض منه (التوبيخ واللوم)، واعلم أنّ الإنكار إذا وقع في الإثبات يجعله نفياً، وإذا وقع في النفي يجعله إثباتاً، لأن نفي النفي ـ كما يقول علماء اللغة ـ إثبات، ونفي الإثبات نفي، مثاله قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ ﴾ دخل الاستفهام على النفي (لم) فصار المعنى إثباتاً، أي: قد وجدتك يتيماً فآويتك.

التعريف براوي الحديث

هو (أسامة بن زيد بن حارثة) مولى رسول الله ﷺ، وقد كان الرسول الكريم يحبه حباً عظيماً كما كان يحب والده ولهذا يدعى (الحِبّ بن الحِبّ) أي: الحبيب بن الحبيب، وقد كان صلوات الله عليه تبنّى والده زيداً فكان في أول الإسلام يدعى (زيد بن محمد) حتى نزل قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾، ونزل قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾. روي أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ أُسَامَةَ مِنْ أَحَبِّ ٱلنَّاسِ إِلَيَّ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ صَالِحَهُمْ، فَٱسْتَوْصُوا بِهِ خَيْراً». وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يُجِلُّونه ويعظمونه حتى كانوا يقدمونه على أولادهم، روي أن عمر بن الخطاب لما فرض العطاء جعل لابنه عبدالله ألفين وجعل لأسامة خمسة آلاف، فقال له في ذلك ابنه (عبدالله)،

فقال عمر: فضّلته لأنه كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ منك، وكان أبوه أحبَّ إليه من أبيك، فقدمت حِبَّ رسول الله ﷺ. ولقد كان منذ صغره ذا فطنة وذكاء وكان شجاعاً لا يخاف الأخطار وقد أمَّره الرسول ﷺ على جيش لحرب الروم وأمره أن يسير إلى الشام وكان عمره آنذاك ١٨ سنة وكان في الجيش أبو بكر وعمر وكبار الصحابة، وتوفي الرسول الكريم بعد أن عقد له أمارة الجيش ولكنه انتقل إلى الرفيق الأعلى وكان الجيش لم يسر بعدُ، فلما تولى الخلافة أبو بكر رضي الله عنه أنفذ إرسال الجيش إلى بلاد الشام وأبقى اللواء والقيادة بيد أسامة واستأذن في إبقاء عمر عنده، فذهب أسامة بالجيش ثم عاد منتصراً بعد أن ربح في المعركة، ولما طلب بعض الصحابة من (أبي بكر) عزل أسامة لصغر سِنِّه غضب وقال: ولاّه رسول الله وتأمروني بعزله، والله لا أحلُّ عقدةً عقدها رسول الله ﷺ. روي له في الصحيحين أحاديث عديدة. وتوفي بالجرف بعد مقتل عثمان سنة ٥٤ هـ، وحُمل إلى المدينة المنورة، فدفن فيها، رضي الله عنه وأرضاه.

الشرح الأدبي

العلم حياة النفوس، وغذاء القلوب، ونور العقول والأبصار. . ولكن ما أتعس الإنسان وما أشقاه حين يصبح العلم وبالاً عليه، ويكون سبباً لهلاكه ودماره؟ فالرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم يخبر عن ذلك العالم الذي أعطاه الله العلم، ورزقه الفهم والإدراك، فكان يعلّم الناس ويرشدهم، ويعظهم ويذكّرهم، ويأمرهم بالخير، وينهاهم عن الشر، ولكنه ما كان يفعل الخير ولا يجتنب السوء والشر، فكان فعله غيرَ قوله ومظهره غير مخبره، ولذلك لم ينفعه علمه بل كان سبباً لدخوله جهنم. أفليس عجيباً أن يكون العلم وبالاً على الإنسانية؟! وحقاً. . إنها لصورة رهيبة تقشعر لها الأبدان، وترتعد لها الفرائص، صورة ذلك الرجل وقد اندلقت أمعاؤه من بطنه، فأصبح يدور بها كما يدور الحمار بالرحى، وأين ذلك يكون؟! إنه في جهنم المتأجِجة بنيرانها الملتهبة بسعيرها، والناس قد اجتمعوا عليه يسألونه مستغربين عن سبب هذا العذاب، وعن سبب ذلك المصير المشؤوم؟! يقولون له: ألست أنت فلان الذي كنت تأمرنا في الدنيا بالمعروف

وتنهانا عن المنكر؟! ألست أنت الذي كان يقضي أوقاته في الدعوة إلى الخير والبر والإصلاح؟! فيقول: نعم أنا فلان الذي كنت آمركم بالخير، ولكنني لا أفعله، وأنهاكم عن الشر وأفعله.

حقاً. إنها النهاية الأليمة المفجعة التي تذيب القلب، وتُلذِّع الفؤاد، فليس أوجع على النفس، ولا أنكى على القلب من أن يضلَّ الإنسان ويشقى بسبب العلم، وفي أمثال هؤلاء يقول القرآن الكريم: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ، وَأَضَلَّهُ اللهُ على علم، وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ، وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً، فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ ٱللهِ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ؟﴾.

فالعلم الذي هو سبب السعادة والمنار الهادي في سبيل الحياة إذا لم ترافقه تقوى الله سبحانه، كان سبباً للشقاء والهلاك، وكان حجة على صاحبه ووبالاً عليه يوم القيامة، ولله در القائل حيث يقول:

لَوْ كَانَ فِيْ ٱلْعِلْمِ مِنْ دُوْنِ ٱلتُّقَى شَرَفٌ   لَكَانَ أَشْرَفَ خَلْقِ ٱللهِ إِبْلِيْسُ

اللهم آحفظنا من السوء والبلاء، ولا تجعلنا من الذين يقولون ما لا يفعلون، ولا من الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، إنك سميع مجيب الدعاء.

* * *

الظلم ظلمات يوم القيامة

الحديث التاسع

عنْ جَابرٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قال:

«اتَّقُوا الظُّلْمَ فإنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ، واتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم، حَمَلَهُم عَلَى أنْ سَفَكُوا دِماءَهُمْ وَآسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ».

(رواه مسلم)

الأبحاث العربية

اتقوا الظلم : أي اجتنبوا الظلم وابتعدوا عنه، والظلم: هو التصرف في حق الغير بدون حق أو مجاوزة الحد. قال ابن الجوزي: الظلم يشتمل على معصيتين: ١ ـ أخذ حق الغير بدون حق. ٢ ـ ومبارزة الرب سبحانه وتعالى بالمخالفة والمعصية. والظلم إنما يقع غالباً بالضعيف الذي لا يقدر على الانتصار، وإنما ينشأ من ظلمة القلب لأنه لو آستنار لاعتبر.

ظلمات : ظلمات جمع ظلمة، وهي شدة الظلام بحيث لا يرى الإنسان ما يحيط به، ويحتمل أن اللفظ على حقيقته، أي إن الظلم كان سبباً لتخبُّط الإنسان في الظُّلمات يوم القيامة كما أن عمل الصالحات يكون سبباً للنور يوم القيامة ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ

يَسْعَى نُورهُمْ بين أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ ﴾. ويحتمل أن المراد بالظلمات هنا الشدائد كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ أي: من شدائدها وأهوالها.

الشُّح : أي اجتنبوا البخل الذي يعرِّض صاحبه للدمار. والشح هو البخل مع الحرص الشديد أو هو أشد البخل، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾. وفرَّق بعضهم فقال: البخل يكون بالمال، والشح يكون بالمال وبعمل الخير فهو أعم. وفي الحديث الشريف: «إِذَا رَأَيْتَ شُحَّاً مُطَاعَاً، وَهَوىً مُتَّبَعَاً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِخُوَيْصَةِ نفسك، وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ العَامَّةِ». (رواه أبو داود والترمذي)

سفكوا دمَاءهم: أي أراقوا دماء بعضهم البعض، والمعنى: قتلوا بعضهم البعض بسبب الشح بالمال والحرص عليه.

واستحلوا محارمهم: أي استباحوا ما حرمه الله عليهم من أكل الأموال وسفك الدماء، والمحارم جمع مَحْرَم، وأما المحَرَّم فجمعه محرَّمات، والمحرَّم ـ بالسكون والتشديد ـ معناه ما حرَّمه الله على عباده.

الأبحاث النحوية

(إنَّ الظلم ظلمات): إنَّ حرف توكيد ونصب، و(الظلم) اسمها و(ظلمات) خبرها، و(يوم القيامة) منصوب على الظرفية وهو مضاف. (أهلك من كان قبلكم): هذه الجملة في محل رفع خبر (إنَّ) الثانية، و(مَنْ) اسم موصول مفعول به و(كان) تامة بمعنى وجد فهي مثل ﴿ وإن كان ذو عسرة ﴾ أي: إن وُجِد معسر. (أن سفكوا): أنْ وما بعدها في تأويل مصدر مجرور بـ(على) أي: حملهم على سفك دمائهم، واستحلال محارمهم.

الأبحاث البلاغية

١ ـ قوله: «اتقوا الظلم» و«اتقوا الشح» كلٌّ منهما جملة إنشائية خرجت عن

معناها الأصلي إلى (التحذير والتنبيه).

٢ - قوله: «الظلم ظلمات» في هذه الجملة جناس لطيف يسمى (جناساً ناقصاً) وهو من المحسِّنات البديعيّة.

٣ - قوله: «فإنَّ الشحَّ أهلك» نسبة الإهلاك إلى الشح من باب المجاز وهو (مجاز عقلي) مثل: أنبت الربيع البقل، وبنى الأمير البلدة.

٤ - قوله: «سفكوا دماءهم» مجاز بالحذف، فهو على حذف مضاف، المعنى: سفكوا دماء إخوانهم، أو سفكوا دماء بعضهم.

الشَّرحُ الأدبي

ما أعظم الإسلام دين الحق والعدالة، ودين المساواة والإنصاف. إنه الدين الذي يمقت الظلم ويكره العدوان، ويأمر بالعدل والإحسان، وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي.

ورسول الله ﷺ يبين لنا في هذا الحديث النبوي الرائع عاقبة الظلم ومصير الظالمين.. إنه مصير مشؤوم لأنه يكون يوم القيامة ظلاماً دامساً يحل بصاحبه فلا يرى طريقه، ولا يعرف كيف يمضي ولا أين يسير؟! وبهذا التعبير الموجز عن مصير الظالمين ينفِّر الرسول الكريم من الظلم بجميع أنواعه وضروبه، ويحذر من عاقبته التي هي أسوأ عاقبة ﴿وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون﴾. وليس هذا فحسب، بل إن الظالم سينتقم الله منه في الدنيا قبل الآخرة، فإذا تأخر عنه العذاب فليس ذلك بإهمال من الله - جلّ وعلا - بل إنه زيادة في عذابه لأنه استدراج له، وفي ذلك يقول رسول الهدى والرحمة محمد ﷺ: «إِنَّ ٱللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾.

واقبح أنواع الظلم وأبشعه صورة أن يظلم الإنسان قريبه، أو صديقه، أو من يجب الإحسان إليه والعطف عليه، وما أصدق قول (طَرَفة ابن العبد):

وَظُلْمُ ذَوِي ٱلْقُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً   عَلَى ٱلنَّفْسِ مِنْ وَقْعِ ٱلْحُسَامِ ٱلْمُهَنَّدِ

وهكذا تكون عاقبة الظلم والعدوان.

وفي الحديث الشريف تحذير آخر من مرض اجتماعي خطير، ألا وهو الشح والبخل، لأنَ المجتمع الإسلاميّ مجتمع التكافل والتضامن والتعاون بين أفراده، فإذا فشا البخل فيه عمت العداوة والبغضاء بين الفقير والغني، ولذا كان البخل سبباً لهلاك الأمم السابقة حيث دفعهم إلى سفك الدماء وقتل النفوس واستحلال المحارم التي حرمها الله تعالى. فما أقبح الظلم والشح! وما أشنع عاقبتهما الوخيمة التي هي سبب الشقاء الدائم والخسران المبين.

* * *

عَدَالـــةُ الإسْـلَامِ

الحديث العاشر

عن عائشةَ رضِيَ اللهُ عنها: أنَّ قُرَيْشاً أهمَّهُمْ شَأنُ المرأةِ المَخْزومِيَّةِ التي سَرَقَتْ، فَقَالوا: مَنْ يُكَلِّمُ فِيها رَسُولَ اللهِ ﷺ؟! فقَالـوا: ومَنْ يَجْتَرِىءُ عليهِ إلاَّ أُسَامَةُ ابنُ زَيْدٍ، حِبُّ رسولِ اللهِ ﷺ؟ فَكلَّمهُ أسامَة فقال رسولُ اللهِ ﷺ:

«أتَشْفَعُ في حَدٍّ مِنْ حدُودِ اللهِ تعالى؟ ثُـمَّ قَامَ فاخْتطَبَ، ثُمَّ قَالَ: إنَّما أهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أنَّهُمْ كَانُوا إذَا سَرَقَ فيهمُ الشَّريفُ تركوهُ، وإذَا سَرَقَ فيهمُ الضَّعِيفُ أقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وايْمُ اللهِ لَوْ أنَّ فَاطِمَةَ بنتَ مُحمَّـدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدها».

(متفق عليه)

الأبحاث العربية

اهمهم : أي جلب لهم الهمَّ والقلق، لأن هذه المرأة كانت من الأشراف فخاف أهلها وعشيرتها أن يقطع الرسول يدها فبحثوا لها عن طريق للخلاص.

المخزومية : نسبة إلى (بني مخزوم) وهي قبيلة من قبائل قريش وإليها ينتسب

خالد بن الوليد رضي الله عنه، و (بنو مخزوم) و (بنو هاشم) و (بنو عبد المطلب) كلهم من الأشراف.

من يكلم فيها رسول الله : أي من يكلمه في شأنها من أجل الشفاعة حتى يترك الرسول إقامة الحدِّ عليها.

حِبُّ رسول الله : أي حبيب الرسول المقرَّب لديه، وهو بالكسر بمعنى الحبيب وبالضم مصدر أحب، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِيْنَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله ﴾. والحب في الله والبغض في الله أوثقُ عرى الإيمان.

أتشفع في حدّ؟ : الاستفهام هنا للإنكار فهو ﷺ ينكر على أسامة الشفاعة في الحدود التي فرضها الله، وجاء في رواية أخرى: فتلوّن وجه رسول الله، فقال: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُوْدِ ٱللهِ؟».

الشريف : صاحب المنزلة والجاه وجمعه أشراف قال ﷺ: «أَشْرَافُ أُمَّتِي حَمَلَةُ ٱلْقُرْآنِ».

وايم الله : قسم بالذات المقدّسة معناه قسَماً بالله، وأصل أيم الله (أيمن الله) جمع يمين حذفت النون منه فصار (أيم الله) وهو من أنواع القسم.

الأبحاث النحوية

(أنَّ قريشاً أهمهم): أنَّ حرف توكيد ونصب (قريشاً) اسمها منصوب، والخبر جملة (أهمهم) و(شأن) فاعل لأهمهم. وجملة (مَنْ يكلم؟): مَقول القول. (إلاّ أسامةُ حبّ رسول الله): إلاّ أداة حصر و(أسامةُ) فاعل ليجترىء و(حبُّ) بدل من (أسامةُ) وهو مضاف و(رسول الله) مضاف إليه. (إنما أهلك الذين): إنما كافة مكفوفة ملغاة لا عمل لها و(أهلك) فعل ماضي و(الذين) مفعول به مقدم. وجملة (أنهم كانوا إذا سرق): في محل رفع فاعل. (وأيمُ الله): أيمُ مبتدأ، ولفظ الجلالة مضاف إليه، والخبر محذوف تقديره قَسَمي.

الأبحاث البلاغية

١ ـ قوله: «مَنْ يكلم فيها؟» مجاز بالحذف وأصل الكلام (من يكلّمُ في شأنِ رفع الحدّ عنها) فحذفت هذه الجملة اختصاراً لأن البلاغة في الإيجاز.

٢ ـ قوله: «أتشفع في حدّ؟» جملة إنشائية، والاستفهام إنكاري غرضه التوبيخ على ذلك الصنيع.

٣ ـ قوله: «تركوه» فيه مجاز بالحَذْف، أي: تركوا إقامة الحدّ عليه بدليل قوله: «أقاموا عليه الحد». وبين لفظي (تركوا) و (أقاموا) طباق.

٤ ـ قوله: «وأيـم الله لو أنَّ فاطمة» جملة خبرية من الضرب الإنكاري لوجود القسم.

الشرح الأدبي

في هذا الجو الروحاني، ومع هذه الإشراقة الوضّاءة، من حياة سيد البشر محمد ﷺ، يضرب الرسول الكريم أروع الأمثلة في تطبيق مبدأ العدالة والمساواة دون تفريق وتمييز، بين قوي وضعيف، وكبير وصغير، وشريف ووضيع، فالكل في نظر النبي سواء، لا يراعى الغني لغناه، ولا يحابى الشريف لشرفه ومنزلته، فالناس ـ في ميزان الدين ـ سواسية كأسنان المشط. وهكذا يأتي الرسول عليه أفضل الصلاة والتسليم على قواعد الجاهلية فيدكها من أساسها ويقتلعها من جذورها ويقرر مبدأ الحق، والعدل، والمساواة بين طبقات الأمة الواحدة.

ها هي امرأة من أشراف قريش تسرق على عهد رسول الله ﷺ ويخشى عليها قومها وعشيرتها أن يبلغ أمرها إلى الرسول فيقيم عليها الحد ويقطع يدها، ويهتمون لشأنها لأنها من الأشراف، فيبحثون لها عن شفيع عند النبي ﷺ فلا يجدون إلا (أسامة بن زيد) حبيب الرسول والمقرّب لديه، فيتكلمون معه ليتوسط الأمر ظناً منهم أن الرسول ﷺ لن يردَّ شفاعته ورجاءه لأنه الحبيب بن الحبيب، ويأتي (أسامة) إلى الرسول الكريم فيكلمه في شأن المرأة وهو واثق من قبول هذه الشفاعة، فما يكون من الرسول إلا أن يغضب ويظهر الغضب في وجهه، فيتلوّن

وجهه، وتحمر عيناه، وتثور في نفسه دوافع الغيرة على حدود الله فيقول لأسامة: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍ مِن حُدُوْدِ ٱللهِ!؟». يقول ذلك منكراً عليه مستعظماً لعمله ثم يقف خطيباً في الناس يبين لهم أن هلاك الأمم للسابقين إنما كان بسبب عدم تطبيق حدود الله فيقول قولته الكريمة: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَهْلَكَ ٱلَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيْهِمُ ٱلشَّرِيْفُ تَرَكُوْهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيْهِمُ ٱلضَّعِيْفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ ٱلْحَدَّ». وفي هذا بيان لسبب هلاك الأمم ودمارها.

الإسلام دين الحق والعدل والمساواة لا يرضى بهذا المبدأ الجائر الظالم، مبدأ التفرقة بين الناس، والتمييز بين العناصر، فهذا شريف يعظَّم ويكرَّم لشرفه وجاهه، وهذا ضعيف لا حول له ولا طول، يُزدرى ويهان لضعفه وقلَّة شأنه.. وهكذا كان مبدأ الجاهلية تقسيم الناس إلى فئات وطبقات، إلى سادة وعبيد، إلى أشراف وضعفاء، إلى أفاضل وخدم، لكل فئة قانون، ولكل جماعة نظام، فقانون السادة غير قانون العبيد، ودستور الأشراف غير دستور العامة والسوقة.

لقد جاء الإسلام فحطم هذه النظم البالية، والقوانين الجائرة، وأقام الناس جميعاً على قانون واحد ونظام عادل يشمل الصغير والكبير، والعظيم والحقير، ويجمع بين السادة والعبيد ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾.

وهكذا يغضب الرسول ﷺ لهذه الشفاعة ويقول كلمته الذهبية: «وَٱللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا».

وحاشا للسيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله التي تربَّت في بيت النبوة أن تسرق أو أن يقع منها ما يوجب عليها الحد.. حاشا لها أن تفعل القبيح أو تأتي المنكر، ولكنه مثل يضربه الرسول الكريم حتى يبقى مثالاً خالداً على كرِّ الدهور ومرِّ العصور، في أنَّ رسالة الإسلام ودعوة محمد ﷺ إنما هي دعوة العدل، ودعوة الإنسانية والمساواة لا محاباة فيها ولا مداراة.. إنه المثل الأعلى والنموذج الكامل لعدالة الإسلام التي ينبغي أن تُبنى عليها النظم، وتُساس عليها الأمم، لأنها شريعة الله الباقية الخالدة.

* * *

التربية النبويّة

الحديث الحادي عشر

عَن آبنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما، أنَّه قالَ: أَخَذَ رسولُ اللهِ ﷺ بِمَنْكِبَيَّ فقال:

«كنْ في الدنيا كأنَّكَ غريبٌ، أو عابرُ سبيلٍ، وَعُدَّ نَفْسَكَ مِن أَهْلِ آلْقُبُورِ».. وكانَ ابنُ عمرَ رَضي الله عنهما يقولُ: إذَا أمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتظِر آلصَّباحَ، وَإذَا أصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ آلْمسَاءَ، وَخُذْ مِن صِحَّتِكَ لِمَرضِكَ، ومِن حَيَاتِكَ لموتِكَ».

(رواه البخاري والترمذي)

الأبحاث العربيّة

بمنكِبيَّ : تثنية مَنْكِب، وهو مجمع رأس العضد والكتف لأنه يعتمد عليه، وروي (بمنكبيْ) بالإفراد، وإنما فعل ذلك ﷺ معه ليستيقظ ويقبل بقلبه على ما يلقيه عليه النبي الكريم، وهكذا عادته صلوات الله عليه في مؤانسة جلسائه.

غريب : الغريب مأخوذ من (الغُربة) وهي البعد عن الأهل والأوطان قال الشاعر:

أَجَـارَتَنَـا إِنَّـا غَـرِيْبَـانِ هَـهُـنَـا
وَكُـلُّ غَـرِيْـبٍ لِلْغَـرِيْـبِ نَسِيْبُ

وفي الحديث الشريف: «بَدَأَ ٱلدِّيْنُ غَرِيْبَاً، وَسَيَعُوْدُ غَرِيْبَاً كَمَا بَدَأَ، فَطُوْبَى لِلْغُرَبَاءِ».

عابرُ سبيل : السبيل: الطريق والمراد بعابر السبيل: المسافر الذي يمر بطريقه على بعض البلدان والأماكن.

من أهل القبور : أي عُدَّ نفسك من الموتى، لأن أهل القبور كناية عن سكانها وهم (الموتى)، كما قال تعالى: ﴿ لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْقُبُورِ ﴾.

إذا أمسيت : أي دخلت في المساء وهو من الزَوَال (أي الظهر) إلى نصف الليل.

وإذا أصبحت : أي دخلت في الصباح، والصباح من الفجر إلى الزوال.

صحتك لمرضك: أي خذ من وقت صحتك لوقت مرضك فهو إذاً على (حذف مضاف) وكذلك من (حياتك لموتك) والمراد أن يغتنم الإنسان وقت شبابه ووقت صحته. فيعمل الأعمال الصالحة حتى إذا أدركتـه الشيخوخة أو المرض كان متزوداً من فعل الصالحات.

الأبحاث النحوية

(كنْ في الدنيا): كنْ فعل أمر متصرف من كان الناقصة، واسمها ضمير مستتر وجوباً تقديره أنت، والخبر جملة (كأنّك غريب). (كأنّك غريبٌ): كأنّ حرف تشبيه ونصب، والكاف اسمها، وغريب خبرها. (عدّ نفسك): عدّ أصلها (اعدد) وهي فعل أمر والفاعل أنت، و(نفسك) مفعول أول، والمفعول الثاني هو متعلق الجار والمجرور وهو محذوف، والتقدير عدّ نفسك ميتاً، أو عدّ نفسك ساكناً للقبر. (إذا أصبحت): إذا: شرطيّة، وأصبحت فعل ماضي تام، والقاعدة هي: أنه إذا اكتفت الأفعال الناقصة بمرفوعها أعربت تامة، كقـوله تعـالى:

﴿ فَسُبحانَ ٱللهِ حِيْنَ تُمْسونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ أي: حين تدخلون في المساء وفي الصباح. وجواب الشرط هو (فلا تنتظر).

الأبحاث البلاغية

١ ـ قوله: «أخذ بمنكبيّ» جملة خبرية الغرض منها إفادة الحكم الذي تضمنته الجملة ويسمى (فائدة الخبر).

٢ ـ قوله: «كن في الدنيا» جملة إنشائية طلبية العامل فيها الأمر، والأداة فعل الأمر (كن) وقد خرجت عن غرضها الأصلي وهو (الوجوب واللزوم) إلى النصح والإرشاد. وأنواع الإنشاء الطلبي خمسة وهي (الأمر، والنهي، والاستفهام، والتمني، والنداء).

٣ ـ قوله: «كأنك غريب» فيه تشبيه يسمى (مرسَلاً مجمَلاً) أمّا أنه (مرسل) فلأن أداة التشبيه وهي (كأن) مذكورة، وأما أنه (مجمل) فلأن وجه الشبه غير مذكور، والتقدير: (كن كالغريب في عدم الاستقرار والتفكير بالمكث وطول الإقامة).

٤ ـ قوله: «من أهل القبور» فيه كناية لطيفة فقد كنّى عن الموتى بأهل القبور، وهي مثل قوله تعالى: ﴿ أَلْهَاكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ أي: حتى أصبحتم في عداد الموتى حيث كنّى عن الموت بزيارة القبور.

٥ ـ قوله: «إذا أصبحت فلا تنتظر المساء» تقابل لطيف بين الجملتين، وهو فنٌ من الفنون البديعية ويسمى (المقابلة) فقد قابل بين (أصبحت) و (أمسيت)، وبين (الصباح) و (المساء)، إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح.

وتعريف المقابلة: أن يؤتى بمعنيين متوافقين، أو معانٍ متوافقة ثمَّ يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب كقول المتنبّي:

أَزُورُهُمْ وَسَوَادُ ٱللَّيْلِ يَشْفَعُ لِيْ وَأَنْثَنِيْ وَبَيَاضُ الصُّبْحِ يُغْرِيْ بِيْ

٦ - قوله: «من صحتك لمرضك» طباق، ومثله «حياتك لموتك» وهو طباق إيجاب.

التعريف براوي الحديث

هو (عبدالله بن عمر بن الخطاب) رضي الله عنهما أحد العبادِلة الأربعة، ويكنَى (أبا عبد الرحمن) ولد قبل البعثة بسنة، وأسلم مع أبيه عمر بمكة وهو صغير، وهاجر إلى المدينة قبله ولكنه لم يشهد غزوة بدر لأنه كان صغير السن، وفي أُحُد كان عمره /١٤/ عاماً فاستصغره النبي ﷺ ثم بلغ في عام الخندق خمسة عشرة عاماً فأجازه ﷺ ثم لم يتخلف بعدُ عن سرية من سرايا رسول الله ﷺ، وقال ﷺ لشقيقته حفصة: «إِنَّ أَخَاكِ رَجُلٌ صَالِحٌ لَوْ أَنَّهُ يَقُومُ ٱللَّيْلَ» فلم يترك قيام الليل بعد ذلك أبداً، وكان من فقهاء الصحابة ومن المفتين منهم والزُهَّاد.

اعتزل الفتنة فلم يقاتل مع (علي) ولا مع (معاوية)، وكان يحج كل عام حتى بلغت حجاته (٦٠) حجة واعتمر ألف عمرة فكان من كبار العُبَّاد، مات بمكة سنة /٧٣/ هجرية عن /٨٦/ سنة، وقد مات شهيداً. وسبب موته أن الحجاج سفِه عليه ذات مرة فقال له ابن عمر: إنك سفيه مسلَّط، فصعب ذلك على الحجاج فأمر رجلاً فسمّ رمحه ووضعه على قدمه في الطواف فالتهب الجرح وتسمَّم ومات رحمه الله، ودفن بمكة رضي الله عنه وأرضاه.

الشرح الأدبي

مع هذا التوجيه النبوي الكريم، والإرشاد الصادق الحكيم. . تتربى في نفس المؤمن روح الجهاد والكفاح، والزهد في هذه الحياة الزائلة الفانية، فليس المؤمن كغيره من أفراد الناس، يكد ويكدح، ويشقى وينصَب في سبيل حطام الدنيا، وجمع ما فيها من ثروة ومال. . بل إن له نفساً توَّاقة إلى المعالي، ترفع به عن سفاسف الأمور وتعلو به إلى مدارج الرقي والكمال، إلى أجواء قدسية من حب الخير والفضيلة والبحث عما تتوق إليه النفس الكريمة من صالح الأعمال.

على هذه التربية الكريمة نشأ أصحاب رسول الله ﷺ، وعليها درجوا، فكانوا مصابيح تضيء للناس في ظلمات هذه الحياة، ولا عجب فلقد اقتبسوا ذلك من مَعين النبوة، ومنبع الفضل والكمال، فهذا هو رسول الله ﷺ يربي أصحابه تربية إنسانية كاملة.. يعلّمهم كيف يكونون جنوداً للحق، وأنصاراً للدعوة، يزهدون في هذه الحياة الدنيا، فيضحون بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، ويتسابقون للآخرة، ليكونوا حملة رسالة، وقادة أمة ودعاة خير وإصلاح.. واضعين نصب أعينهم قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ فما كانت الحياة تشغلهم، وما كانت الدنيا تفتنهم عن واجب الدعوة إلى الله، والجهاد في سبيله لإعلاء دينه، ورفع منار الإسلام!.

ولقد أحسن القائل حين قال:

كَـأَنَّهُمْ فِي ظُهُوْرِ ٱلْخَيْـلِ نَبْتُ رُبًى   مِنْ شِدَّةِ ٱلْحَزْمِ لَا مِنْ شِدَّةِ ٱلْحُزُمِ

لقد كانت تربية النبي ﷺ لأصحابه تربية مثالية كريمة.. تربية فيها الشجاعة والبسالة، وفيها العزم والحزم، وفيها الزهد والعفاف لذلك فقد كانوا رجالاً وأبطالاً فتحوا الدنيا، وسادوا العالم بتلك المعاني النبيلة التي غرسها في قلوبهم المربي الأول محمد ﷺ هذا هو رسول الله ﷺ يوجه ذلك الشاب المؤمن (عبدالله بن عمر) الوجهة الفاضلة الرشيدة، فيمسك بمنكبه ـ مؤانساً ومسلياً ـ ثم يقول له تلك القولة الكريمة الهادفة: «كُنْ فِي ٱلدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيْبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيْلٍ، وَعُدَّ نَفْسَكَ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُبُوْرِ».

ما أجملها من نصيحة، وما أكرمها من قولة!! وحقاً إنها لَلَفتة سامية هادفة، ونصيحة ثمينة غالية، يقدمها الرسول الكريم لهذا الشاب المؤمن الذي ملأ الإيمان قلبه، وغمر اليقين نفسه، فيحرّك فيه بواعث الخير، ويفجّر فيه ينابيع الإيمان والفضيلة.

ولقد كان لهذه التربية ولهذا التوجيه أثر في نفس ذلك الشاب المؤمن فإنّ هذه الباقة الجميلة التي قدمها له مربي الإنسانية ومهذب البشرية محمد بن

عبدالله ﷺ، قد أعطت ثمراتها اليانعة، فوقعت في نفسه موقعاً عظيماً، وتقبّلها تقبُّلاً حسناً.

لقد جمعت هذه الكلمات القلائل أنواع النصائح، فالغريب الذي قدِم بلداً غير بلده، لا مسكن له فيه يَؤُمه، ولا صديق يواسيه، ولا أحد من الأهل والأولاد يؤانسه، كيف يكون حاله، ألا يشعر بالوحشة والغربة، ويتمنى العودة إلى الأهل والأوطان؟! وهل يكون له رغبة في البقاء بأرض الغربة والإقامة فيها؟!.

والإنسان الذي انتقل من هذه الدار ـ دار الفناء ـ وأصبح في دار البقاء، هل يبقى له طمع في جمع الأموال وتكديس الثروات، أم يصبح همه في نيل رحمة الله ورضوانه، ويتمنى العودة إلى الدنيا ليكثر فيها من صالح الأعمال؟!.

فلله ما أعجب هذه الحياة الدنيا، وما أتفهها وأحقرها إن لم يغتنم منها الإنسان ويتزود بصالح الأعمال!! وهل هذه الدنيا إلا دار الغرور، يركن إليها الغافل، ويغتر فيها الجَهول، ولله در القائل حيث يقول:

تَعَبٌ كُلُّهَا ٱلْحَيَاةُ فَمَا أَعْجَبُ إِلَّا مِنْ رَاغِبٍ فِي ٱزْدِيَادِ

وبهذه المعاني السامية، انطلقت نفس هذا الغلام اليافع وتردَّدت على لسانه، تلك الكلمات العظيمة الرائعة، التي هي ثمرة التربية النبوية الصادقة: «إِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ ٱلْمَسَاءَ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ ٱلصَّبَاحَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ».

فلله ما أسماها من نصيحة، وما أصدقها من تربية!!.

* * *

تلاوة القرآن

الحديث الثاني عشر

عن أبي مُوسَى الأشعريِّ رضيَ الله تعالى عنهُ، أنَّهُ قالَ، قَالَ رسولُ الله ﷺ:

«مَثَلُ ٱلْمُؤْمِنِ ٱلَّذِي يَقْرَأُ ٱلْقُرآنَ مَثَلُ (الأتْرُجَّةِ) رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، ومَثَلُ المؤمِنِ ٱلَّذِي لا يَقْرَأُ ٱلْقُرْآنَ كَمَثَلِ (التمرة) لا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ. وَمَثَلُ ٱلْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ ٱلْقُرْآنَ كَمَثَلِ (الرَّيْحَانَةِ) رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ ٱلْمُنَافِقِ ٱلَّذِي لا يَقْرَأُ ٱلْقُرْآنَ كَمَثَلِ (ٱلْحَنْظَلَةِ) لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ».

(متفق عليه)

الأبحاث العربية

مثل : المثل في اللغة: المثيل والشبيه والنظير، وجمعه أمثال، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعقِلُهَا إِلَّا ٱلْعَالِمُونَ﴾. والغرض من ضرب المثل تقريب البعيد، وتوضيح الغامض وتصويره كأنه محسوس ملموس، والتمثيل يكسب القول قوة، والمعنى روعة.

الأُتْرُجَّةِ : بضم الهمزة وتشديد الجيم هو نوع من الفاكهة لذيذ الطعم طيب الرائحة معروف عند العرب. قال (علقمة بن عَبَدة):

يَحْمِلْنَ أُتْـرُجَّـةً نَضْـحُ الْعَبِيْـرِ بهـا
كَـأَنَّ تَـطْيَـابَـهـا فِي الأَنْفِ مَشْمُـوْمُ

المنافق : هو الذي يُظهر شيئاً ويُبطن شيئاً آخر، فظاهره غير باطنه، وصورته غير حقيقته، والنفاق قسمان: نفاق في العقيدة وهو كفر وضلال، ونفاق في العمل وهو الرياء المذموم الذي يُحبط العمل، وفي الحديث الشريف: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيْهِ كَانَ مُنَافِقاً خَالِصَاً...».

الريحانة : نبت طيب الرائحة وهو من أنواع الزهور يشبه الياسمين والورد وغيرهما وجمعه رياحين، قال الشاعر:

إِنَّ الـنِّـسَـاءَ رَيَـاحِـيْنٌ خُـلِقْـنَ لَـنَـا
وَكُـلُّـنَـا يَشْـتَـهِـي شَـمَّ الـرَّيَـاحِيْـنِ

الحنظلة : واحدة الحنظل وهو شجر مرٌّ خبيث الطعم، تعافه حتى الإبل لمرارته وبشاعته.

الأبحاث النحوية

(مثل المؤمن): مثل مبتدأ مرفوع بالضمة في آخره وهو مضاف، والمؤمن مضاف إليه مجرور بالكسرة الظاهرة. (الذي يقرأ): الذي اسم موصول صفة للمؤمن تقديره (مثل المؤمن القارىء للقرآن) وخبر المبتدأ هو (مثل الأترجة) فمثل هي الخبر والأترجة مضاف إليه. (ريحها طيب): مبتدأ وخبر، وكذلك لفظ (طعمها حلو) مبتدأ وخبر أيضاً. وإعراب (لا ريح لها) لا نافية للجنس تعمل عمل إنَّ و(ريح) اسمها مبني على الفتح في محل نصب اسم إنَّ، و(لها) الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر إنَّ مرفوع.

١ ـ قوله: «مثل المؤمن كمثل الأترجة...» إلخ، فيه تشبيه يسمّى (تشبيهاً تمثيلياً) وهذا النوع من التشبيه أبلغ من غيره لما في وجهه من التفصيل الذي يحتاج إلى إمعان فكر وتدقيق نظر وهو أعظم أثراً في المعاني، يرفع قدرها، ويزيد جمالها، فإن كان مدحاً كان أوقع، أو ذماً كان أوجع، أو برهاناً كان أسطع، ووجه الشبه فيه يكون (صورة منتزعة من متعدّد)، ولتشبيه التمثيل موقعان:

أولاً: أن يكون في مفتتَح الكلام فيكون قياساً واضحاً وبرهاناً ساطعاً على إظهار المعنى المقصود في صورة الملموس المشاهد الذي ينبعث إلى النفس بوضوحٍ وجلاءٍ، وقد كثُر هذا النوع في القرآن والسنّة لما له من تأثير عظيم في النفس، انظر إلى روعة التمثيل في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا ٱلتَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾، فالمشبَّه هم الذين حمّلوا التوراة ولم يعقلوا ما فيها وهم اليهود، والمشبَّه به (الحمار) الذي يحمل الكتب النافعة دون أن يستفيد منها، والأداة (الكاف)، ووجه الشبه (الهيئة الحاصلة من التعب في حمل النافع دون فائدة). وفي هذا الحديث الشريف (تشبيه تمثيلي) لأن وجه الشبه منتزع من متعدد وهو طعم الأترجة الطيب، وريحها العاطر الذي ينعش النفس، ويُبهج القلب بحلاوته وطيبه، والتشبيه هنا جاء في مفتتَح الكلام فهو من القسم الأول.

ثانياً: أن يجيء التمثيل بعد تمام المعاني لإيضاحها وتقريرها فيشبه حينئذٍ البرهان الذي تثبت به الدعوى كقول الشاعر:

تَقَلَّدَتْنِي ٱللَّيَالِي وَهِيَ مُدْبِرَةٌ كَأَنَّنِي صَارِمٌ فِي كَفِّ مُنْهَزِمِ

وقد ضرب النبي ﷺ في هذا الحديث الشريف أربعة أمثال، مثالين للمؤمن، ومثالين للمنافق، فالمثال الأول: هو (المؤمن الذي يقرأ القرآن وقد شبهه بالأترجة في طيب الباطن والظاهر (ريحها طيب وطعمها طيب). والمثال الثاني: (للمؤمن الذي لا يقرأ القرآن) وشبَّهَهُ (بالتمرة في طيب الباطن دون الظاهر، فالباطن جميل يشبه حلاوة التمر باعتبار وجود الإيمان في قلبه، وأما الظاهر وهو

(طيبُ الرائحة) فمفقود لأن التمر لا ريح له. والمثال الثالث: (للمنافق الذي يقرأ القرآن) وشبَّهه (بالريحانة) في طيب الظاهر وفساد الباطن، فالريح طيب والطعم مُرٌّ علقم قال الشاعر:

كـالـرَّمْسِ غَـطَّتْهُ الـزُّهـورُ   وَتَـحْـتَـهُ عَـفِـنٌ دَفِـيْـنُـه

وأما الرابع: فهو (المنافق الذي لا يقرأ القرآن) وشبَّهه (بالحنظلة) في خبث الظاهر والباطن، وهذا شرُّ أنواع النفاق أعاذنا الله منه.

الشَّرحُ الأدبيّ

مع جمال الأسلوب الحكيم، وروعة التشبيه النبوي الكريم، يستروح المؤمن بردَ الإيمان واليقين، مع نسمات الرضوان تهبُّ عليه وهو يتلو آيات القرآن الكريم.. وهناك يخشع قلبه، وتدمع عينه، ويشع من حوله النور والضياء، وصدق الله: ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ﴾.

لم يكن هذا الكتاب الإلّهي المعجِزُ إلا تذكرة للنفوس الحائرة وإنقاذاً للقلوب الجامدة البائسة، التي لا تفهم إلا لذائذ الحياة وشهواتها الدنيئة، وإخراجاً للناس من الظلمات إلى النور!! فيه يتصل العبد الضعيف بإلّهه وخالقه، وفيه يستنزل رحمته، وفيه يهتدي لأقوم سبيل وأحسن طريق: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ، وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ وفي هذا الحديث الشريف، قسَّم النبي الكريم الناس إلى أربعة أقسام:

١ ـ مؤمن يقرأ القرآن ويعمل بما فيه فهو في أعلى المراتب والدرجات.

٢ ـ ومؤمن لا يقرأ القرآن ولكنَّه مصدِّق بما فيه فهو ناقص الإيمان.

٣ ـ ومنافق يقرأ القرآن ولكنَّه لا يعمل بما فيه فهو ضالٌّ لا يهتدي بهدي الله.

٤ ـ ومنافق لا يقرأ القرآن ولا يدري ما فيه فهو في أحط الدرجات وأشقى المنازل.

فقد شبَّه عليه الصلاة والسلام الصنف الأول (بالأترجة) وهي الفاكهة

الطيبة، ذات الريح العاطر التي تُنعش النفس وتُبهج القلب بحلاوتها وطيبها، وقد كانت معروفة عند العرب قال الشاعر:

يَحْمِلْنَ أَتْرُجَّةً نَضْحُ الْعَبِيرِ بِهَا ... كَأَنَّ تَطْيَابَهَا فِي الْأَنْفِ مَشْمُومُ

وفي التعبير بقوله ﷺ: «ريحها طيب وطعمها طيب» إشارة إلى بلوغ درجة الكمال في طيب الباطن والظاهر.

والصنف الثاني: شبّهه ﷺ بالتمرة في طيب الباطن لوجود الإيمان دون الظاهر لهجرِه تلاوة القرآن، فالباطن جميل يشبه حلاوة التمر، وأما الظاهر وهو (طِيب الرائحة) فإنه مفقود لأن التمرة لا ريح لها.

والصنف الثالث: وهو (المنافق الذي يقرأ القرآن) فقد شبّهه صلوات الله عليه بالريحانة في طيب الظاهر، وفساد الباطن، فالريح طيب والطعم مرّ علقم، وهذه المرارة إنما جاءت من النفاق، وليس في الحديث ما يدل على المديح والثناء لهذا الصنف بل على العكس هو ذم لأنه ذكره باسم النفاق.

والصنف الرابع: وهو أشرّ الأصناف وأخبثها وأبعدها عن الله عزّ وجلّ فهو ذلك (المنافق) الذي شبهه عليه الصلاة والسلام بـ(الحنظلة) في خبث الظاهر والباطن، فهو قد جمع الشرّ من أطرافه، فللّه ما أروع هذا التشبيه!! . وما أجمل تصويره في النفس!!.

وبهذا التشبيه الرائع من هديِ سيد المرسلين، يرشدنا صلوات الله عليه إلى فضائل تلاوة القرآن (وخاصة في شهر رمضان) شهر الرحمة والرضوان، ويحث المؤمنين على الإكثار من تلاوته ليبقى قلب الإنسان مستنيراً بنور الله مسترشداً بهدي هذا الكتاب المقدس الذي قال عنه منزله:

﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

اللهم إنا نسألك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، وشفاء نفوسنا، وضياء أبصارنا، اللهم ارزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، إنك سميع مجيب الدعاء.

* * *

فِتْنَةُ الدُّنْيَا

الحديث الثالث عشر

عَنْ أبي سَعيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْه، أنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ:

«إنَّ الدُّنْيا حُلْوةٌ خَضِرةٌ، وإنَّ اللهَ مُستَخْلِفُكُمْ فيها فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فاتَّقُوا الدُّنْيَا واتَّقُوا النِّسَاءَ، فإنَّ أوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إسْرائِيلَ كانَتْ في النِّساءِ».

(رواه مسلم)

الأبحاث العربية

الدنيا : اسم لهذه الحياة التي يعيشها الإنسان على سطح هذا الكوكب الأرضي، وهي مشتقة من الدنوّ لقربها إلينا وقرب انتهائها، أو من الدناءة لحقارتها وخسّتها عند الله، قال تعالى: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ ٱلْغُرُورِ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ وفي الأثر: (الدنيا دارُ من لا دارَ له، ولها يَجمع من لا عقلَ له).

حلوة خضرة : أي ذات حلاوة، وذات اخضرار، فالحلاوة تُدرك بالذوق، والخضرة تُدرك بالنظر، وكلاهما مرغوب فيه، فإنَّ النفس البشرية تشتهي من الفاكهة والطعام ما كان حلو الطعم، جميل المنظر،

فإذا اجتمعت (الحلاوة والخضرة) كانت الرغبة أعظم، والميل إليها أكبر فهي بهجة النفس وقرّة العين.

مستخلفكم فيها: استخلفه جعله خليفةً عنه، فالإنسان كالوكيل عن الله عزّ وجلّ في هذه الحياة، فلا يصح أن يتصرف إلا كما يأمره الباري تبارك وتعالى لأنه وكيل وليس بأصيل، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيْ جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الأَرْضِ ﴾، وقال تعالى: ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيْفَةً فِي الأَرْضِ ﴾ وقيل: المعنى جعلكم خلفاء عمّن كان قبلكم من الأمم فالإنسان يخلف الإنسان، والأمة تخلف الأمة.

اتقوا الدنيا : أي اجتنبوا فتنتها، واحذروا من كيدها، ولا تغتروا بها فتشغلكم عن طاعة الله وتلهيكم عن ذكره، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِيْنَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ ٱللهِ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُوْنَ ﴾.

واتقوا النساء : أي احذروا فتنتهن وإغواءهن، فإن فتنتهن عظيمة وكيدهن كبير، وكما روي عن علي رضي الله عنه، أنه قال: (يتظلّمن وهنّ الظالمات، ويتمنّعن وهنّ الراغبات، فاستعيذوا بالله من شرارهنّ وكونوا على حذرٍ من خيارهن)، وفي الحديث الشريف: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى ٱلرِّجَالِ مِنَ ٱلنِّسَاءِ».

الأبحاث النحوية

(إن الدنيا حلوة خضرة): إنَّ حرف توكيد ونصب، الدنيا اسمها منصوب، و(حلوة) خبر إنَّ مرفوع و(خضرة) خبر ثانٍ. (إن الله مستخلفكم): لفظ الجلالة اسم «إنَّ»، والخبر هو (مستخلفكم) وهو مضاف والضمير (الكاف) مضاف إليه. جملة (كيف تعملون): مفعول به لينظر، أي: ينظر عملكم وينظر صنيعكم. (فاتقوا الدنيا): الفاء هنا تسمى (فاء الفضيحة) والمعنى: إذا كان الله مراقباً لعملكم ومطلعاً على صنيعكم فاتقوه في ذلك.

الأبحاث البلاغية

١ ـ قوله: «إنَّ الدنيا» جملةٍ خبرية، والغرض من هذا الخبر (التنبيه) إلى فتنة الدنيا، وهو من النوع الطلبي لأنه مؤكَّد بـ (إنَّ).

٢ ـ قوله: «حلوة خضرة» استعارة مكنيّة فقد شبه الدنيا بالفاكهة الحلوة الخضراء، وحذف المشبه به وهو الفاكهة، ورمز إليها بشيء من لوازمها وهي (الحلاوة والخضرة) على سبيل الاستعارة المكنيّة.

فالدنيا كالفاكهة الخضرة التي راق منظرها، وحلا مذاقها، وقد جمعت بين الوصفين المحبوبين إلى النفس (الحلاوة والخضرة) فإن الحلو مرغوب فيه من جهة الذوق، والخضرة مرغوب فيها من جهة النظر.

٣ ـ قوله: «فاتقوا الدنيا» جملة إنشائية طلبية، العامل فيها الأمر، والأداة فعل الأمر، والغرض منها (التحذير) إلى خطر هذه الحياة، وتكرار كلمة (اتقوا) يفيد الاهتمام والمبالغة.

٤ ـ قوله: «فإن أول فتنة» جملة خبرية مؤكّدة بإنَّ، وهي من الضرب (الطلبي) والغرض من الخبر إفادة المخاطب الحكم الذي تضمنته الجملة ويسمى (فائدة الخبر) وهذه الجملة كالتعليل لما تقدم من الأحكام.

الشرح الأدبي

في هذا الحديث الشريف نفحة من نفحات القُدْس، ولمسة من لمسات الجمال، وإبداع في التصوير فوق ما يتصوره الخيال، فما أبدع هذا التعبير، وما أجمل ذلك التصوير الذي مثّل به الرسول الكريم ﷺ لهذه الحياة الدنيا الزائلة!!.

ولا عجب أن نرى تلك الإشراقة المضيئة، والقبس المنير في هدى سيد المرسلين، فلقد دانت له الفصاحة، وانقادت له البلاغة، فكان له منها الحظ الوفير، وأُعطي جوامع الكَلِم، فكان أفصح من نطق بالضاد، وأعظم من دعا إلى الهدى والرشاد، وبهذا التوجيه النبوي الكريم يلفت النبي ﷺ انتباهنا، ويوّجه أنظارنا إلى سبيل الخير والسعادة، ويحذّرنا من فتنة الدنيا، وشهوات الحياة..

فهذه الدنيا كم خدعت من أناس، وكم فتنت من خلائق؟ اغتروا بها، وفتنوا بما فيها، فأوردتهم موارد الهلاك، وجرّعتهم كؤوس الحسرة والندم، فلم ينالوا منها إلا التافه، ولم يجنوا منها إلا الحقير، فهي دار الغرور يغتر بها الجاهلون، ويركن إليها الغافلون، وما أجمل تصوير القرآن الكريم لهذه الحياة الفانية حيث قال تبارك وتعالى عنها: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ (أي الزراع) نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً، ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً، وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾.

ولقد وضّح الرسول بهديه الكريم قيمة هذه الدنيا حتى لا يغترّ بها المؤمنون فقال صلوات الله عليه: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا جَرْعَةَ مَاءٍ». وكذلك كانت حياته ﷺ زهداً في الدنيا، وإعراضاً عنها، فكان يأكل الخشن من الطعام، ويلبس اليسير من الثياب وينام على الحصير، حتى دخل عليه بعض الصحابة يوماً فوجدوه نائماً على حصيرٍ وقد أثّر في جنبه الشريف فرقّوا لحاله، ورثوا لشأنه فقالوا: يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاءً (أي فراشاً) فقال: «مَالِي وَلِلدُّنْيَا؟ مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا . . .».

ولقد ختم الرسول ﷺ هذا الحديث الشريف بالنصح والإرشاد والتحذير من أمرين عظيمين هما: (فتنة الدنيا، وفتنة النساء) فقال: «فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءِ»، ثم علّل ذلك بأن أوّل بلاء حلّ على بني إسرائيل، وأول فتنةٍ حصلت لهم إنما كانت بسبب شهوات الحياة وفتنةِ النساء، فليس هناك فتنة أخطر من فتنة النساء، وصدق رسول الله ﷺ حيث قال: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ».

فيا له من توجيه عظيم وإرشادٍ كريم دلنا عليه رسول الهدى والرحمة. اللّهمّ ارزقنا محبته، ووفقنا للاقتداء بهديه الكريم، إنك سميع مجيب الدعاء.

* * *

المَعْرَكَة الفَاصِلَة

الحَدِيثُ الرَّابِعَ عَشَر

عنْ أبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ تعالى عنهُ، عن النبيِّ ﷺ، أنه قَالَ:

«لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حتَّى يُقاتِلَ المُسْلِمونَ اليهودَ، فَيَقْتُلَهُمُ المُسْلُمونَ، حتَّى يَختبىءَ اليَهُودِيُّ وراءَ الحَجَرِ والشَّجَرِ، فيقولُ الحَجَرُ والشَّجَرُ: يَا مُسلمُ، يَا عَبدَ اللهِ، هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي تَعالَ فاقْتُلْهُ، إلَّا الغَرْقَدَ فإنَّهُ مِنْ شَجَرِ اليَهُودِ».

(رواه مسلم)

الأبحَاثُ العَرَبيَّة

لاتقوم الساعة : أي لا تنتهي الدنيا ولا تقوم القيامة، حتى تقع الحرب العظيمة بين المسلمين واليهود، وهذا من أمور الغيب التي أخبر عنها الصادق المصدوق.

يقاتل المسلمون: فيه إشارة إلى أن الحرب ستكون حرباً (دينيّة مقدّسة) لا حرباً قومية، أو وطنية، لأن تخصيص المسلمين بقتالهم يدلُّ على أن هذه الحرب ستكون بين أصحاب (العقيدة الحقة) من المؤمنين وبين (اليهود) الضالّين وسيكون النصر حليف الفئة المؤمنة، فالرسول ﷺ لم يقل حتى يقاتل العربُ اليهودَ وإنما وضّح بأنّ هذه

الحرب تقع بين المسلمين واليهود، وأنَّ الله عزّ وجلّ سيكرمُ عباده المؤمنين بالنصر على عدوّهم.

فيقول الحجر : أي ينطقُ الله عزّ وجلّ الحجر الذي وقف وراءه اليهودي، وينطق الشجر الذي اختبأ خلفه، وذلك كرامة من الله تعالى لعباده المؤمنين المجاهدين. وكلامُ الحجر أو الشجر آية من آيات الله الباهرة، وهو (حقيقة) لا مجاز، والله على كل شيء قدير.

الغرقد : شجر له شوك عظيم يكثر في أرض فلسطين وهو من الأشجار الخبيثة التي تشبه اليهود في خبثهم وصفاتهم الذميمة، ولهذا قال (فإنه من شجر اليهود).

الأبحاث البلاغية

١ ـ قوله: «لا تقوم الساعة»: جملة خبرية من النوع الابتدائي، وفائدة الخبر هنا (البشارة) بانتصار المسلمين على اليهود، فالخبر قد خرج عن معناه الأصلي إلى المعنى المذكور.

٢ ـ قوله: «وراء الحجر والشجر» بين لفظ (الحجر) و(الشجر) جناس يسمى (الجناس الناقص) كما يوجد في الجملة (سجع) وكلاهما من المحسِّنات البديعية.

٣ ـ قوله: «فإنه من شجر اليهود» جملة خبرية مؤكَّدة بإنَّ، فهي من الضرب (الطلبي) والمراد إفادة المخاطب الحكم الذي تضمّنته الجملة ويسمّى (فائدة الخبر).

٤ ـ قوله: «إلاّ الغرقد فإنّه من شجر اليهود» فيه تشبيه يسمى (التشبيه الضّمني) أي إن هذا الشجر خبيث كخبث اليهود، لذلك فإنه لا ينطق ستراً على اليهودي.

والتشبيهُ الضمنيُّ يكون التشبيه فيه (تلميحاً) لا (تصريحاً) كقول الشاعر:

فَإِنْ تَفُقِ الأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ فَإِنَّ ٱلْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ ٱلْغَزَالِ

وكقول المتنبي :

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ ٱلْهَوَانُ عَلَيْهِ ... مَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيلَامُ

الشَّرحُ الأدبيّ

وفي هذه الآونة الحرجة من حياة العرب والمسلمين، بعد أن استولى شُذّاذ الآفاق على جزء كبير من فلسطين، واحتلوا أُولى القِبلتين وثالث الحرمين الشريفين، وعاثوا في الأرض فساداً، وبعد أن شعر المسلمون بفداحة الكارثة وعظم المصيبة، وتجرّعوا كؤوس الحسرة والأسى، وذاقوا طعم الذل والهوان، بعد هذا تأتي بشائر النصر، ومواكب الخير والنور، تبشر بعودة الديار السليبة التي اغتصبها الصهاينة المجرمون، وبانتصار الحق المهان وعودته إلى أصحابه - أصحاب العقيدة الراسخة - من المجاهدين المسلمين الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً!.

إنها لبشارة عظيمة من نبيٍّ صادق عظيم، تأتي في هذه الفترة العصيبة التي تكاد تأخذ بالخناق، والتي يشعر فيها كل مسلم بالأسى يعتصر قلبه، والحزن يحيط به من كل جانب، فلا يستطيع أن يتنفّس، ولا يستطيع أن يبتسم، ومن حوله إخوة له في العقيدة والدين مشرّدون.. وفي هذه الآونة العصيبة تأتي بشارة الرسول ﷺ بأن الدنيا لا يمكن أن تزول حتى تقع المعركة الفاصلة بين المسلمين واليهود، التي ينتصر فيها جند الرحمن على جند الشيطان، وتكون فيها الغلبة لعباد الله المؤمنين تصديقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾. وقوله جلّ ثناؤه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وإذا كانت فلسطين قد ضاعت، وإذا كانت القدس قد ذهبت، بسبب تآمر أعداء الإسلام عليها، وتعاون بعض الخونة معهم، مما أدّى إلى ضياع فلسطين وذهاب المسجد الأقصى، فإنّ الرسول عليه الصلاة والسلام ليبشّرنا هنا في هذا الحديث الشريف بأن المعركة لم تنته بعدُ، وأن النهاية ستكون بانتصار الإسلام والمسلمين، وستظهر بعض العجائب والأمور الخارقة في ذلك الحين، حيث

يتكلم الجماد، وينطق الشجر والحجر، فيقول: يا مسلم يا عبدالله، هذا يهودي ورائي تعال فاقتله، إلا ذلك الشجر الخبيث الذي يشبه اليهود في خبثهم ولؤمهم، ألا وهو شجر (الغرقد) فإنه لا ينطق إذا اختفى وراءه أحد من اليهود.

وهنا نقطة هامة ينبغي التنبُّه لها.. وهي أننا ما خسرنا المعركة ولا أضعنا فلسطين إلا حينما دخلنا المعركة بغير عقيدة، وقاتلنا تحت شعار (العصبيَّة) الجاهلية وتركنا شعار (الدين)، وأننا لن نستعيد فلسطين إلا بالإيمان الصافي، والعقيدة الصادقة والإنضواء تحت راية الإسلام وراية الدين، فهذا هو الذي سيحقق لنا النصر بمشيئة الله عزَّ وجلَّ، وهذا هو الذي أشار إليه الحديث الشريف، فذِكرُ كلمة (المسلمين) وتكرارُها يدل على أنَّ النصر سيكون لأصحاب العقيدة الحقة لأولئك الذين جعلوا إعلاء كلمة الله نصب أعينهم، والجهاد في سبيله هو غايتهم وهدفهم، لا تلك الدعوات البرَّاقة التي ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب، ولا تلك الشعارات المزيَّفة التي كانت سبباً في نكبتنا وخسارتنا، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

* * *

شُعَبُ الإيمَانِ

الحديث الخامس عشر

عن أبي هُريرةَ رضي اللهُ عنهُ، أنّ رسُولَ الله ﷺ قالَ:

«الإيمَانُ بِضعٌ وسَبْعُونَ ـ أو بِضْعٌ وسِتُّونَ ـ شُعْبَةً، فأفْضَلُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إلاّ اللهُ، وأدْنَاهَا إمَاطَةُ الأذى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإيمَانِ».

(رواه البخاري ومسلم)

الأبحاث العربية

بضع : البِضع ـ بكسر الباء ـ من ثلاثة إلى تسعة، قال تعالى حكايةً عن يوسف عليه السلام: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾، وأما بالضم فالمراد منه: الجماع والشهوة، قـال ﷺ: «وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُم صَدَقَةٌ» وتتمة الحديث: قالوا يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرَأَيْتُم لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إذَا وَضَعَهَا فِي ٱلحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ».

أو بضع وستون : (أو): للشـك، والشك إنما جاء من الراوي وهو (أبو هـريـرة) ولما كان الحديث النبوي مروياً باللفظ ويخشى الراوي الزيادة فيه

أو النقص منه جاء بصيغة (أو) للإشارة إلى أنه متردد في سماعه من النبي ﷺ هل قال: «بضع وسبعون» أو «بضع وستون»، شكٌّ فيه الراوي.

شُعْبَة : الشعبة: الخصلة والقطعة من الشيء، أي: الجزء منه والمراد من الحديث الشريف أن الإيمان بضع وسبعون خصلةً أو جزءاً، وأن الحياء أحد هذه الأجزاء والخصال.

قال (ابن حبان): (عددت كل طاعة عدها الله في كتابه والنبي ﷺ في سنته فإذا هي تسع وسبعون لا تزيد ولا تنقص فعلمت أنه المراد)، ورأيُ أكثر المحدِّثين أنها تسع وسبعون لا تسع وستون.

لا إله إلا الله : هذه الجملة مكونة من لفظين أحدهما سلبي والآخر إيجابي، فالجزء الأول منها (لا إله) هو السلبي وهو نفي الألوهية نفياً باتاً عن كل مخلوق، والجزء الثاني (إلا الله) هو الإيجابي وهو إثبات الألوهية لله وحده دون سواه والمعنى (لا معبود بحق إلا الله تعالى).

وأدناها : أي أدونها قدراً وأقلها شأناً، يقال أدنى الشيء بمعنى أقله وأحقره، وأدنى الشيء بمعنى أقربه قال الشاعر العربي:

لَــوْلاَ ٱلْعُقُـولُ لَكَــانَ أدْنَى ضَيْغَـمٍ
أدْنَــى إلَـى شَــرَفٍ مِــنَ الإنْـسَــانِ

إماطة الأذى : أي دفع الأذى وإزالته عن الطريق، كرفع حجر أو تنحية شيء ضار تنزلق عليه الأقدام.

الحياء : هو لغة تغير وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب عليه، وفي الشرع هو: خُلُقٌ يبعث على اجتناب القبيح الذي يمقته الله سبحانه ويكرهه.

الأبحاث النحوية

(الإيمان): مبتدأ مرفوع بالضمة الظاهرة، خبره (بضع وسبعون). ولفظة (شعبةً): تمييز منصوب بالفتحة الظاهرة وهو من نوع تمييز العدد. (فأفضلها): خبر لشرط محذوف تقديره: إذا كان الإيمان ذا شعب عديدة فأفضل هذه الشعب قول: (لا إلّه إلا الله). ذكره صاحب دليل الفالحين. ويصح وجه آخر وهو (أفضل): مبتدأ والهاء مضاف إليه و(قول لا إلّه إلا الله): هو الخبر. وإعراب (لا إلّه إلا الله) لا: نافية للجنس تعمل عمل إنَّ و(إلّه): اسمها، والخبر محذوف تقديره: لا إلّه معبودٌ بحق، وإلا أداة حصر، ولفظ الجلالة بدل من الخبر. (عن الطريق): الجار والمجرور متعلق بإماطة. (والحياء شعبة): مبتدأ وخبر، و(من الإيمان): جار ومجرور متعلق بشعبة.

الأبحاث البلاغية

١ ـ قوله: «الإيمان بضع وسبعون» جملة خبرية الغرض منها إفادة الحكم الذي تضمنته الجملة، ويسمى (فائدة الخبر).

٢ ـ قوله: «فأفضلها قول: لا إلّه إلا الله» جملة خبرية الغرض منها (التشويق) والترغيب إلى هذه الخصلة الحميدة.

٣ ـ بين لفظ «أعلاها» و«أدناها» كما ورد في الرواية الأخرى (طباق).

٤ ـ قوله: «والحياء شعبة من الإيمان» جملة خبرية الغرض منها الترغيب والتشويق إلى تلك الخصلة الحميدة: خصلة (الحياء).

التعريف براوي الحديث

مرت ترجمته معنا في الأحاديث السابقة واسمه (عبد الرحمن بن صخر الدَّوسي) وهو من أكابر الصحابة، ومن الحفَّاظ الثقات المُجيدين للحفظ والضبط، ونزيد هنا في الترجمة ذكر قصة إسلام أمّه رضي الله عنها ودعوة الرسول ﷺ له ولأمه، وما ورد في هذه القصة من معجزة للرسول الكريم في استجابة دعائه عاجلاً. يقول أبو هريرة رضي الله عنه:

(كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى عليَّ، فدعوتها يوماً إلى الإسلام فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره (أي أنها شتمت الرسول ونالت منه) قال: فذهبت إلى رسول الله ﷺ وأنا أبكي من شدة الحزن والألم، فلما رآني قال: «مالك يا أبا هريرة؟» قلت: يا رسول الله: كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى عليَّ فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره، فادع الله أن يهدي قلبها للإسلام، فقال النبي ﷺ: «اللهم اهد قلب أم أبي هريرة للإسلام».

قال: فخرجت مستبشراً بدعوة رسول الله ﷺ فلما وصلت البيت أردت الدخول فقالت: على رِسْلِكَ يا أبا هريرة، قال: وسمعت خشخشة الماء فلبِستْ ثوبها ثم فتحت لي الباب وهي تقول: (أشهد ألاَّ إله إلاَّ الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله) قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ وأنا أبكي من شدة الفرح فقلت: يا رسول الله أبشر فقد استجيبت دعوتك وهدى الله أمَّ أبي هريرة للإسلام، فحمد الرسول ربه وأثنى عليه، فقلت: يا رسول الله ادع الله لي ولأمِّي أن يحبِّبنا إلى المسلمين ويحبِّب المسلمين إلينا فدعا له الرسول الكريم، قال: فما رآني أحد ولا سمع بي مؤمن ولا مؤمنة إلا أحبَّني أنا وأمي).

الشرح الأدبي

في هذا الدين العظيم الذي جاء به سيد الأولين والآخرين، آداب اجتماعية، ومُثُل إنسانية، وأخلاق رفيعة، تجعله ـ بحق ـ مفخرة الأديان، وأعجوبة الأزمان، ورائد جميع التشريعات السماوية، والنظم الأرضية، بما يحقِّق الخير، والعدل، والسعادة لبني الإنسان، فما من فضيلة من الفضائل، ولا مكرمة من المكارم، ولا صغيرة أو كبيرة من الآداب الاجتماعية الحميدة إلاَّ دعا إليها الدين، ورغبَّ فيها الإسلام، وإن شئت فقل: (إنه دين الآداب والأخلاق) بل إنه دين الحياة بأسرها لأنه دين الفضائل والكمالات.

فالإيمان ليس مجرد اعتقاد بالله، أو خوف من عقابه، إنما هو عقيدة وعمل، ونظام وأدب، وخلق واستقامة، فهو درجات متعددة، ومنازل متفاوتة، يَبدأ بالنطق بكلمة الإخلاص (كلمة التوحيد) لا إله إلا الله محمد رسول الله، وينتهي بدفع

الأذى عن طريق المسلمين. . فلله ما أسمى هذا الدين الذي يجعل من الإيمان بالله طريقاً إلى الإحسان إلى خلقه، ويجعل من تمام العقيدة دفع الأذى عن طريق المسلمين؟!.

وحقاً إنه لممّا يرفع راس المسلم عالياً أن يأتي تشريع الإسلام بمثل هذه النظم الرفيعة والآداب الكريمة، وأن ينص نبيه الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم على أن من مراتب الإيمان ومن خصال اليقين أن يزيل المسلم الأذى عن الطريق، وأن يكون متصفاً بمكارم الأخلاق، فيستحيي الحياء المطلوب، ويبتعد عن سفاسف الأمور، فيكون في نفسه تقياً، ومع الناس حييّاً، فالحياء لا يأتي إلا بخير لأنه شعبة من شعب الإيمان، وخصلة من خصال الدين، وقديماً قال الشاعر العربي:

فَلَا وَٱللهِ مَا فِي ٱلْعَيْشِ خَيْرٌ ... وَلَا ٱلدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ ٱلْحَيَاءُ
يَعِيشُ ٱلْمَرْءُ مَا ٱسْتَحْيَا بِخَيْرٍ ... وَيَبْقَى ٱلْعُودُ مَا بَقِيَ ٱللِّحَاءُ

وليس الحياء ـ الحقيقي ـ أن يكون الإنسان كثير الخجل يستحيي من المطالبة حتى بحقوقه المشروعة، ولكنَّ الحياء أن يجتنب القبيح، ويبتعد عن الرذائل، ويطهر نفسه من الرجس والآثام وأن ينفر من عمل ما يعاب عليه، وقد وضّح هذا المعنى قول النبي ﷺ في حِكَمِه الروائع: «إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ».

* * *

غِنَى النَّفْس

الحديث السادس عشر

عن عَمْرو بن عَوْفٍ الأنْصاريِّ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَالَ للأنْصَارِ ذَاتَ يومٍ[1]:

«أَبْشِرُوا وأَمِّلُوا ما يسُرُّكم، فواللهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَليكُمْ، ولكنيِّ أَخْشَى أن تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُم كما بُسِطتْ على مَنْ كانَ قبلَكُم، فتَنافَسُوهَا كما تَنَافسُوهَا فتُهلكَكُمْ كما أَهْلَكَتْهُمْ».

(متفق عليه)

الأبحاث العربية

أبشروا : من البشارة وهي الإخبار عما يُسرُّ ويُفْرح، على عكس الإنذار فهو الإخبار عما يسوء ويضر، فالبشارة تستعمل للخير، والإنذار للشر، أما قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فهو من الأسلوب التهكُّمي.

وأمّلوا : أمر من الأمل بمعنى الطمع والرغبة فيما يحب ويشتهي، وفي هذا اللفظ تطمين لنفوس الأنصار بالحصول على مقصودهم من توسعة النبي ﷺ عليهم بما رزقه الله.

تُبْسط الدنيا : البسط في اللغة نشر الشيء وتوسعته، والمراد من بسط الدنيا أن يوسَّع عليهم في الرزق، يقال: بسط الله عليه الرزق، أي:

---

(١) انظر رياض الصالحين ص ١٩٢.

وسّعه، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

الدنيا : مأخوذة من الدنوّ، أي: القرب، فهي بالنسبة للآخرة قريبة، أو من الدناءة بمعنى الحقارة لأنها بالنسبة للآخرة حقيرة لا قيمة لها، وفي الحديث الشريف: «لَوْ كَانَتِ ٱلدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ ٱللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا جَرْعَةَ مَاءٍ»، وقال تعالى: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾.

فتنافسوها : التنافس هو التسابق إلى أمر من الأمور، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ والمراد أن الناس يتسابقون لجمع حطام الدنيا وفي ذلك هلاكهم، وهو مضارع حُذف منه أحد التاءين تخفيفاً فأصلها (تتنافسوها)، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ أي: تتنزّل.

فتهلككم : أي يكون التنافس في الدنيا سبباً للانشغال عن الآخرة، كما يكون من وراء التنافس التحاسد ثم التباغض، وفي هذا هلاك للبشر كما هلك السابقون بسبب تكالبهم على الدنيا.

سبب الحديث

لهذا الحديث الشريف قصة ذكرها المحدّثون في كتب الحديث وهي أن النبي ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه إلى البحرين يأتي بجزيتها (أي بجزية أهلها لأن أهلها كانوا مجوساً) فقدم بمالٍ من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم (أبي عبيدة)فوافَوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف فتعرضوا له، فتبسّم رسول الله ﷺ حين رآهم ثم قال: «أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين»، فقالوا: أجل، فقال: «أبشروا وأمّلوا ما يسرُّكم. . .» الخ.

الأبحاث البلاغية

١ ـ قوله: «أبشروا وأملوا ما يسركم» إنشاء طلبي، والمراد بالأمر هنا

(المؤانسة) فقد خرج عن أصله وهو الوجوب إلى معنى آخر وهو الإكرام وإدخال المسرة إلى القلب.

٢ ـ في اللفظ أيضاً: «أبشروا وأملوا» ما يسمى في علم البديع (بمراعاة النظير) وهو الجمع بين أمرين أو أمور متناسبة تزيد الكلام رونقاً وجمالاً فهنا لفظ (أملوا) متناسب جداً مع (ابشروا).

٣ ـ قوله: «فوالله ما الفقرَ أخشى عليكم» جملة خبرية لإفادة المخاطب الحكم الذي تضمنته الجملة ويسمى (فائدة الخبر) وقد جاء مؤكداً بالقسم (فوالله) وفيه أيضاً من الناحية البلاغية (تقديم ما حقه التأخير) للعناية به والاهتمام والأصل (والله ما أخشى عليكم الفقر).

٤ ـ في لفظ: «ولكني أخشى أن تبسط الدنيا عليكم» مقابلة لطيفة، فإن الفقر يقابله الغنى وهو المعبَّر عنه بلفظ: (تبسط الدنيا) أي: تفتنوا، وبَسْطُ الدنيا المراد منه سعة الرزق فهو (كناية) عن الغنى.

٥ ـ قوله: «فتنافسوها كما تنافسوها» فيه تشبيه يسمى (مرسَلاً مجَملاً) أي: تتسابقون إلى الدنيا كما تسابق من قبلكم من الأمم «فتهلككم كما أهلكتهم» وفي هذا أيضاً تشبيه كسابقه، أي: فتكون سبباً لإهلاككم مثل ما أهلكت من سبقكم بحبهم للدنيا وتكالبهم عليها.

الأبحاث النحوية

(أمِلُوا ما يسركم): أملوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل. (ما يسركم): ما اسم موصول بمعنى الذي مفعول به. (ما الفقرَ): ما نافية والفقر مفعول مقدَّم و(عليكم): متعلق بأخشى. (أن تبسط): أن وما بعدها في تأويل مصدر مفعول به و(الدنيا): نائب فاعل.

التعريف براوي الحديث

راوي الحديث هو (عمرو بن عوف الأنصاري) البدري، حليف بني عامر بن لؤي، أصله من المدينة المنورة وقد نزل مكة وحالف بعض أهلها فهو أنصاري

المولد لأنه من أهل المدينة، ومهاجري لأنه هاجر مع الصحابة بعد إقامته الطويلة بمكة المكرمة، وقد شهد بدراً مع رسول الله ﷺ فهو من أهل بدر اتفاقاً، أخرج ابن الأثير في أسد الغابة عن ابن إسحاق أنه قال: ممن شهد بدراً (عمرو بن عوف) مولى (سهيل بن عمرو) وقال: هكذا جعله ابن إسحاق مولى، وجعله غيره حليفاً ولم يكن له عقب أي نسل وذرية. وروايته للأحاديث الشريفة قليلة، رضي الله عنه وعن سائر أصحاب رسول الله أجمعين، ونسأله تعالى أن يجمعنا بهم في مستقر رحمته آمين.

الشرح الأدبي

رضي الله عن أصحاب رسول الله - ﷺ - فقد كانوا رجالاً وأبطالاً تربّوا في «مدرسة الإيمان» مدرسة محمد عليه الصلاة والسلام، فلم تشغلهم الدنيا، ولم تفتنهم زينة الحياة!! لقد كانوا مع شدة فقرهم وقلة ما لديهم من مال، وشدة حاجتهم، واضطرارهم، أعزة النفوس، أعفّاء كرماء كما وصفهم الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز حيث قال: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا. . .﴾ الآية.

ها هم أولاء - رضوان الله عليهم - يسمعون بقدوم أبي عبيدة رضي الله عنه، من البحرين بمال عظيم بعد أن فتح الله على المسلمين البلاد، فيوافون رسول الله ﷺ في صلاة الفجر يؤدون الصلاة معه، وحين يعزم الرسول على الدخول إلى بيته يتعرض إليه هؤلاء الفقراء بأدب ووقار.. لا يسألونه أن يقسم عليهم المال، فقد كان الحياء يمنعهم من إبداء حاجتهم واضطرارهم حتى لرسول الله ﷺ... يتعرضون له كأنهم يريدون السلام عليه، ولكنَّ الرسول عليه أفضل الصلاة والتسليم يدرك - بقوة البصيرة - غرضهم، ويعرف هدفهم فيتبسم لهم ابتسامة الرضى والاطمئنان، ويبشرهم بحصول مطلوبهم فيقول: «أبشروا وأمِّلوا»...

إنها لتربية كريمة وتوجيه سليم وجَّه النبي ﷺ أصحابه إليه، فهو في هذه

الحالة لا يترك إسداء النصح لهم، ولا يقصِّر في توجيههم الوجهة الصحيحة فيلفت أنظارهم بكلامه العذب الجميل إلى معانٍ سامية رفيعة ينبغي ألّا تغيب عنهم، وألّا يغفلوا عنها، وهي أنَّ هذه الحياة الدنيا بما فيها من زخرف ومتاع، وبما تحويه من زينة وبهرج، لا تستحق أن يشقى الإنسان من أجلها وينصَب، بل عليه أن يأخذ منها ما يكفيه وأن يهتم بما يكون سبباً لسعادته في الآخرة.. فالإنسان مهما جمع من مال وكدَّس من ثروة، تبقى نفسه متطلعة إلى المزيد، وصدق رسول الله ﷺ حيث قال:

«لَوْ كَانَ لابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ ذَهَبٍ لَابْتَغَى لَهُمَا ثَالِثاً، وَلَنْ يَمْلأَ فَمَ ٱبْنِ آدَمَ إِلَّا ٱلتُّرَابُ، وَيَتُوبُ ٱللهُ عَلَى مَنْ تَابَ»!.

وما أكرم هذا التوجيه النبوي الخالد، الزاخر بالحكم والمواعظ «ٱبْنَ آدَمَ.. عِنْدَكَ مَا يَكْفِيكَ وَأَنْتَ تَطْلُبُ مَا يُطْغِيكَ. ٱبْنَ آدَمَ لَا بِقَلِيلٍ تَقْنَعُ، وَلَا بِكَثِيرٍ تَشْبَعُ. ٱبْنَ آدَمَ إِذَا أَصْبَحْتَ مُعَافىً فِي بَدَنِكَ آمِناً فِي سِرْبِكَ (أي أهلك ووطنك) عِنْدَكَ قُوتُ يَوْمِكَ، فَعَلَى ٱلدُّنْيَا ٱلْعَفَاءُ».

فالعاقل ينبغي ألّا يشغل نفسه بالشيء التافه ويترك الشيء النفيس، فكل ما في هذه الحياة الدنيا من متع وشهوات، ومن فتنٍ ومغريات، ومن زينة وبهرج، ليس طريقاً لسعادة الإنسان، لأن السعادة الحقيقية ليست بالأملاك والقصور، ولا بالذهب والفضة، ولا بالمتاع والرياش إنما هي في تقوى الله، وغنى النفس، وراحة الضمير، وما أحسن ما قيل:

وَلَسْتُ أَرَى ٱلسَّعَادَةَ جَمْعَ مَالٍ وَلَكِنَّ «التَّقِيَّ» هُوَ ٱلسَّعِيدُ

ومن الشعر الإسلامي الحديث قوله:

تَقْوَى الإِلَهِ إِذَا تُخَالِطُ مُهْجَةً تُرْوِي ٱلْقُلُوبَ ٱلظَّامِئَاتِ وَتُعْتِقُ
إِنَّ التَّقِيَّ يَعِيشُ فِي كَنَفِ ٱلْهَنَا فَإِذَا أَرَدْتُمْ أَنْ تَفُوزُوا فَاتَّقُوا
فِيهَا لِقَلْبِكَ بَهْجَةٌ وَسَكِينَةٌ وَبِهَا لِعَقْلِكَ رَاحَةٌ وَتَأَلُّقُ

* * *

مِحنةُ المؤمنين

الحديث السابع عشر

عن خبَّابِ بنِ الأرتِّ رضيَ اللهُ عنهُ، أنَّهُ قالَ:

«شَكَوْنَا إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ وهوَ مُتوسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ في ظلِّ الكَعْبَةِ فَقُلْنا: ألا تَسْتَنصِرُ لَنا؟ ألاَ تَدعُو لَنَا؟ فقال ﷺ:

قَدْ كَانَ مِنْ قَبْلَكُم يُؤخذُ الرَّجلُ فَيُحْفَرُ لهُ في الأرضِ فَيُجْعلُ فيها، ثُمَّ يُؤتَى بالمنشارِ فَيُوضَعُ عَلى رأسِهِ فيجعلُ نِصْفَيْنِ، ويُمْشطُ بأمْشاطِ الحَديدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وعَظْمِهِ ما يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، واللهِ ليتمنَّ اللهُ هَذَا الأمرَ حتَّى يَسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حضرموتَ، لا يَخافُ إلاَّ اللهَ، والذئبَ على غَنمِهِ، ولَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجلون».

وجاء في رواية أخرى: «وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً وَقَدْ لَقِينَا مِنَ المُشْرِكينَ شِدَّةً».

(رواه البخاري)

الأبحاث العربية

متوسِّد بردة : توسَّد الشيء: أي جعله وسادة تحت رأسه، والبُرْدَة: الشمْلة المخطَّطة وقيل: كساء أسود مربَّع، والمعنى أن النبي ﷺ جعل بردته الشريفة وسادة تحت رأسه من أجل الراحة والنوم في ظلّ

الكعبة، ويظهر أنه كان في حالة تعب.

ألا تستنصر لنا : أي تسأل الله النصر لنا على الأعداء، لأن الألف والسين تفيدان الطلب.

من قبلكم : المراد به المؤمنون من الأمم السابقة الذين تحمَّلوا الأذى في سبيل الله كأتباع عيسى بن مريم.

ما يصدُّه : أي ما يمنعه ويصرفه عن دينه تحمل ذلك العذاب بل كان الواحد يصبر حتى ولو نشر بالمنشار، أو مُشِط بأمشاط الحديد وذلك دليل على قوة الإيمان في قلبه.

هذا الأمر : المراد من الأمر هنا (الإسلام) أي لا بدَّ أن يتم أمر الإسلام وتعلو دعوة الحق وينتشر هذا الدين في بقاع الأرض حتى يكون الأمن والأمان وقد حَدَث كما أخبر ﷺ.

تستعجلون : أي تطلبون العجلة في الأمور ولكل شيء في علم الله أوان، فإذا حان الوقت جاءت نصرة الله، كما قال تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ أَلَا إِنَّ نَصْرَ ٱللهِ قَرِيبٌ ﴾.

الأبحاث النحوية

(شكونا): فعل وفاعل، (إلى رسول الله): الجار والمجرور متعلق بشكونا. (وهو متوسِّد): مبتدأ وخبر والجملة حاليّة، (بردة): مفعول به لاسم الفاعل (متوسِّد). (ألا تستنصر): الا أداة استفتاح يستفتح بها الكلام، وأصلها (هَلاّ) قلبت الهاء همزة ليتعيَّن معنى التمنّي، و(تستنصر): مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم. (قد كان من قبلكم): قد للتحقيق و(كان): فعل ماضٍ ناقص، واسمها هو الموصول (مَنْ)، وخبرها جملة: (يؤخذ الرجل...) إلخ. (فيجعل نصفين): مضارع مبني للمجهول، و(نصفين): مفعول به ثانٍ، ونائب الفاعل هو المفعول الأول. (ولكنّكم تستعجلون): لكنَّ حرف استدراك ونصب و(الكاف) الضمير اسمها، وخبرها جملة (تستعجلون).

الأبحاث البلاغية

١ - قوله: (شكونا إلى الرسول) جملة خبرية من الضرب الابتدائي، والغرض من الخبر (طلب الاسترحام) والاستعطاف، فقد خرجت الجملة عن غرضها الأصلي إلى ما ذكرنا.

٢ - قوله: (ألا تستنصر لنا) جملة إنشائية من نوع (الإنشاء الطلبي) وهو يشمل (الأمر، والنهي، والاستفهام، والتمنّي، والنداء) وهذا الاستفهام خرج عن معناه الأصلي إلى التمنّي، وأصل (ألاَ) هلا كما تقدم.

٣ - قوله: (يؤخذ الرجل) الرجل هنا (كناية) عن المؤمن أو المؤمنة من أتباع الرسل السابقين، وهو (كناية عن موصوف).

٤ - قوله: (هذا الأمر) الأمر هنا (كناية) عن دين الإسلام الذي جاء به خاتم المرسلين ﷺ.

٥ - قوله: (والله ليتمنَّ) جملة خبريّة من الضرب (الإنكاري) لوجود القسم ولام التأكيد.

التعريف براوي الحديث

راوي الحديث هو الصحابي (خبّاب بن الأرتّ) يكنى (أبا عبدالله) وهو تميمي النسب، من السابقين إلى الإسلام، كان سادس من أسلم من الصحابة، وعُذِّب في سبيل دينه عذاباً شديداً فقد كان مملوكاً لأمرأة مشركة تسمى (أم أنمار) فلما بلغها إسلام خبّاب كانت تأتي بقطعة من الحديد فتحميها في النار حتى تحمرَّ فتكوي بها رأسه وجسده لتردَّه عن دينه فشكى ذات يوم أمره إلى النبي ﷺ فقال رسول الله اللهم انصر خبّاباً، فاشتكت مولاته (أم أنمار) رأسها حتى كانت تعوي من شدة الألم مثل الكلاب، فقيل لها: لا يمكن لك أن تتخلصي من الألم حتى تكتوي بالنار (آخر الدواء الكي) فكان خبّاب يأخذ الحديدة المحماة فيكوي بها رأسها.

وقد سأل (عمر) رضي الله عنه خباباً عما لقي من المشركين فكشف له

خباب عن ظهره ففزع عمر وقال: ما رأيتُ كاليوم ظهرَ رجل، فقال له خباب: يا أمير المؤمنين لقد أوقدت نار من أجلي ووضعت عليها فما أطفأها إلّا ودك (أي شحم) ظهري، فرقَّ عمر لحاله ودمعت عينه لما أصاب خباباً رضي الله عنه. قال علي كرّمه الله: (رحم الله خباباً، أسلم راغباً، وهاجر طائعاً، وعاش مجاهداً، وابتلي في جسده، ولن يضيّع الله أجر من أحسن عملاً).

وكان خباب رضي الله عنه قيناً (أي حداداً) يصنع السيوف والدروع فكان له عند (العاص بن وائل) دين فلما جاء يتقاضاه (أي يطلب دينه) قال له: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد وتعود إلى اللات والعزّى، فقال له خباب: لا أكفر حتى يميتك الله ثم يبعثك (يعني تموت ثم تبعث أمامي الآن) فقال له العاص بن وائل: إني إذاً لميِّت ثم مبعوث!؟ فانتظرني إلى ذلك اليوم فسوف أعطى مالاً وولداً فأقضيك حقك فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة: ﴿ أَفَرَأَيْتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً. أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِنْدَ ٱلرَّحْمٰنِ عَهْداً ﴾. توفي خباب سنة (٣٧ هـ)، ودفن بالكوفة رضي الله عنه وأرضاه.

الشرح الأدبي

في رحاب البيت الطاهر، ومع نسمات الصباح الباكر، وبجوار الكعبة المشرفة، جلس رسول الهدى والرحمة محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه، جلس يريد الراحة، وتوسّد بردة له في ظلال الكعبة، بعد أن امتدت الشمس، فسطعت بأشعتها الذهبية على العالم، وأنارت بضيائها الوجود.. استلقى رسول الله ﷺ بفناء الكعبة يريد الراحة، بعد طول جهد وتعب.. ولكنْ سرعان ما جاء إليه المستضعفون من المؤمنين، يشكون إليه شدة المشركين، وبطشهم بهم، وظلمهم واضطهادهم.. جاءوا يطلبون من الرسول الكريم النصرة على الأعداء.. وأنْ يدعو الله لهم لينقذهم من شر أولئك الكفرة الفجرة، أعداء الدين.. الذين عذّبوهم، واضطهدوهم، وآذوهم في أنفسهم وأموالهم، بسبب دخولهم في دين الله الحق، الذي جاءَ به خاتم النبيين!

لقد جاء هؤلاء المؤمنون المستضعفون، يستنجدون ويستنصرون، يريدون

من رسول الله أن يدعو على المشركين، بدعوة يعجّل الله لهم بها العذاب.. وهنا يجلس الرسول الكريم يعطي هؤلاء المظلومين درساً في (الثبات) و(الصبر) على العقيدة والمبدأ.. ويضرب لهم الأمثال بالسابقين من المؤمنين، يذكّرهم بما أصاب إخوانهم في العقيدة والدين!.

لقد نُشروا بالمناشير، وأحرقوا بالنار، ومشطوا بأمشاط الحديد، ونالهم من البلاء والشدائد، ما لا يخطر ببال، ومع ذلك لم تضعف عزيمتهم، ولم تستسلم نفوسهم للذل والهوان، ولم تؤثر فيهم تلك الشدائد والمحن، بل ظلوا على الإيمان، مستمسكين بدين الله، مضحين بأنفسهم وأموالهم في سبيل الله، وابتغاء رضوانه. صبروا على العذاب، وتحملوا البلاء، ووقفوا في وجه الطغيان حتى نصرهم الله ﴿ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ، وَمَا ضَعُفُوا وَمَا ٱسْتَكَانُوا، وَٱللهُ يُحِبُّ ٱلصَّابِرِينَ ﴾.

لقد أعطاهم الرسول ﷺ درساً بليغاً، وبشّرهم بعد هذا الدرس، بانتصار الدعوة الإسلامية، وظهور هذا الدين العظيم على سائر الأديان حتى يعمّ مشارق الأرض ومغاربها، فلن يستطيع الطغيان أن يقضي على دعوة الإيمان، مهما تطاول أو تجبّر، فإنّ جند الله هم الغالبون.

ولقد صدق رسول الله ﷺ فيما بشّر عنه وأخبر، حيث بدّل الله تبارك وتعالى خوف المسلمين أمناً، وذلهم عزاً، وضعفهم قوة، حتى سادوا العالم، وملكوا الدنيا، وانقاد لهم الناس طوعاً وكرهاً، وعم الأمن والرخاء أرجاء المعمورة، وأعز الله المؤمنين المستضعفين، وارتفعت راية الحق، ودخل الناس في دين الله أفواجاً.. وكان ذلك بفضل جهاد المؤمنين السابقين، الذين صبروا على تحمل الأذى في سبيل الدعوة، وصدق الله حيث يقول: ﴿ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ ٱلْغَالِبُونَ ﴾.

* * *

عُقوق الأمّهاتِ

الحديث الثامن عشر

عن المغيرةِ بنِ شُعْبَةَ رضيَ اللهُ عنهُ، أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ:

«إنَّ اللهَ حَرَّمَ عليكمْ عُقُوقَ الأمَّهاتِ ومَنْعاً وهَاتِ، ووأْدَ البَنَاتِ، وكَرِهَ لكُمْ قيلَ وقالَ، وكَثْرَةَ السُّؤالِ، وإضَاعَةَ المَالِ».

(رواه البخاري)

الأبحاث العربية

(عقوق الأمهات): مصدر عقَّ إذا عصى وأساء المعاملة، قال حافظ:

عَقَّنِي الدَّهْرُ وَلَوْلاَ أَنَّنِي
أُوثِرُ الحُسْنَى عَقَقْتُ الأَدَبَا

والأمهات جمع (أمّه) وهي خاص بمن يعقل ويقال أمّاه، قال تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾. وأما لفظ (الأم) فإنه يشمل من يعقل ومن لا يعقل.

(منعاً وهات) : أي يمنع ما وجب عليه من حق للغير، ويطلب ما لا حق له فيه، كالشخص الذي يمتنع عن وفاء الدين، ويطلب إعطاءه حقوق الآخرين. فهو ظالم معتد من وجهين: ١ ـ لأنه مانع للحق

الواجب عليه. ٢ ـ مغتصب لما ليس له بحق، قال تعالى: ﴿ وَيَمْنَعُوْنَ ٱلْمَاعُوْنَ ﴾.

(وأد البنات) : أي دفنهن على قيد الحياة، وقد كان هذا من صنيع أهل الجاهلية، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ. بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ؟ ﴾ وقال تعالى: ﴿ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُوْنٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي ٱلتُّرَابِ؟ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُوْنَ ﴾. وأول من وأد البنات (قيس التميمي) حين أسرت ابنته ثم أُطلق سراحها فوأدها تخلصاً من العار، وأول من فدى الموؤدة (صعصعة) جد الفرزدق وفيه يقول الفرزدق:

وَجَدِّي ٱلَّذِيْ مَنَعَ ٱلْوَائِدَاتِ
وَأَحْيَا ٱلْوَئِيْدَ فَلَمْ تُوْأَدِ

(قيل وقال) : أي كثرة الكلام أو الجدل بالباطل، وهذا من نوع اللغو المنهي عنه، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِيْنَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُوْنَ ﴾. قال الجوهري: (قيل وقال)، اسمان بدليل دخول (أل) التعريف عليهما يقال: كثر القيل والقال.

(كثرة السؤال): المراد أن يسأل عما لا يعنيه، قال تعالى: ﴿ لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾. أو المراد معارضة أوامر الرسل الكرام ففي الحديث: «إِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ قَبْلَكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَٱخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ».

(إضاعة المال): تبذيره وصرفه في الوجوه المحرمة كشرب الخمر، ولعب الميسر وغير ذلك مما حرَّمه الله تعالى.

الأبحاث النحوية

(إن الله حرّم): إنّ حرف توكيد ونصب، ولفظ الجلالة اسمها، وجملة حرّم عليكم في محل رفع خبر إنّ، و(عليكم): الجار والمجرور متعلق بحرّم. (منعاً وهات): منعاً مصدر مَنَع وهو في محل نصب مفعول به معطوف على (عقوق)

و (هاتِ): اسم فعل أمر بمعنى أعطني. (قيل): مفعول به لفعل (كره) فهي اسم ومثلها (قال) كما تقدَّم.

الأبحاث البلاغية

١ - قوله: «منعاً وهات» فيه (طباق إيجاب) وهو من المحسِّنات البديعية، والطباق: أن يجمع بين لفظين متقابلين في كلام واحد فلفظة (هات) بمعنى أعطني تقابل لفظة المنع في قوله (منعاً).

٢ - قوله: «عقوق الأمهات، ووأد البنات» فيه من المحسِّنات البديعية ما يسمى بالسجع، ومثله: «قيل وقال» و «إضاعة المال» فيه سجع.

قال في جواهر البلاغة: ولا يستحسن السجع إلا إذا كانت المفردات رشيقة، والألفاظ خدم للمعاني، وإلا إذا جاء عفواً، خالياً من التكلف والتصنّع، وحينئذ يكون حِلْية ظاهرة في الكلام.

٣ - قوله: «كره لكم قيل وقال» جملة خبرية من الضرب الابتدائي والغرض من الخبر إفادة المخاطب الحكم الذي تضمنته الجملة ويسمى (فائدة الخبر).

الشرح الأدبي

يهتم الإسلام بتربية أفراده على أساس من الفضيلة والخُلُق القويم، ويهتم كذلك بتنشئة الجيل الإسلامي تنشئة عالية تبعد عنه روح الانحلال والميوعة وتدفع به إلى معالي الأمور. ولهذا نجد في هذا الحديث النبوي الشريف سمو الغاية، ونبل الدعوة، وقدسية الهدف الذي يسعى إليه الإسلام من أجل أن يبقى أفراده مجتمعين، متماسكين متعاونين، تحكمهم المحبة، وتربطهم الأخوة، ويجمعهم الإسلام في إطاره الإنساني الرحيم، إطار المحبة والمودة والإخاء. فالرسول الكريم يبين في هذا الحديث الشريف الأمور التي يكرهها الله ويبغض أن يرى عليها عباده.

وأول هذه الأمور أن يسيء الإنسان إلى أولى الناس بالرعاية، وأحقهم

بالعناية، ألا وهي (الأم)، الأم التي حنت عليه فغذته بلبانها وغمرته بحنانها، وآثرته على نفسها وراحتها، فشقيت من أجل راحته، وتعبت من أجل سعادته، وتحمّلت الأثقال والآلام في سبيل أن ترى وليدها زهرة يانعة تعيش بين أزهار الربيع، فكم من ليلة سهرت من أجل راحته، لتطرد عنه شبح الخوف، أو تزيل عنه ألم المرض، وكم من ساعة قضتها بين جدران البيت تحمله على يديها، متعبة مثقلة لتواسيه في وقت شدته ومحنته، فهل يليق به بعد كل هذا أن يسلك طريق العقوق أو يجنح إلى الإساءة والعصيان؟! وصدق الله حيث يقول: ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً. . . ﴾ وذلك لعظم حقها على ولدها، وضخامة شأنها، إذ هي السبب المباشر في حياة هذا الطفل بعد الله عزّ وجلّ، فلولا رعايتها وحنانها، ولولا تحملها المتاعب والآلام في سبيل تربية هذا الوليد الناشىء، لما تربّى طفل ولما عاش إنسان!! فلا عجب إذاً أن نرى العناية بالأم تبلغ ذروتها وأن تصل إلى درجة أن يقول فيها الرسول الكريم: «الجَنَّةُ تَحْتَ أَقْدَامِ الأُمَّهَاتِ». . فمن أولى من الأم بالتعظيم والتكريم؟؟.

وأما الأمر الثاني: الذي ينبغي اجتنابه فهو أن يكون الإنسان ظالماً يمنع ما وجب عليه من حق، ويطلب ما ليس له به حق، فهذا هو عين الظلم والعدوان، الذي عبَّر عنه رسول الله ﷺ بقوله: «ومنعاً وهاتِ» فهناك تكاليف مالية وتكاليف اجتماعية واجبة على الإنسان، عليه أن يؤديها على الوجه المطلوب فإذا منعها كان ظالماً.

وأما الأمر الثالث: مما يبغضه الله ويحرمه الدين فهو ذلك الأمر الشائن المتناهي في القبح والإجرام، ألا وهو (وأد البنات) فقد كان عادة شائعة عند العرب في أيام الجاهلية فمنهم من يَئِد ابنته تخلصاً من العار، ومنهم من يَئِدها خشية الفقــر، ومنهم من يَئِدها سفهاً وحماقة حيث كانوا يقولون: «الملائكةُ بنات الله فألحِقوا البناتِ بالبنات» وفي أمثال هؤلاء يقول القرآن الكريم: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِيْنَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُم سَفَهَاً بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾.

وأما الأمر الرابع: الذي حذّر منه الرسول الكريم والذي يبغضه الله ويمقته فهو كثرة القيل والقال، وكثرة الجدل والخصام، فكثرةُ الكلام تجر إلى الوقوع في

المعاصي والمحرمات وقد نهى الله تعالى عن ذلك بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾.

وأما الأمر الخامس: فهو كثرة السؤال عما لا يعني الإنسان وعما ليس منه فائدة، فالمؤمن يشتغل بما يهمه ويدع ما لا يعنيه، وقد قال صلوات الله عليه: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ ٱلْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ».

وأخيراً، فإنَّ النبي ﷺ ينهى عن تبذير المال وصرفه في غير الوجوه المشروعة، فإنَّ ذلك يدعو إلى الحسرة والندم، ويدفع بالإنسان إلى ذل السؤال، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ، وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً ﴾.

* * *

الكاسيات العاريات

الحديث التاسع عشر

عَنْ أبي هُرَيْرَة رَضِيَ اللهُ عنهُ، عنِ النبي ﷺ أنَّهُ قال:

«صِنْفَانِ مِنْ أهْلِ النَّارِ لَمْ أرَهُما: قَوْمٌ مَعَهُم سِيَاطٌ كأذْنَابِ البَقَرِ يَضرِبُونَ بِها النَّاس. وَنِساءٌ كاسِياتٌ عَارِيَاتٌ، مَائِلاَتٌ مُمِيلاَتٌ، رُؤُوسُهُنَّ كأَسْنِمَةِ البُخْتِ المائِلَةِ، لاَ يَدْخُلْنَ الجَنَّةَ، ولا يَجِدْنَ رِيحَها، وإنَّ رِيحَها لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وكَذَا». وفي رِوَايَة أخْرَى: «وإنَّ رِيحَها لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ خَمسِمائةِ عَامٍ».

(رواه مسلم)

الأبحاث العربية

صنفان : أي فئتان وفريقان، مثنّى صنف، بمعنى الفريق والجماعة وفي الأثر: (صِنْفَانِ إذَا صَلَحا صَلَح النَّاسُ، وَإذا فَسَدا فَسَدَ آلنَّاسُ: العُلَمَاءُ وَآلأُمَرَاءُ).

لم أرهما : المراد أنهما لم يكونا في زمانه ﷺ، وأنهما سيحدثان في المستقبل، وفيه معجزة للرسول الكريم حيث أخبر عن أمور مغيبة، وقد وقعت كما أخبر الصادق المصدوق.

سِيَاط : جمع سوط وهو الجلد المضفور وهو آلم من العصا، وقد يراد بالسَّوط أنواع وضروب العذاب، قال تعالى: ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾..

كاسيات عاريات: المعنى كاسيات في الصورة، عاريات في الحقيقة، لأنهن يلبسن ملابس شفَّافة رقيقة لا تستر جسداً ولا تخفي عورة، والغرض من اللباس إنما هو الستر، قال تعالى: ﴿ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ ﴾ فإذا لم يستر اللباس كان صاحبه عارياً.

مائلات مميلات: أي يتبخترن في مشيتهنَّ بقصد الفتنة والإغراء، فهنَّ (مائلات) في مشيتهنَّ (مميلات) لقلوب الرجال بخلاعتهنَّ، يتصنَّعْنَ الدلال، ويتقصَّدن إثارة الرجال، وهذا من عمل الفاجرات والعياذ بالله.

كأسنمة البخت: أصل السّنام: الشيء المرتفع، وسمّي القتب الذي على ظهر الجمل (سناماً) لأنه مرتفع، (والبُخْت) الإبل، والمراد أنهنَّ يصفِّفن شعورهن فوق رؤوسهن حتى تصبح مثل سنام الجمل، أو تصبح كأنها شاهق من الجبل.

الأبحاث النحوية

(صنفان): صنفان مبتدأ وخبره جملة (لم أرهما). وجوّز الابتداء به مع أنه نكرة لأنه موصوف فهو كقول ابن مالك: (ورجل من الكرام عندنا). (قوم): خبر لمبتدأ محذوف تقديره أحدهما قوم، وجملة (معهم سياط): صفة لقوم. وجملة (يضربون): صفة لسياط. (رؤوسهن): مبتدأ وهو مضاف. و(كأسنمةِ البخت): الجار والمجرور في محل رفع خبر.

الأبحاث البلاغية

١ ـ قوله: «سياط كأذناب» فيه تشبيه يسمّى (مرسَلاً مجمَلاً) أما أنه مرسل فلوجود أداة التشبيه، وأمّا أنه مجملٌ فلأنَّ وجه الشبه غير مذكور وهو الغلظُ والمتانة أو الإيلام والشدة.

٢ ـ قوله: «رؤوسهن كأسنمة» فيه أيضاً تشبيه يسمّى (مرسلاً مجملاً) كسابقه وذلك لوجود أداة التشبيه، وحذف وجه الشبه.

٣ ـ قوله: «كاسيات عاريات» و«مائلات مميلات» فيه من المحسِّنات البديعية ما يسمّى بـ (السَّجع) وفي الجملة الأولى (طباق) وهو أيضاً من المحسِّنات البديعية.

٤ ـ قوله: «لا يدخُلنَ الجنّة» جملة خبرية غرضها (التحذير والتخويف).

الشرح الأدبي

معجزة من معجزات الرسول الكريم تظهر في هذا الزمان، الذي كثر فيه الفساد، وظهرت فيه الميوعة والانحلال، وانتشر التعري والتكشف بين النساء باسم المدنية، وباسم التحرر، وباسم تطور الزمان، فلم يعد هناك وازع من دين أو وجدان، وإنا لله وإنا إليه راجعون. فالرسول الكريم ـ وهو الصادق المصدوق ـ يخبر عن أهل النار، ويخص بالذكر منهم صنفين من البشر:

الصنف الأول: الظلمة الذين يعتدون على خلق الله وعباده بالضرب والإهانة والتعذيب والتنكيل، لا عن استحقاق بل لمجرّد حب التعالي والظهور، وإشباع نفوسهم المتعطشة إلى سفك الدماء، وتعذيب الأبرياء، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِيْنَ فَتَنُوا ٱلْمُؤْمِنِيْنَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوْبُوا فَلَهُم عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيْقِ ﴾.

ولقد صوّر الرسول الكريم هؤلاء الظلمة وكأنه يشاهدهم ويراهم وهم يعتدون على الناس.. صوّرهم ومعهم تلك السياط الغليظة التي تشبه أذناب البقر في غلظها ومتانتها، أو في قسوتها وألمها، وهم ينهالون على الناس ضرباً وتعذيباً، وتنكيلاً وتشريداً، لا يرحمون أحداً لضعفه، ولا يقدّرون شخصاً لجاهه، بل هم يعتدون على الجميع بدون استثناء، وهذا ما ظهر في هذا الزمان وانتشر على أيدي الزبانية، من أعوان الحكام الجائرين، الذين لا يخشون الله، ولا يحسبون حساباً لذلك الموقف الرهيب ﴿ يَوْمَ يَقُوْمُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِيْنَ ﴾.

أما الصنف الثاني: فهنَّ النسوة الفاجرات اللواتي خالفن تعاليم الدين وآداب الإسلام فخلعن ملابسهن، وكشفن عن سواعدهن وأفخاذهنّ، ولبسن الملابس الرقيقة التي لا تستر جسداً، ولا تخفي عورة، وإنما تزيد في الفتنة والإغراء، ومشيْن مشية فيها التخنث والتكسر، وفيها لفت أنظار الرجال.

ولقد صوّر عليه أفضل الصلاة والتسليم هؤلاء النسوة وهنَّ يتبخترن في الشوارع والطرقات، ويتسكّعن في الأسواق والمنتديات، ليس لهنَّ عمل إلا إغواء الرجال، وإفساد الشباب والمراهقين، صوَّرهنَّ بصورة من تتقصّد إثارة الفتنة، وإغراء الرجل، حتى لَيُخيلّ إلى الناظر أنها - بهذه المشية الخليعة - تدعوه إلى نفسها، وتراوده من أجل عمل الفاحشة بها، وهذا هو معنى قوله ﷺ: (مائلات مميلات) أي أنهن مائلات في مشيتهن مميلات لقلوب الرجال يقصدن إثارة الشهوة في قلوبهم، ثم عدّد الرسول الكريم من قبائحن بأنهنَّ يصفِّفْنَ شعورهن حتى يصبح شعر الواحدة منهن مثل سنام الجمل في الارتفاع، وقد وضعت عليه أنواع الزينة، وصبغته بأنواع من الأصباغ المغرية، وكدَّسته فوق رأسها كأنه شاهق من الجبل، أو سدُ عال من سدود الصين.

وقد ختم عليه الصلاة والسلام هذا الحديث الشريف بما يفزع له قلب الإنسان فقال: «لاَ يَدْخُلْنَ ٱلْجَنَّةَ وَلاَ يَجِدْنَ رِيْحَهَا...».

وأي عذاب أشد من هذا العذاب: أن يحرم الإنسان الجنة ونعيمها، وألاَّ يجد ريحها أبداً مع أنَّ ريحها يوجد من مسيرة خمسمائة عام. اللهم احفظنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن، إنك سميع مجيب الدعاء.

* * *

دعاةٌ على أبوابِ جهنَّمَ

الحديث العشرون

عَنْ حُذَيفةَ بنِ اليمانِ رضيَ اللهُ عنهُ، أنَّهُ قَالَ:

«كانَ النَّاسُ يسألونَ رسُولَ اللهِ ﷺ عنِ الخيرِ وكنتُ أسألُهُ عن الشرِّ مَخافَةَ أن يُدْركني، فقلتُ يا رسولَ اللهِ: إنّا كنّا في جاهِليةٍ وشرٍّ فَجاءَنا اللهُ بهذا الخيرِ، فهل بَعْدَ هذا الخيرِ من شرٍّ؟ قَالَ: نعمْ، قلتُ: وهل بعدَ ذلكَ الشرِّ من خيرٍ؟ قالَ: نعمْ وفيهِ دَخَنٌ!! قلتُ: وما دَخَنُه؟ قالَ: قومٌ يهدونَ بغيرِ هَدْيٍ تَعرِفُ منهم وتُنْكِرُ، قلتُ: فَهَلْ بعدَ ذلكَ الخيرِ من شرٍّ؟ قَالَ: نعم، دُعَاةٌ على أبْوابِ جَهنَّمَ مَنْ أجابَهُمْ إليها قذفُوهُ فيها، قلتُ: صِفْهمْ لَنَا، قالَ: هُمْ من جِلْدتِنَا ويتكلَّمونَ بألسنَتِنَا!! قلتُ فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قَالَ: تلزَمُ جماعةَ المسلمينَ وإمامَهم، قلتُ: فإنْ لم يَكنْ لهمْ جماعةٌ ولا إمامٌ؟ قَالَ: فاعتزِلْ تِلكَ الفِرَقَ كلَّها ولَوْ أنْ تَعضَّ بأصلِ شَجرةٍ حتَّى يدركَكَ الموتُ وأنتَ على ذَلِكَ».

(رواه البخاري ومسلم والترمذي)

الأبحاثُ العربيّة

جاهلية : المرادُ بالجاهلية حياة (الشرك والوثنية) التي كان عليها العرب قبل

الإسلام، وسميت جاهلية من الجهل بمعنى السَّفه والحماقة، قال (عَمرو بن كلثوم):

أَلَا لَا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا
فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ ٱلْجَاهِلِيْنَا

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱلْأُولَى﴾. وعصرنا اليوم هو (عصر الجاهلية) بكل مظاهرها لأنه عصر الرجوع إلى الفوضى، والتحلل الخلقي، والفساد الاجتماعي بشتى صوره وأشكاله.

دَخن : الدَّخنُ مثل الدخان، وهو ما يخرج من النار إذا أُلقِي عليها حطب رطب، قال ابن الأثير في النهاية: وقد يطلق الدخن ويراد منه الكدر وهو أن يكون في لون الدابة كدورة إلى سواد، ومنه هذا اللفظ في الحديث الشريف، أي: إنَّ الخير ليس خالصاً ولا صافياً بل فيه كدر لأن ظاهره غير باطنه.

بغير هَدْي : أي بغير علم ولا بصيرة، وبغير اتباع لهدْي الأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

تعرف وتنكر : المعنى تجد فيهم بعض أمور تتفق مع الشرع فتقرّهم عليها، وتجد أموراً أخرى منكرة لا يقبلها الشرع ولا العقل فتنكرها عليهم، فهم قد ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً﴾.

دعاة : الداعي قسمان داع إلى الهدى، وداع إلى الضلال، فالأنبياء يدعون الناس إلى طريق الهداية والرشاد، والشيطان وأعوانه يدعونهم إلى الغي والفساد، قال تعالى عن سيد الرسل: ﴿وَدَاعِياً إِلَى ٱللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيْراً﴾. والمراد من قوله: «دعاة على أبواب جهنم» أي: إنّهم يدعون الناس إلى الضلالة، ويصدُّونهم عن الهدى بأنواع من الخبث والمكر والخداع.

جلدتنا : المراد أنهم منا وأنهم من عشيرتنا ويتكلمون بألستنا فهم ليسوا أجانب ولا غرباء عنا، ولكنهم خبثاء يقولـون ما لا يفعلون، ويبطنون ما لا يظهرون.

الأبحاث النحوية

قوله: (كان الناس يسألون): كان فعل ناقص، والناس اسمهـا وجملة (يسألون) خبرها. قوله: (مخافة أن يدركني): مخافة مفعول لأجلـه منصوب بالفتحة الظاهر، و(أن يدركني): أن وما بعدها في تأويل مصدر مضاف إليه والتقدير: مخافة إدراكـه لي. قولـه: (وفيه دخن): الجـار والمجرور متعلق بمحذوف خبر مقدّم، ودخنٌ مبتدأ مؤخر. قوله: (قوم يهدون بغير هدي): قومٌ خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هم قوم)، وجملة يهدون من الفعل والفاعل في محل رفع صفة لقوم، لأنَّ الجمل من بعد النكرات صفات. قوله: (هم من جلدتنا) ضمير منفصل مبتدأ و(من جلدتنا): هو الخبر، أي: هم من أبنائنا ومن جماعتنا.

الأبحاث البلاغية

١ ـ قوله: (كان الناس يسألون. . .) إلخ جملة خبرية الغرض منها إفادة المخاطب الحكم الذي تضمنته الجملة ويسمى (فائدة الخبر).

٢ ـ قوله: (عن الخير، وكنت أسأله عن الشر) بين لفظ (الخير والشر) طباقٌ وهو أن يجمع بين لفظين متقابلين في المعنى، وهـذا النوع يسمى (طباق الإيجاب). وكذلك في قوله: «تعرف منهم وتنكر» طباق أيضاً، والأول طباق في الاسم، وهذا طباق في الفعل. وهذا النوع مما يتعلق بعلم البديع.

٣ ـ قوله: «هم من جلدتنا» كناية عن أنهم من العرب المسلمين فهم ليسوا أجانب عنا إنما هم من عشيرتنا وملتنا.

٤ ـ قوله: «تعضَّ بأصل شجرة» هو كناية عن شدة الحرص على اعتزال الفرق الضالَّة والتمسك بالدين كما يعضُّ الواحد على الشيء الذي يحرص عليه كل الحرص، ومثله قوله ﷺ في الحديث الآخر: «عضُوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ».

التعريف براوي الحديث

هو (حُذَيْفَةُ بنُ اليمانِ) العَبسيُّ، يكنى أبا عبد الله، واليمانُ لقبُ أبيه، واسم والده (حُسَيْل بن جابر) وُلد حذيفة بالمدينة المنورة وأسلم هو وأبوه (اليمان). وحين وقعت غزوة بدر خرج حذيفة مع أبيه يريدان شهود بدرٍ مع رسول الله ﷺ فمنعهما المشركون، يقول حذيفة: (ما منعني أن أشهد بدراً إلا أني خرجت مع أبي فأخَذَنا كفار قريش فقالوا إنكم تريدون محمداً، فقلنا ما نريده فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفنَّ إلى المدينة ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه بذلك فأمرنا بالانصراف والرجوع)، وقد شهد حذيفة وأبوه (اليمان) غزوة أحد، فاستشهد والده هناك، قتله أحد المسلمين وهو يحسبه من المشركين.

كان حذيفة من كبار الصحابة وهو (صاحب السرّ) وقد كان معروفاً بين الصحابة بأنه صاحب سرّ رسول الله ﷺ حتى كان عمر رضي الله عنه يسأله عن المنافقين، وكان ينظر إليه عند موت من يموت منهم فإن لم يشهد جنازته حذيفة لم يشهدها عمر، وكان حذيفة يقول: (خيَّرني رسول الله ﷺ بين الهجرة والنصرة فاخترت النصرة) أي: اختار أن يكون أنصارياً وقد شهد حذيفة فتوح العراق وشهد (نهاوند) وفتح همدان والريّ، وتوفي سنة ٣٦ هـ بعد مقتل عثمان رضي الله عنه.

الشرح الأدبي

اختصَّ بعض الصحابة الكرام ببعض الخصوصيات، فكان منهم صاحب سرّ رسول الله ﷺ وهو (حذيفة بن اليمان) رضي الله عنه وأرضاه، وهذا الصحابي الجليل لم يكن ليقنع من هذا الدين العظيم، بالسؤال عن أمور الهدى والرشاد، بل تعداه إلى السؤال عما يهم المسلمين، فكان يسأل رسول الله ﷺ عن المنافقين، وعن أوصافهم، وأعمالهم والرسول ﷺ يطلعه عليهم وينبئه عن أحوالهم وصفاتهم حتى لم يكن أمر المنافقين ليخفى عليه وكان كبار الصحابة يأتون إليه ويسألونه عما حدّثه به الرسول الكريم من أمور تتعلق بالساعة، وبالفتن، وبالمنافقين فكان يخبرهم عن ذلك، وكان عمر رضي الله عنه لشدة خوفه من الله

وخشيته من النفاق يأتي إلى حذيفة فيقول له: أسألك بالله هل عدّني رسول الله من المنافقين؟.

وفي هذا الحديث الشريف يقص علينا حذيفة رضي الله عنه قصة اختصاصه بمعرفة بعض الأمور المغيبة من أمور الساعة، والفتن وأخبار المنافقين فيقول: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشرّ مخافة أن يدركني..» ومن هنا يتبين لنا سرُّ خصوصيته بمعرفة أسماء المنافقين وصفاتهم فقد كان حريصاً على معرفة دعاة السوء والضلال ومعرفة الشر والفساد ليتجنبهم ويجتنب دعوتهم.

ومن خلال هذا الحديث الشريف يتراءى أمامنا جلياً واضحاً تلك الفئة الضالة التي باعت نفسها للشيطان فوقفت تدعو الناس إلى الضلال وإلى جهنم، وليست هذه الزمرة من (دعاة الضلال) هم من الأجانب البعيدين عن الدين، من غربيين أو شرقيين، إنما هم كما وصفهم الرسول الكريم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا. إنهم ممن يزعمون الإسلام ثم يحملون معاول لهدمه، ويجهدون أنفسهم لإطفاء نوره، ويفعلون ما لا يفعله الأعداء، وما أكثر هؤلاء الضالين في هذا الزمان الذين يغيّرون شريعة الله ويهزؤون بأحكام الدين، ويقتلون علماء المسلمين، ثم يفعلون من الفظائع ما تشيب له الرؤوس، ويرتكبون من الجرائم ما تقشعرُّ له الأبدان، ويدَّعون بعد ذلك أنهم حماة الإسلام ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ. أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

ألا فلْيعلم هؤلاء الطغاة الظالمون أن الله تعالى لهم بالمرصاد، وأن بطشه شديد، وأن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلتـه، ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

فلا يغترُّ هؤلاء الفراعنة المتجبرون بحلم الله، فإن بطش ربك لشديد ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾.

* * *

الوصايا الخمس

الحديث الحادي والعشرون

عَنْ أبي هُرَيْرةَ رضِيَ اللهُ عنهُ، أنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ قالَ:

«مَنْ يَأْخُذُ عَنّي هَذِهِ الكَلِمَاتِ فَيَعْمَلُ بهنَّ أو يُعلِّمُ مَنْ يَعْمَلُ بهنَّ؟ قَالَ أبُو هُرَيْرةَ: فقلتُ: أنا يا رسولَ اللهِ، فأخذَ بيدي فعدّ خَمْساً فقال:

- اتّقِ المَحَارِمَ تَكنْ أعبَدَ النَّاسِ.
- وارْضَ بِمَا قَسَمَ اللهُ لَكَ تَكُنْ أغْنى النَّاسِ.
- وأحْسِنْ إلى جَارِكَ تَكُنْ مُؤْمِناً.
- وأحبَّ للنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تكنْ مُسْلماً.
- ولا تُكْثِرِ الضَّحِكَ فإنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ القَلْبَ».

(رواه التِرْمِذِيُّ)

الأبحاث العربية

هذه الكلمات : المراد بالكلمات الوصايا أي من يسمع هذه الوصايا فيعمل بها.

المحارم : قال في القاموس: المحارم جمع (مَحْرُمَة) وقد تفتح الراءُ (مَحْرَمَة) وهي ما حرم الله فعله وعمله على العباد وفي الحديث الشريف: «ألَا وَإنَّ حِمَى اللهِ فِي الأرْض مَحَارِمُه».

أعبَد الناس : أفعل تفضيل أي أكثرهم عبادة، وأعظمهم خشية لله، كتب (ابن المبارك) للقاضي (عياض) يلومه على ترك الجهاد:

يَـا عَـابِـدَ ٱلْحَـرَمَيْنِ لَـوْ أَبْصَـرْتَنَـا
لَـعَلِمتَ أَنَّـكَ فِي ٱلْـعِبَـادَةِ تَلْعَبُ

مَنْ كَـانَ يخضُبُ خَدُّه بِـدُمُـوعِـهِ
فَنُحُـورُنَـا بِـدِمَـائِنَـا تَـتَخَضَّبُ

قسم الله : أي اقنع بِنَصيبك من الدنيا تكن أغنى الناس، فالقناعة كنز لا يفنى، وفي القناعة راحة للقلب والبال قال الشاعر:

إِذَا مَـا كُـنْـتَ ذَا قَـلْبٍ قَـنُـوعٍ
فَـأَنْـتَ وَمَـالِـكُ ٱلـدُّنْيَـا سَـوَاءُ

تميت القلب : أي تذهب نوره وبهاءه، وتفقد الإنسان شعوره وإحساسه، فلا يستفيق لنصح، ولا يرتدع عن غيٍّ. وكثرة الضحك دليل السَّفه، وخفة العقل، ولقد أحسن من قال:

ضَحِكْنَـا وَكَانَ ٱلضَّحْـكُ مِنَّا سَفَـاهَـةً
وَحُـقَّ لأَرْبَـابِ ٱلْبَـرِيَّـةِ أَنْ يَـبْكُـوا

الأبحاث النحوية

(تكن أعبدَ): تكن مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب، وهو متصرف من كان الناقصة، واسمها ضمير مستتر وجوباً تقديره أنت، ولفظ (أعبد): هو الخبر منصوب بالفتحة الظاهرة، وكذلك (تكن أغنى الناس) مثلها في الإعراب. (بما قسم الله): (ما) اسم موصول مجرور بالباء أي (بالذي) قسمه الله لك، والجار والمجرور متعلق بـ (ارْض) ولفظ الجلالة فاعل مرفوع بالضمة الظاهرة. (تميت القلب): تميت فعل مضارع والقلب مفعول به، والجملة في محل رفع خبر إنَّ تقديره: فإنَّ كثرة الضحك مميتة للقلب.

الأبحاث البلاغية

١ - قوله: «اتق المحارم» جملة إنشائية (إنشاء طلبي) والغرض من هذه الجملة (الإرشاد) فقد خرج الأمر عن صيغته الأصلية وهي الوجوب والإلزام إلى النصح والإرشاد. ومثلها الجمل الأخرى «ارض بما قسم الله» و «أحبَّ الناس» و «أحسن إلى جارك».

٢ - قوله: «بما قسم الله» فيه (إيجاز بالحذف) والمعنى: ارض بما قسم الله لك من العيش والمال والرزق الحلال.. والإيجازُ ضرب من ضروب البلاغة لأن فيه وضع المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة. ولقد كان الرسول ﷺ أفصح البلغاء فقد أُعطي جوامع الكَلِم. ويشترط في الإيجاز بالحذف ألا يُخِلَّ بالفهم وأن يكون هناك ما يدل على المحذوف وإلا كان الحذف رديئاً، والكلام غير مقبول.

٣ - قوله: «تميت القلب» فيه استعارة حيث شبَّه الظلمة التي تحلُّ بقلب الإنسان المكثر للضحك بالموت، واشتق من لفظ الموت (تميت) فهي (استعارة تصريحية أصلية).

٤ - بين لفظ «أعبد الناس» و «أغنى الناس» سجع، وهو من المحسِّنات البديعية.

الشرح الأدبي

حين تسمو النفوس وتكبر الأمال، وتصبح الحياة عامرة بالتقوى وفضائل الأعمال، تتطلع النفس البشرية إلى معرفة الفضائل والمكارم، فتصبح العبادة محبوبة إلى النفس، وتصبح الطاعة سجية من سجاياها، وبذلك يرتفع الإنسان فوق المغويات والمغريات، ولا يبقى للمادة قيمة في نظره، ولا سبيل إلى قلبه. كيف لا وقد أصبحت (المثل العليا) همّه وغايته، وأصبح حبُّ الخير غرضه وهدفه!!.

والرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه يوّضح لنا في هذا الحديث النبوي الشريف الذي هو قبس من قبسات النبوة، ومنار من منارات الهدى، يوضح

الأبحاث البلاغية

١ - قوله: «اتق المحارم» جملة إنشائية (إنشاء طلبي) والغرض من هذه الجملة (الإرشاد) فقد خرج الأمر عن صيغته الأصلية وهي الوجوب والإلزام إلى النصح والإرشاد. ومثلها الجمل الأخرى «ارض بما قسم الله» و «أحبَّ الناس» و «أحسن إلى جارك».

٢ - قوله: «بما قسم الله» فيه (إيجاز بالحذف) والمعنى: ارض بما قسم الله لك من العيش والمال والرزق الحلال.. والإيجازُ ضرب من ضروب البلاغة لأن فيه وضع المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة. ولقد كان الرسول ﷺ أفصح البلغاء فقد أُعطي جوامع الكَلِم. ويشترط في الإيجاز بالحذف ألا يُخِلَّ بالفهم وأن يكون هناك ما يدل على المحذوف وإلا كان الحذف رديئاً، والكلام غير مقبول.

٣ - قوله: «تميت القلب» فيه استعارة حيث شبَّه الظلمة التي تحلُّ بقلب الإنسان المكثر للضحك بالموت، واشتق من لفظ الموت (تميت) فهي (استعارة تصريحية أصلية).

٤ - بين لفظ «أعبد الناس» و «أغنى الناس» سجع، وهو من المحسِّنات البديعية.

الشرح الأدبي

حين تسمو النفوس وتكبر الأمال، وتصبح الحياة عامرة بالتقوى وفضائل الأعمال، تتطلع النفس البشرية إلى معرفة الفضائل والمكارم، فتصبح العبادةِ محبوبة إلى النفس، وتصبح الطاعة سجية من سجاياها، وبذلك يرتفع الإنسان فوق المغويات والمغريات، ولا يبقى للمادة قيمة في نظره، ولا سبيل إلى قلبه. كيف لا وقد أصبحت (المثل العليا) همّه وغايته، وأصبح حبُّ الخير غرضه وهدفه!!.

والرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه يوّضح لنا في هذا الحديث النبوي الشريف الذي هو قبس من قبسات النبوة، ومنار من منارات الهدى، يوضح

لنا سبيل الخير، ويرشدنا إلى مدارج العز والكمال، في وصاياه الثمينة الغالية، التي فيها من النصائح والحِكَم ما يُثلج الصدر ويشفي الغليل.

ففي الوصية الأولى: بيان لمعنى «للعبادة» الحقة، فليست العبادة صوراً وأشكالاً، ولا مظاهر وهمية، لا صلة لها بالمجتمع والحياة، بل هي الجمال والجلال، والاستقامة على شريعة الله.. فإذا اجتنبتَ المحارم، وابتعدت عن مزالق الهوى، ومكائد الشيطان، وطهّرت نفسك من الفحش والرذيلة، فأنت العابد الزاهد، وأنت التقي الصالح، الذي يريده ويحبه الإسلام.. ولله در القائل:

وَاتَّـقِ اللهَ فَـتَـقْـوَى اللهِ مَـا جَـاوَرَتْ قَـلْـبَ امـرِىءٍ إلاَّ وَصَـلْ
لَـيْسَ مـنْ يـقـطـعُ طُـرُقَـاً بَـطلاً إنَّـمَـا مَنْ يَـتَّـقِـي اللهَ الـبَـطَلُ

وفي الوصية الثانية: بيان لحقيقة «الغنى»، فليس الغنى بكثرة المال، ولا بملك العقار، ولا بادخار الثروات وتكديسها، ولكنها في غنى النفس كما قال صلوات الله عليه في حديث شريف: «لَيْسَ ٱلْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ ٱلْعَرَضِ، وَلَكِنَّ ٱلْغِنَى غِنَى ٱلنَّفْسِ»، فالرضى بالرزق المقسوم راحة للنفس، وطمأنينة للقلب، بل هو السعادة نفسها، ولقد أحسن من قال:

وَلَسْتُ أَرَى ٱلسَّعَـادَةَ جَمْـعَ مَـالٍ وَلَـكِـنَّ الـتَّـقِـيَّ هُـوَ ٱلـسَّـعِـيْـدُ

وليست الثروة والمال هي كل النعم التي أنعم الله تعالى بها على الإنسان، بل إنَّ من النعم ما يفوق - أضعافاً مضاعفة - نعمة الغنى والمال.. فالإيمان، والصحة، والسلامة، والعيش في ظلال الأمن كلها نِعَمٌ تفوق نعمة المال، وصدق الله ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾.

وفي الوصية الثالثة: دعوة إلى البرّ والإحسان.. أن يحسن الإنسان إلى أقرب الناس إليه، وأولاهم بحسن معاملته ألا وهو (الجار) الذي أوصى القرآن به في عديدٍ من الآيات، وقال عنه سيد البشر: «مَا زَالَ جِبْرِيْلُ يُوصِيْنِي بِٱلْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورِّثُهُ».

وفي الوصية الرابعة: تظهر مثالية الإسلام، في حبه الخير لجميع الأنام، فليس الدين إلا رحمة وعطفاً، وليست الأخلاق إلا إنسانية ونبلاً، ولهذا لا يتحقق

بالإسلام إلا من أحب الخير لجميع الناس، دون تفريق بين ألوانهم وأجناسهم وحتى أديانهم، وهذا هو أدب القرآن ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ وتوجيه النبوة: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيْهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ».

وفي الوصية الخامسة: دعوة إلى (الخلُق الرصين) باجتناب حياة الهزل، وتحذير من الإكثار من الضحك، فإنَّ ذلك مما يتنافى مع وقار المسلم. . فليست الحياة لهواً وعبثاً، وليست هزلاً وصخباً. بل هي - في نظر العاقل - حياة جد وكفاح، وعمل ونضال. . .

فللّه ما أجمل أخلاق الإسلام!! وما أروع نصائح الرسول، وما أسعد المسلمين لو تمسكوا بها!!.

* * *

الأخلاق ميزان رُقيّ الأُمم

الحديث الثاني والعشرون

عَنْ جَابرِ بنِ عَبْدِاللهِ رَضِيَ اللهُ عنهُ، أنَّ رسُولَ ﷺ قَالَ:

«إنَّ مِنْ أحَبِّكم إليَّ، وأقْربكُمْ منّي مَجْلِساً يومَ القيامةِ أحاسِنُكم أخلاقاً، وإنَّ مِنْ أبْغضِكُم إليَّ، وأبعدِكُم مِنّي يومَ القِيامَةِ، الثَّرْثَارونَ، والمتشدِّقونَ والْمتفَيْهقُونَ؟ قالوا: يا رَسُولَ الله: فَما المتفَيْهِقُونَ؟ قَالَ: المتكَبِّرُوْنَ».

(رواه الترمذي)

الأبحاث العربية

الثرثارون : جمع (ثرثار) وهو الشخص الذي يكثر الكلام وقد يصل به الحال إلى درجة الهذيان، قال الشاعر:

وَزِنِ ٱلْكَلاَمَ إذَا نَطَقْتَ فَإنَّمَا
يُبْدِي عُيُوبَ ذَوِي ٱلْعُيُوبِ ٱلْمَنْطِقُ

المتشدِّقون : جمع متشدق وهو الذي يتطاول على الناس بكلامه، ويتكلم بملء فمه، تفاصحاً وتفاخراً، وأصل التشدُّقِ مأخوذ من ملء الشدق، فالذي يتكلم بملء فمه للتفصح يقال عنه: متشدّق، وقد جاء في

لسان العرب: الشِّدْقُ جانب الفم، والمتشدِّق الذي يلوي شدقه للتفصّح.

المتفيهقون : مأخوذ من الفَهْق وهو الامتلاء، قال الأصمعي: المتفيهقُ الذي يتوسع في كلامه ويفهق (أي يملأ) به فمه قال الأعشى:

تَـرُوحُ عَـلى آلِ ٱلْمُـحَـلَّقِ جَـفْـنَـةٌ
كَجَـابِيَـةِ ٱلشَّـيْـخِ ٱلْعِـرَاقِيِّ تَـفْهَـقُ

وقد فسّره عليه الصلاة والسلام بأنه المتكبِّر لأن المتكبر يتبجّح بكلامه ويشمخ بأنفه استعلاءً على الناس وتكبراً فناسبه الوصف.

الأبحاث النحوية

(إن من أحبّكم): إن حرف توكيد ونصب (من): حرف جر زائد (أحبكم): اسم إنَّ، والخبر هو (أحاسنُكم): وهو مضاف، والكاف مضاف إليه. (مجلساً): تمييز. وقوله: (الثرثارون) خبر إنَّ مرفوع. قوله: (المتكبّرون) خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هم المتكبرون.

الأبحاث البلاغية

١ ـ قوله: «إن من أحبكم» جملة خبرية من النوع الطلبي لأنها مؤكّدة بإنَّ، والغرض منها إفادة المخاطب الحكم ويسمى (فائدة الخبر).

٢ ـ بين جملة «أحبكم إليَّ» و«أقربكم مني» وجملة «أبغضكم إليَّ» و «أبعدكم منيّ» من المحسِّنات البديعية ما يسمى بـ(المقابلة) فقد جاء بلفظ (أحبكم) ويقابلها في الجملة الثانية (أبغضكم)، وبين لفظ (أقربكم) ويقابلها (أبعدكم)، وبين لفظ (أحاسنكم خلقاً) ويقابلها (الثرثارون)، فهي مقابلة بديعة لطيفة تزيد الكلام رونقاً وجمالاً.

والفرق بين (المقابلة) و(الطّباق) إنَّ المقابلة تكون بين معنيين أو أكثر مترافقة ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب، أما (الطباق) فيكون بين لفظتين مثل: (﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ ومثل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾.

بهذه الصورة الجميلة الرائعة، يضع الرسول الكريم صلوات الله عليه حجر الزاوية، في بناء الشخصية الإسلامية المثالية، وبناء المجتمع المسلم، القائم على الفضيلة، المشيَّد بدعائم التقى والصلاح. ففي هذا الهدي النبويِّ الشريف يبيِّن الرسول عليه الصلاة والسلام منزلة (الأخلاق والتربية) في الإسلام، ومكانة المؤمن المتخلق بهذه الأخلاق الكريمة التي هي من أهم مقاصد الإسلام. فالأخلاق سياج الأمم، وميزان تقدمها ورقيها، وعنوان عظمتها وخلودها.. فالأمم لا تحيا بدون أخلاق، ولا تعيش بغير أدب. ولله درُّ أمير الشعراء شوقي حيث يقول:

صَلاَحُ أمْرِكَ لِلأَخْلاَقِ مَرْجِعُهُ ... فَقَوِّمِ ٱلنَّفْسَ بِالأَخْلاَقِ تَسْتَقِمِ

وقوله أيضاً:

وَإِنَّمَا الأُمَمُ الأَخْلاَقُ مَا بَقِيَتْ ... فَإِنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخْلاَقُهُمْ ذَهَبُوا

ولقد ضرب الرسول الكريم أروع الأمثلة في الخلُق الرفيع، والاستقامة على أمر الله عزّ وجلّ، والتحلي بالأخلاق الكريمة الفاضلة، حتى أثنى عليه المولى تبارك وتعالى بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. وكفى بهذا الثناء والمديح رفعة وعزة، وسمواً وجلالاً لنبي الهدى ورسول الأخلاق!!.

ولقد وضّح عليه الصلاة والسلام - بهذه الكلمات الروائع - قيمة الأخلاق، ورفع مكانة أهلها، المتخلقين بحميد الخصال، الذين ترسخت فيهم معاني الفضل والنبل، والأدب الرفيع، حتى أصبحت سجية من سجاياهم، وأشاد بفضلهم صلوات الله عليه حين جعلهُم أحبَّ الناس عنده وأقربهم مكانة لديه فقال: «إنَّ مِنْ أحبِّكُم إليَّ وأقْربكُم مِنِّي مَنْزِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاَقاً...».

فليست الأخلاق سبب السعادة في الدنيا فحسب، بل هي أساس السعادة وأصل العزّة في الدنيا والآخرة وكفى بجوار الرسول الكريم في دار الخلد والنعيم شرفاً وعلواً لصاحب الخُلُق الرفيع حيث ينال درجة عالية يغبطه عليها كثير من الناس، يوم يكون مجلسه إلى جانب مجلس الرسل الكرام والصدِّيقين والشهداء، فهل بعد هذا عز وشرف يدانيه أو يضاهيه؟.

ثمَّ ينتقل الرسول الكريم فيبين في هديه الشريف منزلة الفريق الثاني، أولئك الذين تجردوا من الفضيلة، وتعروا عن حميد الأخلاق وحسبهم خسارة أن يكونوا بغيضين إلى رسول الله بعيدين عن مجلس الأنس والسعادة في جواره الشريف وجوار أولياء الله من النبيِّين والشهداء والصالحين، وأن يكونوا منبوذين مبغضين، ينبذهم الخلق، ويبغضهم الحقُّ، لأنهم استكبروا عن الخضوع والإذعان وطاعة الرحمن!.

فما أعظم خسارة أولئك وما أشد ندامتهم؟.

* * *

الصّبرُ عند الصدمةِ الأُولى

الحديث الثالث والعشرون

عَنْ أنس بنِ مالكٍ رضيَ اللهُ، أنَّهُ قالَ:

مَرَّ النبيُّ ﷺ بامرأةٍ تَبكي عِنْدَ قَبْرٍ فَقَالَ لَهَا: «اتَّقِي اللهَ واصْبري» فَقَالَتْ: إليْكَ عنّي فإنَّكَ لمْ تُصَبْ بِمُصِيبَتي ـ ولم تعرفْه ـ فقيلَ لها: إنَّهُ النبيُّ ﷺ، فأتَتْ بابَ النبيِّ فلمْ تجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابينَ، فَقَالَتْ: لمْ أعْرِفْكَ فَقَالَ: «إنّما الصَّبْرُ عندَ الصَّدْمةِ الأُولى».

(رواه البخاري)

الأبحاث العربية

تبكي : أي تنوح وترفع صوتها بالبكاء والعويل، لذلك أنكر عليها النبي ﷺ وأمّا البكاء بدون نواح فليس محظوراً بدليل قوله ﷺ: «إنَّ ٱلْعَيْنَ لَتَدْمَعُ، وَإنَّ ٱلْقَلْبَ لَيَحْزَنُ وَلاَ نَقُولُ إلاَّ مَا يُرْضِي ٱللهَ، وَإنَّا عَلَى فِرَاقِكَ يَا إبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ».

إليك عني : إليك: أي تنحَّ وابعد عني فهو من أسماء الأفعال وليس جاراً ومجروراً فهي مثل قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِيْنَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُم ﴾ أي: الزموها.

الصبر : الصبر هو حبس النفس على ما تكره، والصبر أنواع: صبر على المصيبة، وصبر على فعل الطاعة، وصبر على ترك المعصية. قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

الصدمة الأولى : الصدمة الأولى هي : أول نزول المصيبة ووقوعها على النفس فإنها تكون أشد وآلم. وأصل الصدم ضرب الشيء الصلب بشيء صلب مثله ثم استعير للمصيبة الواردة على القلب.

الأبحاث النحوية

(بامرأة تبكي): جملة تبكي من الفعل والفاعل في محل جر صفة لامرأة لأن الجمل من بعد النكرات صفات. (إليك): اسم فعل أمر بمعنى اذهب وابعد عني. (ولم تعرفه): جملة في محل النصب على الحال وصاحبها الضمير الذي هو فاعل قالت، والتقدير: فقالت المرأة للنبي ذلك حال كونها تعرفه ﷺ، إذ لو عرفته لما خاطبته بتلك الجفوة.

الأبحاث البلاغية

١ ـ قوله: (مرّ النبي) جملة خبرية من الضرب الابتدائي، والغرض منها إفادة المخاطب الحكم الذي تضمنته الجملة ويسمى (فائدة الخبر).

٢ ـ قوله: (اتقي الله) جملة إنشائية وهو من الإنشاء الطلبي، والغرض من الأمر هنا (النصح والإرشاد).

٣ ـ قولها: (إليك عني) جملة إنشائية طلبية العامل فيها الأمر والأداة اسم فعل الأمر (إليك) بمعنى ابتعد والغرض (التأنيب واللوم).

٤ ـ قولها: (لم أعرفك) جملة خبرية من الضرب الابتدائي والغرض (إظهار الندم).

٥ ـ قوله: «الصَّبْرُ عِنْدَ ٱلصَّدْمَةِ ٱلأُولَى» فيه استعارة لطيفة فقد شبّه وقع المصيبة على الإنسان بالصدمة، واستعار (المشبّه به) للمشبّه، على سبيل الاستعارة (التصريحية الأصلية).

التعريف براوي الحديث

راوي الحديث هو (أنس بن مالك) الأنصاري الخزرجي رضي الله عنه، يكنى (أبا حمزة) وهو خادم رسول الله ﷺ وأحد المُكْثِرين من الراوية عنه، وقد إنتفع ببركة خدمته للنبي ﷺ ودعا له الرسول الكريم، أتت به أمه (أم سليم) إلى النبي ﷺ لما قدم المدينة فقالت له: هذا أنس غلام يخدمك فقبله ﷺ وكناه (أبا حمزة) وكان يمازحه ﷺ بقوله: يا ذا الأذنين.. وقد خدم رسول الله ﷺ عشر سنين ودعا له النبي ﷺ بالبركة فيه وفي ماله وولده فكان له بستان يحمل الفاكهة في السنة مرتين. وكان فيه ريحان ينبعث منه ريح المسك، وقد قدّم من صلبه من ولده وولد ولده ما يزيد على مائة قبل موته وذلك ببركة دعوة الرسول الكريم. قال أنس: وإن أرضي لتثمر في السنة مرتين وإني لمن أكثر الأنصار مالاً وولداً، توفي سنة ٩٣ هـ وله من العمر ١٠٣ سنوات، ودفن في البصرة، رضي الله عنه وأرضاه.

الشرح الأدبي

ما أشد وقع المصيبة على النفس حين تكون بعزيز غالٍ، أو ولد حبيب!! إنّها لخطب جَلل وكارثة عظيمة قد يضيق عنها الصبر ولا تتحملها النفس، ولكن الدين داوى هذه النفوس الجزعة بما يخفف عنها وقع المصيبة وألم الكارثة، فالمؤمن يعتقد بقضاء الله وقدره وأنّ كل ما يحدث في هذه الحياة، من خير أو شر، ومن نفع أو ضر، إنما هو بقضاء من الله وتقدير منه فيرضى بحكم الله صابراً محتسباً طمعاً في مرضاة الله عز وجل، وإلى ذلك تشير الآية الكريمة ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِيْ أَنْفُسِكُم إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى ٱللهِ يَسِيْرٌ. لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَاْ فَاْتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوْاْ بِمَاْ آتَاْكُمْ، وَٱللهُ لاْ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَاْلٍ فَخُوْرٍ﴾... هذا هو فائدة الإيمان (بالقضاء والقدر) أن تخف المصية على قلب الإنسان بسبب اعتقاده أنها بإرادة الله ومشيئته بينما الكافر ينفد صبره ويضيع رشده، ولربما أضاع حياته أيضاً بالانتحار، لأنه ليس لديه ما يسليه أو يعزِّيه أو يخفف المُصاب عنه.

ولقد كان جزاء الصبر عظيماً عند الله لأنه حبس للنفس على ما تكره، وصون لها عن فعلٍ ما يغضب الله، ومقاومة للنوازع الفطرية في نفس الإنسان ولذا كان الثواب عظيماً، قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّابِرِيْنَ. ٱلَّذِيْنَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيْبَةٌ قَالُوا إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُوْنَ. أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُوْنَ ﴾.

وفي هذا الحديث الشريف دعوة إلى الصبر وتقوى الله لتلك المرأة التي فقدت ولدها، ولكن وقع المصيبة كان عظيماً لذلك فقد خاطبت الرسول ﷺ بألفاظ لا تليق بمقامه الشريف ولكن الرسول ﷺ قابلها بالسماحة والعفو، ولم تلبث أن جاءت تعتذر فقبل الرسول اعتذارها وضرب لها أروع الأمثال في أسلوب النصيحة بقوله: «إِنَّمَا ٱلصَّبْرُ عِنْدَ ٱلصَّدْمَةِ الأُوْلَى».

فالأجر إنما يكون عظيماً في بداية المصيبة، حين تكون النفس ملذَّعة بألم الكارثة، لا بعد مضيٍّ سنين عديدة، فإن الإنسان ينساها، ويسلو قلبه عنها، فلا يعود لها في الضلوع أيُّ أثر، وبذلك يقلُّ الأجر، ولا يجدي الصبر، وهذا ما أرشد إليه نبي الهدى والرحمة محمد بن عبد الله في توجيهه الرشيد الحميد.

* * *

الرِّفقُ في النَّصيحَةِ

الحديث الرابع والعشرون

عَنْ أبي هُرَيْرةَ رَضِيَ اللهُ تعالى عنهُ، أنه قَالَ:

بالَ أعْرَابيٌّ في المسْجدِ، فَقَامَ النَّاسُ إليهِ لِيَقَعُوا فيه، فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ:

«دَعُوهُ وأرِيقُوا على بَوْلِهِ سَجْلاً مِنْ مَاءٍ أو ذَنُوباً من ماءٍ، فإنَّما بُعِثْتُم مُيَسِّرينَ ولم تُبعثُوا مُعَسِّرينَ».

(رواه البخاري)

الأبحاث العربية

بال أعرابي : الأعرابي ساكن البادية جمعه اعراب، قال تعالى: ﴿ الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً ﴾ وأما ساكن المدينة فيسمى (الحضَري) وهذا الأعرابي هو (ذو الخويصرة اليماني)·وإنما لم يذكر اسمه حفظاً لكرامته، وستراً عليه.

ليقعوا فيه : أي وثبوا نحوه ليضربوه تأديباً له لأنه انتهك حرمة المسجد.

سَجْلاً : بفتح فسكون أي دلواً من الماء، والسَّجْل مثل الذَّنوب وهو: الدلو الممتلئة بالماء.

بُعثتم ميسرين: أي خلقتم مؤمنين لتكونوا من أهل الرفق واللين، واليسرُ هو اللطف والرفق ولين الجانب، وقد قال ﷺ: «بَشِّرُوا ولاَ تُنَفِّرُوا، ويَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا».

الأبحاثُ النَحْوِيَّة

(ليقعوا فيه): اللام لامِ التعليل، و (يقعوا): مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام التعليل، وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعل، والجار والمجرور متعلق بيقعوا.

فائدة: تُضمر (أن) وجوباً في خمسة مواضع: ١ ـ بعد لام الجحود، ٢ ـ فاء السببية. ٣ ـ واو المعية. ٤ ـ حتى. ٥ ـ «أو» التي بمعنى إلى أو إلاَّ.

وتضمر (جوازاً) بعد لام التعليل.

(بعثتم ميسرين): بُعِثَ فعل ماض مبني للمجهول، و (التاء) نائب فاعل، والميم للجمع و (ميسرين) حال منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم والنون عوض عن التنوين.

الأبحاثُ البَلاغيَّة

١ ـ قوله: (بال أعرابي): جملة خبرية من النوع الابتدائي غرضها إفادة المخاطب الحكم ويسمى «فائدة الخبر».

٢ ـ قوله: (في المسجد): مجاز مرسَل علاقته الكلية فقد أطلق الكل وهو (المسجد) وأراد به الجزء وهو (الناحية) لأن القرينة تدل على ذلك لاستحالة أن يبول الشخص في جميع المسجد، فإطلاق اللفظ الكلي وإرادة الجزئي منه يسمى «مجازاً مرسَلاً».

٣ ـ قوله: «دعوه وأريقوا»: جملة إنشائية الأمر فيها للوجوب، ويوجد في هذه الجملة أمران، والمراد بالأمر هنا «الزجر» والتوبيخ.

٤ ـ قوله: «بعثتم ميسرين»: بين هذه الجملة، والجملة الثانية «ولم تُبعثوا معسرين» طباقٌ يسمى (طباق السّلب) وهو كما عرّفه علماء البلاغة: أن يجمع بين فعلين من مصدر واحد أحدهما مثبت والآخر منفي، مثل قوله تعالى: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ ﴾.

٥ ـ بين لفظتي «ميسّرين» و«معسّرين» جناس يسمى (الجناس الناقص) فقد تغيّر الحرف الثاني فأصبح بدل الياء عين وهو ما يسمى بالجناس الناقص، وفي الجملة أيضاً سجع، وهو من المحسِّنات البديعية.

الشرح الأدبي

ما أجمل الإسلام رسالة الهداية والإصلاح، ودين السماحة واليسر!! وما أسمى تعاليمه الحكيمة التي تدعو إلى الرفق واللين في النصح والإرشاد، وإلى معالجة المشكلات الاجتماعية بطريق الرأفة لا الغلظة، وبأسلوب اللين لا الشدة! ولا عجب فهذا أدب أدّب الله به رسوله الكريم وخاطبه بقوله: ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ وعلمه الرسول صلوات الله عليه لأصحابه حين قال لهم: «إنّما بُعِثْتُم مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ». هذا هو أعرابي يدخل مسجد الرسول ﷺ فيتنحى طائفة منه يقف يتبول، لا يعرف هذا الأعرابي أمور الدين، ولا يدري حرمة المساجد التي أمر الله أن تعظم وتطهر.. يظن هذا الأعرابي أن المسجد كبقية الأماكن، ليس هناك ما يمنع التبول فيه أو قضاء الحاجة، وليس له من عذر إلا أنه جاهل، ويرى أصحاب رسول الله هذا المنظر المؤذي، منظر الأعرابي يتبول في المسجد، فيسرعون نحوه يريدون ضربه وتأديبه، لأنه أساء إلى حرمة بيت الله، ويأمرهم الرسول الرحيم بالكف عنه وعدم إيذائه أو ضربه، لأن الجاهل ينبغي أن يُعلَّم لا أن يضرب، فإن الضرب ينفّر ولا يؤدب، والرسول الكريم يقول: «بَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا، وَيَسِّروا وَلَا تُعَسِّروا» يأمرهم الرسول بعدم التعرض له بمسبة أو أذى، ويكلفهم أن يريقوا على بوله دلواً من ماء تطهيراً للمكان من النجاسة، ثم يدعو

الأعرابي فيعلمه برفق ولين، ويرشده إلى أن هذا بيت من بيوت الله عزّ وجلّ، لا يليق بالمسلم أن يُحدث فيه أذى، أو يعرضه لنجاسة، ويتلطف معه عليه الصلاة والسلام حتى يشعر الأعرابي من نفسه بخطئه ويندم على عمله، ويطلب من الرسول الكريم العفو والسماح، وهنا يُقبل الرسول ﷺ على أصحابه مرشداً لهم إلى طريق الرفق في الدعوة، واللطف في المعاملة، قائلاً لهم: «إنَّما بُعِثْتُم مُيَسِّرِيْنَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِيْنَ».

وقد جاء في بعض الروايات الصحيحة أن ذلك الأعرابي حين أراد الخروج من المسجد ركب ناقته ثم قال: اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً، وذلك لأنه رأى اللطف من الرسول الكريم على خلاف أصحابه حينما هجموا عليه ليضربوه، وسمعه الرسول يقول ذلك فقال له: لقد حَجَّرْتَ ـ أي «ضيقت» ـ وَاسِعَاً يَا أَخَا ٱلْعَرَبِ» يريد منه أن يعمَّ بدعوته لا أن يخصها بنفسه وبرسول الله فقط. . ولو أن المسلمين تمسكوا بهذا الخلق الرفيع ـ من الرفق في الدعوة، وحسن النصح والإرشاد ـ لعاشوا سعداء ولما كانت بينهم مشاحنات، ولوصلوا إلى الغاية المنشودة من أقرب طريق. .

وهكذا يكون أسلوب الدعوة وأسلوب النصح والتذكير وخاصة مع الجاهل، فلله ما ألطف أخلاق الرسول، وما أروع تربيته، وما أحوج المسلمين إلى مثل هذه التربية الحميدة الرشيدة التي تخرج العظماء والأبطال!!.

* * *

جهاد النفس

الحديث الخامس والعشرون

عَنْ (أبي يَعْلى) شَدَّادِ بنِ أوْسٍ رَضِيَ اللهُ تعالى عنهُ، عَنِ النبيِّ ﷺ، أنَّهُ قَالَ:

«الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لما بَعْدَ الْمَوْتِ، والعَاجِزُ مَنْ أتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وتَمنَّى على اللهِ الأمانِيَ».

(رواه الترمذي)

الأبحاث العربية

الكيِّس : العاقل، الحليم، الرشيد، والكياسة: الرزانة. قال الحطيئة:

وَاللهِ مَا مَعْشَرٌ لَامُوا امْرءاً جنباً
مِنْ آلِ لأيِ بنِ شَمَّاسٍ بِأكْيَاسِ

والمراد في الحديث: العاقل الذي يجتنب الموبقات، والاستمتاع بالشهوات.

دان نفسه : أي حاسب نفسه، والديَّان: المحاسب الذي يجازي عباده على أعمالهم، ومنه الحديث: «البِرُّ لَا يَبْلَى، وَالذَّنْبُ لَا يُنْسَى، وَالدَّيانُ لَا يَمُوت، اعْمَلْ مَا شِئْتَ كَمَا تَدِيْنُ تُدَانُ»، أي: كما تفعل تجزى، و (يوم الدين): هو يوم الجزاء.

بعد الموت : أي عمل للآخرة، والمراد أنه عمل صالحاً ينفعه بعد موته، ويؤنسه في وحشة قبره، وما أجمل قول الشاعر:

لاَ يَـنْـفَـعُ الإنْـسَـانَ فِي قَـبْـرِهِ
إلَّا ٱلـتُّـقَـى وَٱلْـعَـمَـلُ ٱلـصَّـٱلِـحُ

العاجز : أي ضعيف التفكير في العواقب، وهو المتهاون والمقصر في واجباته.

أتبع نفسه : أي سار وراء شهواته، وأرخى العنان لنزواته، فهو ممن يتّبع هواه ولا يطيع أمر الله. واتباع الهوى سبب الضلال، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

تمنى الأماني : أي اشتهى على ربه أن ينيله الجنة، ويمنحه الدرجات الرفيعة، مع أنه مقصر في واجباته، منهمك في المعاصي والموبقات، والجنة إنما تكون للعاملين.

الأبحاث النحوية

(الكيّس من دان نفسه): الكيّس مبتدأ وخبره اسم الموصول (مَنْ)، و(نفسه) مفعول به لدان، وجملة (دان نفسه) صلة الموصول. (عمل لما بعد الموت): عمل فعل ماض والفاعل ضمير يعود على الكيس واللام حرف جر (ما): اسم موصول بمعنى الذي في محل جر باللام والجار والمجرور متعلق بعمل، (بعد) ظرف زمان و(الموت) مضافٍ إليه.

الأبحاث البلاغية

١ ـ قوله: «الكَيِّسُ مَنْ دان» جملة خبريّة من الضرب (الابتدائي) والغرض من الخبر تحريك الهمة إلى ما يلزم تحصيله.

٢ ـ قوله: «بعد الموت» كناية عن الدار الآخرة، والاستعداد لها بصالح الأعمال، فما بعد الموت إنما هي الآخرة ويوم الحساب.

٣ ـ قوله: «تمنّى الأماني» فيه من المحسّنات البديعية ما يسمّى بـ(جناس الاشتقاق).

٤ ـ قوله: «الكيِّس من دان نفسه..» وقوله: «والعاجز من أتبع نفسه...» بين هاتين الجملتين من المحسّنات البديعية ما يسمى بـ (المقابلة). وقد تقدم تعريفها والتمثيل عليها.

التعريف براوي الحديث

راوي هذا الحديث هو الصحابي الجليل (شدّاد بن أوس) ويكنى (أبا يعلى) وهو من الأنصار، ومن الشجعان الأبطال، عاش في المدينة المنورة، وكان من أهل العلم والعمل، ومن أهل الحلم والوقار، وهو ابن أخ (حسّان بن ثابت) الشاعر المشهور.. وقد كان رضي الله عنه كثير العمل، واسع المعرفة، حسن العشرة، مات (ببيت المقدس) وهو ابن خمس وسبعين سنة، وقبره باق بظاهر باب الرحمة إلى الآن، وكانت وفاته سنة ثمان وخمسين هجرية، رضي الله عنه وأرضاه.

الشرح الأدبي

في توجيهٍ نبويٍ رائع، وفي أسلوب تربوي رشيد، يضع الرسول صلوات الله وسلامه عليه اللبنة الأولى في تكوين الفرد الصالح، وبناء المجتمع الفاضل، الذي تظلّله الفضيلة، وتغمره السعادة، وتنتظم أفرادَه المحبة والأخوّة، والوئام!!.

إنها تربية الإسلام المجيدة، التي تعتني بالفرد، تعتني بسلوكه وأخلاقه تعتني بنزعاته ورغباته، بميوله واتجاهاته، فتوجهه الوجهة الصالحة، التي تكفل له السعادة في الدنيا، والراحة في الآخرة، وتجعل منه عضواً نافعاً في المجتمع، وإنساناً «مثالياً» يعيش بين إخوانه وأقرانه عيشة الشرفاء، الذين يعرفون ما لهم وما عليهم، فلا يظلمون ولا يعتدون.. ولا يحاولون أن يسلكوا الطريق الملتوية التي يزينها لهم الشيطان!!.

وهكذا ـ في إيجازٍ وروْعة ـ يقسم النبي ﷺ الناس إلى قسمين، ويجعلهم صنفين اثنين:

١ ـ صنف عرف غاية وجوده في هذه الحياة.. فجدّ واجتهد، وكافح

وناضل، وحاسب نفسه على ما قدّمت من أعمال، فزجرها عن الشر، ودفع بها نحو الخير، وسما بها إلى درجات الكمال.. وهذا الصنف من البشر، هم الصفوة، هم الأخيار الأطهار، هم (العقلاء) الذين أدركوا سرّ هذه الحياة، فتزودوا من دنياهم لآخرتهم، ووقفوا عند حدود الله، فكفُّوا جوارحهم عن الآثام والموبقات، وابتعدوا عن المحرمات والشهوات، ونظروا إلى الدنيا نظرة البصير العاقل، الواعي المتدبر، الذي لم تؤثر فيه عواصف المدنيَّة الهوج، ولا أساليبها الماكرة الخادعة.. وهناك أدركوا حقارة الدنيا الفانية، فأقبلوا على الآخرة بصدق وإخلاص، وإيمان ويقين، وأجهدوا أنفسهم في طاعة الله، فكانوا من السعداء الأبرار!.

٢ - والصنف الآخر هم الذين أخطأوا الفهم الصحيح للحياة.. ولم يدركوا سرّ وجودهم فيها، فساروا مع أهوائهم، وعاشوا لشهواتهم، وظنوا الحياة خالدة لهم، فلم يعرفوا من الدنيا إلا التمتع باللذائذ والشهوات، ولم يدركوا منها إلا كما يدرك الحيوان الأعجم من العيش في سبيل الطعام، والشراب، والشهوة، ولسان حالهم يقول:

إنَّمَا ٱلدُّنْيَا طَعَامٌ وَشَرَابٌ وَمَنَامٌ
فَإِذَا مَا فَاتَ هَذَا فَعَلَى ٱلدُّنْيَا ٱلسَّلَامُ

إنهم «عبيد» البطون، و«عبيد» الشهوات، الذين أصبح لهم نسبٌ عريق مع البهائم والحيوانات ﴿ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَٱلنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ ﴾، وصدق الله: ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾!!.

هؤلاء هم الذين يسيرون مع أهوائهم، لا يفكّرون في حساب ولا عقاب، ثم يطمعون في رحمة الله مع أنهم لم يقدموا لآخرتهم شيئاً.. لقد عاشوا لشهواتهم، وعاشوا لبطونهم، لا يعرفون سراً للحياة إلا التمتع بشهواتها الفانية، غير مفكرين بمستقبل أو مصير.. وهؤلاء - لعمر الحق - هم الخاسرون النادمون، الذين فرطوا في جَنْبِ الله، فأساءوا إلى أنفسهم وأوردوها موارد الهلكة.. فيا لهم من بلهاء، ويا لهم من أناسٍ مغفلين!!.

* * *

تربيةُ الأبناءِ

الحديثُ السادسُ والعشرون

عَنْ عَليٍّ كَرَّمَ اللهُ وجهَهُ، أنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ:

«أدِّبُوا أولادَكُم على ثَلاثِ خِصالٍ: حُبِّ نَبِيِّكُمْ، وحُبِّ آلِ بَيْتِهِ، وتِلاوةِ القُرآنِ، فإنَّ حَمَلَةَ القُرآنِ في ظِلِّ عَرْشِ اللهِ، يَوْمَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ مَعَ أنبيائِهِ وأصْفِيَائِهِ».

(رواه الطبراني)

الأبحاثُ العربيّة

أدبوا : الأدب بمعنى التربية الفاضلة والخلق الحميد، قال الشاعر:

كُلَّمَا أدَّبَنِي آلدَّهْرُ
أرَانِي ضَعْفَ عَقْلِي
وَإذَا مَا آزْدَدْتُ عِلْماً
زَادَنِي عِلْماً بِجَهْلِي

وفي الحديث: «أدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي» أي: ربّاني فأحسن تربيتي.

أولادكم : الولد يطلق على الذكر والأنثى، قال تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ آللهُ فِي أَوْلَادِكُم ﴾ وأما الابن فهو خاص بالذكر.

خصال : جمع خصلة وهي السجية والخلة الحميدة، قال ﷺ للأشج: «إِنَّ فِيْكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا ٱللهُ وَرَسُوْلُهُ: الحِلمُ، وَٱلأَنَاةُ».

حملة القرآن : أي حفظة القرآن، العاملون به، المهتدون بهديه وفي الحديث الشريف: «أَشْرَافُ أُمَّتِي حَمَلَةُ ٱلْقُرْآنِ» فالمستمسكون بالقرآن العاملون به هم السادة الأشراف، ولا شرف أعظم من شرف حامل القرآن.

آل بيته : الآل بمعنى الأهل قال (دعبل الخزاعي) يمدح آل البيت:

مَـلامَـكَ فِـي آل الـنَّـبِـيِّ فَـإِنَّـهُـم
أَحِبَّـايَ مَـا عَـاشُـوا وَأَهْـلُ ثِقَـاتِي

وهم أقرباء الرسول وعترته، وفي الحديث: «آلُ مُحَمَّدٍ كُلُّ تَقِيٍّ». وقد أثنى الله على آل البيت بقوله: ﴿ إِنَّما يُرِيْدُ ٱللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُم تَطْهِيْراً ﴾.

أصفياته : جمع صفيّ وهو الحبيب المقرّب، وفي الحديث القدسي: «مَا لِعَبْدِي ٱلْمُؤْمِنِ إِذَا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ ٱحْتَسَبَهُ إِلَّا ٱلْجَنَّةَ». رواه البخاري.

الأبحاث النحوية

(أدّبوا أولادكم): أدّبوا فعل أمر، والواو فاعل، أولادكم مفعول به وهو مضاف. (على ثلاث خصال): الجار والمجرور متعلق بأدّبوا و(خصال) مضاف إليه. (حبّ نبيّكم): حبّ بدل من (ثلاث خصال) و(نبيكم) مضاف إليه. (فإنّ حملة): (إنّ) حرف توكيد ونصب و(حملة) اسمها، والجار والمجرور (في ظل): متعلق بمحذوف خبر إنَّ تقديره: مظلّلون في ظل عرشه. (لا ظلّ إلا ظله): لا: نافية للجنس و(ظلّ) اسمها منصوب، وخبرها محذوف تقديره: موجود أو كائن و(إلا) أداة حصر و(ظله) بدل الخبر. وهذه الجملة مثل (لا إله إلاّ الله) في الإعراب فتنبّه.

الأبحاث البلاغية

١ ـ قوله: «أدِّبوا أولادكم» جملة إنشائية طلبية الغرض منها الإرشاد.

٢ ـ قوله: «آل بيته» الإضافة هنا للتكريم والتشريف مثل: ﴿ نَاقَةُ ٱللَّهِ ﴾. فإنَّ إضافتها إضافة تشريف.

٣ ـ قوله: «حملة القرآن» المراد بهم الحفظة وفيه كناية لطيفة فقد كنّى عن المشتغلين بحفظ القرآن وتلاوته بـ (الحملة) وذلك لشدة ملازمتهم لتلاوته وحفظه والعمل بما فيه.

٤ ـ قوله: «لا ظلَّ إلا ظله» فيه كناية لطيفة فقد كنى عن الحماية والرعاية التي تكون لهؤلاء المحسنين بالظلّ، وقيل: إنه ظلٌّ حقيقي يستظل به المؤمنون يوم القيامة.

الشرح الأدبي

بالتربية السليمة، والأخلاق القويمة، تُبنى الأمم وتشاد الحضارات وتتربى الأجيال الصاعدة، التي تُقيم المدنية والرقي، وتوجد الحضارة والازدهار. ومن أجل إشادة دعائم المجتمع، على أسس متينة كريمة، اهتم الإسلام بتربية الأبناء، وتنشئتهم النشأة الصالحة، التي تجعل منهم رجالاً وأبطالاً، وتدفع بهم إلى المعالي، وإلى محاسن الأمور.

ولقد وجَّه النبي الكريم الآباء إلى تربية الأبناء والعناية بهم وتعويدهم على الفضائل ومكارم الأخلاق، وذلك بغرس بذور الإيمان في قلوبهم، ورعاية جميع شؤونهم، لأن الطفل إذا أُهمل، فسدت أخلاقه، وتلوثت طباعه، وأصبح شخصاً غير مهذّب وغير نافع في الحياة، بل أصبح جرثومة في المجتمع.

١ ـ وأوّلُ ما ينبغي على الوالد فعله أن يعوّد طفله على طاعة الله ومحبته، وتعظيم شعائر الدين، وأن يغرس في نفسه حب الرسول العظيم الذي حقه أعظم من حق الوالدين، وحبُّه ينبغي أن يقدّم على حب الوالد والولد، بل على حب النفس، لأنه سبب لسعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، ولولاه لبقينا في الشقاء

والضلال، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «وَٱلَّذِيْ نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُم، حَتّى أَكُوْنَ أحبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَٱلِدِهِ وَوَلَدِهِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِيْنَ». ومن علامات الإيمان أن يكون الله ورسوله أحبَّ إلى الإنسان من كلّ أحَدٍ في هذه الحياة.

٢ ـ ومن محبة الرسول ﷺ تتولد محبة (آل البيت)، محبة آله وعشيرته، لأن من أحبَّ شخصاً أحبَّ من يلوذ به وينتسب إليه، ولا شك أنَّ آل بيت النبي ﷺ هم أحق الناس بالحب والتقدير، وقد أثنى الله عليهم بقوله: ﴿ إِنَّمَا يُرِيْدُ ٱللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيْرَاً ﴾، فمحبَّتهم محبة للرسول، وتكريمهم تكريم له ﷺ.

٣ ـ ومما ينبغي العناية به، والحرص عليه كل الحرص، أن نعلِّم الطفل تلاوة الكتاب المجيد، وأن نغرس حبه وتعظيمه في قلبه، فبه يتنور المؤمن، وبه يصبح في مراتب أهل الشرف والفضل الذين قال عنهم رسول الله ﷺ: «أشْرَافُ أُمَّتِي حَمَلَةُ ٱلْقُرْآنِ» وقال: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ ٱلْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ».. فهم السادة، وهم القادة، ولهذا ختم عليه الصلاة والسلام الحديث الشريف بقوله: «فَإِنَّ حَمَلَةَ ٱلْقُرْآنِ فِي ظِلِّ عَرْشِ ٱللهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ، مَعَ أَنْبِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ».

وكفى بهذا شرفاً وفخراً لحملة القرآن.. اللهم وفقنا لتلاوته وارزقنا العمل بما فيه، إنك سميع مجيب الدعاء.

* * *

ضياعُ الأمانةِ

الحديث السابع والعشرون

«عَنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ تَعالى عنهُ، أنَّهُ قالَ:

«بيْنما النبيُّ ﷺ يُحَدِّثُ القَوْمَ جاءَهُ أعْرَابيٌّ فقَالَ: متى السَّاعةُ؟ فَمَضَى رسُولُ اللهِ ﷺ يُحَدِّثُ، فَقَالَ بَعْضُ القَوْمِ: سَمِعَ ما قَالَ، فَكَرِهَ ما قَالَ، وقال بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ، حتَّى إذا قَضَى حَدِيثَهُ، قَالَ: أيْنَ السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ؟ قَالَ: هَا أنا يَا رسُولَ اللهِ، قَالَ: إذا ضُيِّعتِ الأمَانَةُ فانْتَظِرِ السَّاعَةَ، قَالَ: وكَيْفَ إضَاعَتُها؟ قالَ: إذا وُسِّدَ الأمْرُ إلى غَيْرِ أهْلِهِ فانْتَظِرِ السَّاعَةَ».

(رواه البخاري)

الأبحاث العربية

بينما : أي في اللحظة التي كان يحدّث فيها القوم ويعظهم.

يحدّث القوم : المراد بالتحديث: الوعظ والتذكير، فقد كان ﷺ يعظ أصحابه ويذكّرهم بين الفينة والفينة، ولا يكثر عليهم خشية الملل والسآمة.

متى الساعة : المراد بالساعة القيامةُ وخراب الدنيا، وإنما سميت القيامة بالساعة

لأنها تأتي كلمح البصر في مدة زمنيّة قصيرة: ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعةِ إلاَّ كلمحِ البَصرِ أو هُوَ أَقْرَبُ ﴾.

لمضى رسول الله: أي استمرّ في حديثه، ولم يردَّ على السائل، تنبيهاً له إلى تعلّم أدب الحديث، وعدم مقاطعة المحدِّث.

كره ما قال : كرّر لفظ القول: (سمعَ ما قالَ، فكره ما قالَ) وذلك لدفع الالتباس، لئلا يوهم أنّ الكراهية كانت للسائل.

ضيّعت الأمانة : المراد بالأمانة كلُّ ما ائتمن الله تعالى عليه عباده من تكاليف شرعية وواجبات دينية. وقد فسّرها الحديث الشريف بإسناد الأمور إلى غير أهلها.

وسّد الأمر : أي أسند الأمر إلى غير أهله وَوُكِلَ إلى من لا يصلح له، كتسليم الجاهل أمور التعليم، وتولية الخائن وظائف الدولة، وإسناد الشؤون العامة إلى من لا يُحسن التدبير كالمرأة، وقد قال ﷺ: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ ولَّوْا أَمْرَهُم امْرأةً» وفي الحديث: «إذَا كَانَتْ أُمُورُكُمْ إلى نِسائِكُمْ فبطْنُ الأرْضِ خيرٌ لكمْ مِنْ ظَهْرِهَا». ومعنى الحديث الشريف: الموت خير لكم من الحياة.

الأبحاث النحوية

(بينما النبيُّ): بينَ ظرف زمان منصوب على الظرفية (وما) زائدة و(النبيُّ) مبتدأ. وجملة (يحدِّث القوم) في محل رفع خبر. (متى الساعة؟): (متى) اسم استفهام في محل رفع خبر مقدم. والسَّاعةُ مبتدأ مؤخر (سمع ما قال) سمع فعل ماض، والفاعل ضمير مستتر يعود على النبي و(ما) اسم موصول بمعنى الذي مفعول به و(قال) صلة الموصول. (أين السائل عن الساعة؟) أين اسم استفهام خبر مقدم و(السائل) مبتدأ مؤخر، و(عن الساعة) جار ومجرور متعلق باسم الفاعل (السائل). وإنما تقدم الخبر على المبتدأ لأن أسماء الاستفهام لها الصّدارة.

(كيف إضاعتها): كيف اسم استفهام خبر مقدّم و«إضاعتها» مبتدأ مؤخر وهو مضاف والهاء مضاف إليه. (إذا وسّد الأمرُ) إذا شرطية غير جازمة و(الأمرُ)

نائب فاعل (لوسِّد) والجار والمجرور. (إلى غير) متعلق بوسّد (فانتظر) الفاء واقعة في جواب الشرط (انتظر) فعل أمر. و (الساعة) مفعول به.

الأبحاث البلاغية

١ ـ قوله: «بينما النبي يحدّث» جملة خبرية من الضرب الابتدائي، والغرض منها (فائدة الخبر) و (بينما) مثل (بينا) من ظروف الزمان و «ما» زائدة.

٢ ـ قوله: (متى السّاعةُ؟) لفظ (الساعة) كناية عن القيامة، وعن نهاية الدنيا، وفناء العالَم، وقد كثر استعمال الساعة مكان القيامة حتى أصبح كأنه حقيقة معلومة.

٣ ـ قوله: (فكره ما قال) تكرار الجملة الفعلية (قال) يفيد الإيضاح ودفع الالتباس والإيهام.

٤ ـ قوله: «ضيِّعتْ الأمانةُ» شبّه التكاليف الشرعية بالأمانة، بجامع وجوب الحفظ والرعاية في كلٍّ، ثم حذف المشبه وصرح بالمشبَّه به، على سبيل (الاستعارة التصريحية).

٥ ـ قوله: «إذا وسّد الأمر إلى غير أهله» كناية عن إسناده إلى غير الأكفاء ذوي الجدارة.

الشرح الأدبي

في مدرسة النبوّة، وعلى يدي النبي الهادي الكريم، والمربي الأعظم ﷺ تلقى أصحاب رسول الله علومهم، ونشأوا تلك النشأة الفاضلة، بعد أن غرفوا من بحر الكمال، ونهلوا من معين العلم، فكانوا نجوماً زاهرة، وبدوراً ساطعة، وتخرجوا من مدرسة النبوّة يحملون للعالم مشاعل الهداية والنور، ويرشدونهم إلى طريق الخير والسعادة!.

من أين تخرّج أصحاب رسول الله؟ وأين درسوا، ومن أي جامعة كبيرة حملوا هذه الشهادات العالية الرفيعة، التي أصبحوا بها أساتذة الدنيا وأساطين العلم والثقافة؟! إنهم درسوا على يدي النبي الكريم، وتلقوا علومهم من (فم) النبوّة، وتخرجوا من (المسجد) الذي كان - ولا يزال - أكبر مصدر للإشعاع العلمي، وأعظم مركز للعلوم والعرفان، فمنه تخرّج العلماء والأدباء، ومنه ظهر الشجعان والأبطال، وقد صدق من قال:

أَطْلَعَ ٱلْمَسْجِدُ ٱلْكَرِيْمُ أُنَاسَاً أَنْتَجَتْهُمْ مَدَارِسُ ٱلْقُرْآنِ
صَقَلَتْهُمْ يَدُ ٱلنَّبِيِّ فَأَضْحَوْا غُرَّةَ الدَّهْرِ في جَبِيْنِ ٱلزَّمَانِ

هذا هو رسول الله ﷺ يجمع أصحابه في المسجد، ويجلس إلى جانبهم كواحد منهم ليعظهم ويذكرهم ويرشدهم إلى ما فيه سعادة الدنيا والآخرة، ويدخل أعرابي فيرى رسول الله يحدّث أصحابه فيقف يستمع إلى هديه الشريف، ثم يلقي عليه سؤالاً قبل أن يتمم الرسول ﷺ كلامه، يسأله عن الساعة يريد أن يعرف أحوالها ويظهر من سؤاله أنه كان مشغول البال والفكر بأمر الساعة وأمر القيامة، ولكنّ الرسول عليه أفضل الصلاة والتسليم لم يجبه، وبقي متابعاً لحديثه، وهنا ظنّ بعض الصحابة أنّ الرسول الكريم لم يسمع سؤاله، والبعض الآخر يقول: إن الرسول قد سمع كلامه، ولكنّه كره أن يجيبه لأنه لم يتمم بعد حديثه. ويستمر الرسول في حديثه حتى إذا انتهى منه التفت إلى أصحابه يسألهم أين السائل عن الساعة؟ فيجيبه الأعرابي: ها أنا ذا يا رسول الله، أي ها أنا حاضر بين يديك أسمع لكلامك، وكلّي انتباه إلى ما تقول، فيجيبه الرسول ﷺ بتلك الكلمة الرائعة الجامعة: «إِذَا ضُيِّعَتِ ٱلأَمَانَةُ فَٱنْتَظِرِ ٱلسَّاعَةَ»، وحقاً إنها لكلمة هادفة، وحكمة بالغة من جوامع كَلِمه ﷺ، فالأمانة إذا ضاعت، والمسؤولية إذا فقدت، والأمور إذا تقلّدها الجهّال، وأصبحت الحياة فوضى، فإن ذلك أكبر برهان على قرب قيام الساعة ولقد أحسن من قال:

لا يصلحُ الناسُ فوضى لا سَرَاة لهمْ ولا سَرَاةَ إذا جُهّالُهُمْ سَادُوا

تَبْقى الأمورُ بأهلِ الرأيِ ما صَلحت   فإنْ تَولَّتْ فبالأشْرارِ تَنْقَادُ

فالأعمال إذا تسلّمها الأغرار الجهال، ومقاليد الحكم إذا أصبحت بيد الأشرار والفجار، فسلام على الدنيا وسلام على أهلها، ولقد صدق المصطفى الهادي البشير حين قال:

«إذَا كانَ أمراؤكُمْ شِرَارَكمْ، وأغنياؤكُم بخلاءكُمْ، وأمورُكمْ إلى نسائِكمْ، فبطنُ الأرضِ خيرٌ لكمْ منْ ظَهْرِهَا».

* * *

مَوْعظَةُ النِّسَاءِ

الحديث الثامن والعشرون

عَنْ عبدِاللهِ بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُما، أنَّ رسُولُ اللهِ ﷺ قالَ:

«يا مَعْشَرَ النِّساءِ تَصَدَّقْنَ وأكثِرْنَ من الاسْتِغْفارِ، فإني رأيْتكنَّ أكثَرَ أهلِ النَّارِ، فقَالتْ امْرأةٌ منهنَّ جَزْلَةٌ: وما لنَا يا رَسُولَ اللهِ أكثر أهلِ النَّارِ!! قالَ: تُكثِرْنَ اللَّعْنَ، وتَكْفُرْنَ العَشِيرَ.. ومَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أغلبَ لِذي لُبٍّ مِنْكنَّ، قَالتْ يا رسُولَ اللهِ: وما نُقصَانُ العَقْلِ والدِّينِ؟ قالَ: أمّا نُقصانُ العقلِ فشهادةُ امرأتَيْنِ تعدِلُ شهادةَ رجُلٍ، فهذا مِنْ نُقصانِ العَقْلِ، وتمكثُ اللَّياليَ ما تُصَلِّي وتُفْطِرُ في رَمَضانَ، فَهذَا مِنْ نُقْصانِ الدِّينِ».

(رواه البخاري وابن ماجه)

الأبحاث العربية

يامعشرالنساء : المعشر: الجماعة. قال تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾ وفي الحديث: «يَا مَعْشَرَ ٱلشَّبابِ مَنْ ٱسْتَطَاعَ مِنْكُمُ ٱلْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ...» وهو مفرد في اللفظ ولكنه جمع في المعنى قال الأزهري: المعشر مثل النفر، والقوم، والرهط، كلُّها معناها الجمع، ولا واحد لها من لفظها، ويجمع المعشر على معاشر فهو

جمع الجمع، قال ﷺ: «نَحْنُ مَعَاشِرَ ٱلأَنْبِيَاءِ لاَ نُورثُ...» الحديث.

رأيتكُنّ : أي علمتكن أكثر أهل النار (فرأى) هنا قلبية، وليست بصرية، وجاء في رواية البخاري (أُريتُكنّ) بدل (رأيتكن) فتكون حينئذ رؤيا منامية رآها النبي ﷺ في نومه.

امرأة جَزْلة : قال ابن الأثير: امرأة جَزْلة: أي ذات رأيٍ وذات شجاعة، ويجوز أن يكون المعنى: ذات كلام جَزْل أي قوي شديد.

تكثرن اللعن : اللعن في اللغة الشتم والسب، والمراد به هنا الطرد من رحمة الله قال تعالى لإبليس: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ وفي الحديث: «مَن ٱدَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيْهِ، أَوِ ٱنْتَسَبَ إِلَى غَيْرِ مَوَالِيْهِ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ ٱللهِ وَٱلْمَلاَئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِيْنَ». فالمرأة من عادتها إكثار الشتم واللعن حتى لأولادها.

تكفرن العشير : المراد بالكفر هنا جحود نعمة الزوج، و(العشير) من العشرة وهي الصحبة، قال تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾، وسمي بالعشير لأنه يعاشر زوجته وتعاشره. قال (الفراء): ويجمع العشير على (عشراء) كجليس وجلساء، ولكنّ العرب تكره هذا الجمع لئلا يشابه قولهم (ناقة عشراء) ويستبدلونه بقولهم (مُعاشِروك، وعَشِيروك).

لذي لب : المراد بذي اللب: الرجل العاقل الحازم، واللب: هو قلب الثمرة وهو أفضل ما فيها، ويطلق على العقل لأنه أفضل ما في الإنسان، قال تعالى: ﴿ فَٱعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي ٱلأَبْصَارِ ﴾ وجاء في رواية البخاري ما يدل على صورة كُفْرانِ المرأة وجحودها لنعمة الزوج: «لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ ٱلدَّهْرَ ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئاً قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْراً قطُّ».

ناقصات عقل : العقل ضد السفه والحماقة، وهو مأخوذ من (عقال الناقة) لأنه يعقل

صاحبه أي يحبسه عن السفه والجهل، ولهذا قال العرب: عقَلَ الدواء بطنه، أي أمسكه عن الانطلاق.. قال العيني: (والعقل، والحِجى، والنُهى) كلها متقاربة في المعنى، قال تعالى: ﴿ إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾. والمراد بنقص العقل خفته، وعدم التصرف السليم، وذلك بسبب (العاطفة) وتغلبها عند المرأة، بخلاف الرجل فإن عقله يغلب عاطفته، قال الشاعر:

ذُو ٱلْعَقْلِ يَشْقَى فِي ٱلنَّعِيْمِ بِعَقْلِهِ
وَأَخُو ٱلْجَهَالَةِ فِيْ ٱلشَّقَاوَةِ يَنْعَمُ

تمكث الليالي: أي تلبث الأيام والليالي بدون صلاة ولا صيام بسبب الحيض أو النفاس.

الأبحاث النحوية

(رأيتكنَّ أكثرَ): رأى تنصب مفعولين لأنها ليست بصرية و (الكاف) الضمير مفعول أول و (أكثر) مفعول ثانٍ. قال ابن مالك:

ٱنْصُبْ بِفِعْلِ ٱلْقَلْبِ جُزْأَيِ ابْتِدَا ... أَعْنِي رَأَى، خَالَ، عَلِمْتُ، وَجَدا

(امرأة جزلة): امرأة فاعل وجزلة صفة لها، وصفةُ المرفوع مرفوع. وجملة (تكثرن اللَّعن): مقول القول، (من ناقصات): مِنْ زائدة و (ناقصات) مفعول أول، و (أغلبَ) مفعول ثانٍ وهو أفعل تفضيل.

فائدة: يشترط في (مِنْ) الزائدة أن يسبقها نفي أو استفهام، وأن يأتي بعدها نكرة قال ابن مالك:

وَزِيدَ فِي نَفْيٍ وَشِبْهِهِ فَجَرّ ... نَكِرَةً كَمَا لِبَاغٍ مِنْ مَفَرّ

الأبحاث البلاغية

١ - قوله: «أكثِرن الاستغفار، رأيتكن أكثر أهل النار» فيه من المحسِّنات البديعية ما يسمى بـ (السَّجع) وقد تقدَّم تعريفه وشرطه فيما سبق.

٢ ـ قوله: «تكثرن» و«تكفرن» بينهما من المحسِّنات البديعيَّة ما يسمى بـ (الجناس الناقص) وذلك لاختلاف بعض الحروف فيه.

٣ ـ قوله: «لذي لبٍّ» كناية لطيفة فقد كنّى عن الرجل الحازم البصير بذي اللُّب، فهو كناية عن (موصوف) وقد جاء التصريح بذكر الرجل في رواية البخاري الأخرى: «ما رأيتُ من ناقصاتِ عقلٍ ودين أذهبَ للُبِّ الرجلِ الحازمِ منكنَّ».

٤ ـ قوله: «أما نقصان العقل...» إلخ، فيه من المحسِّنات البديعية ما يسمى بـ (التقسيم) وهو أن يذكر متعدد، ثم يضاف إلى كل قسم ما له على جهة التعيين، مثل قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَت ثَمودُ وعَادٌ بالقارِعَةِ، فأمَّا ثَمودُ فأُهْلِكوا بالطَّاغِيةِ. وأمَّا عادٌ فأُهْلِكوا بريحٍ صَرْصَرٍ عاتية ﴾ وهنا جمع بين (العقل والدين) ثم أضاف إلى كلٍّ ما يخصّه من شواهدِ النَقص.

الشرح الأدبي

ليس من شك في أنَّ النساء شقائق الرجال، وعلى كواهلهنَّ تُبنى الأجيال وتقوم المجتمعات، والإسلام أول من نادى بتحرير المرأة من الظلم والطغيان، وأقامها إلى جانب الرجل معززة مكرمة، موفورة الكرامة، وامتنَّ على الإنسان بأن خلق له من جنسه شريكة الحياة، تواسيه في السراء والضراء، وتبادله الحب والعطف، وتدفع عنه قسوة العيش، ومرارة العذاب، فقال عزَّ من قائل: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً... ﴾ ولكنَّ المرأة التي خلقت لتكون (جنة) قد تكون (جحيماً) والمرأة التي هي السبب الأول في نعيم الرجل قد تكون سبباً في شقائه.. وذلك بسبب طغيانها وتمردها، فهي نور وظلام، وجنة وجحيم، وسعادة وعذاب، فهي تستطيع أن تجعل حياة الرجل سعادة أو شقاوة، وتستطيع أن تذيقه طعم النعيم، أو طعم الجحيم!.

والرسول عليه الصلاة والسلام بهذا التوجيه النبوي الرشيد الذي يصل إلى سويداء القلب، والذي يتناول النفس من جوانبها ويسبر أعماقها، يعالج ـ بدقة وحكمة ـ هذا الانحراف والشذوذ الموجود عند الكثيرات من النساء كأنه فطرة أو

طبيعة، ويخاطب فيهن العاطفة الرقيقة التي ستحرك فيهن جذوة الإيمان.. أخرج البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ خرج في يوم فطر أو أضحى، فمرَّ على النساء فوعظهن وذكّرهن، وكان في ضمن توجيهه الرشيد لهن أن قال: «يَا مَعْشَرَ ٱلنِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ وَأَكْثِرْنَ مِنَ ٱلاسْتِغْفَارِ، فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ ٱلنَّارِ...». وبهذه الكلمات القلائل تحركت نفوسهن نحو الخير وأشفقن من عذاب الله الذي أخبرهن به الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام.. فقالت امرأة منهن ـ جريئة ذات رأي وحصافة، وذات منطق وإدراك ـ: وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ وهو سؤال تبدو عليه علائم الحذر والإشفاق، وليس سؤال تعنت أو اعتراض، إنه سؤال المتفهم البصير، الذي يريد أن يعرف الحق ليتّبعه، ويسير على ضوئه ليستنير له الطريق، وهنا وضّح لها الرسول عليه الصلاة والسلام سبب شقاء النساء وسبب هذا البلاء الذي أصابهن وهو (دخول النار) وهو سبب منطقي معقول حيث قال: «تُكْثِرْنَ ٱللَّعْنَ وَتَكْفُرْنَ ٱلْعَشِيْرَ» أفليست هذه طبيعة النساء بوجه عام؟ أو ليس هذا حقيقة عند كل امرأة حتى الصالحات منهن؟ جحود لنعمة الزوج، وإنكار لإحسانه، وإكثار من اللعن والشتائم حتى على أولادهن.. وكلُّ ذلك من تلاعب العاطفة بهن، وتأثرهن بحكم تغلب العاطفة، ولقد وضّح عليه الصلاة والسلام هذا المعنى في حديث آخر حيث قال: «لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئاً قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْراً قَطُّ».

ثم يمضي عليه الصلاة والسلام في بيان حقيقة واقعية وهي: أنَّ هذه المرأة الضعيفة، مع ضعفها وعجزها، وعدم استطاعتها للوصول إلى منزلة الرجل من حيث القوى الجسمانية والعقلية، مع ذلك فإنها توقع الرجل في شباكها وتتغلب عليه بدهائها، فهي أقوى من الرجل في ميدان الدهاء والتأثير: «وَمَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِيْنٍ اغْلَبَ لِذِيْ لُبٍّ مِنْكُنَّ» إنها حقيقة ملموسة، وأمر من قديم الزمن معلوم، فمن الذي أثر على (آدم) عليه السلام حتى أكل من الشجرة غير حواء؟.

ومن الذي زَجَّ بيوسف الصدّيق في غياهب السجن غير مكر النساء؟! وصدق الله: ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيْمٌ ﴾!.

وهنا نقطة هامة ينبغي التنبه لها وهي أن المرأة ليست بنصف عقل الرجل كما يدعي بعض أعداء الإسلام وينسبون ذلك إلى رسول الله وحاشاه، فالرسول الكريم لم يقل المرأة بنصف عقل وإنما قال: «نَاقِصَاتُ عَقْلٍ وَدِيْنٍ» وفرقٌ كبير في التعبير بين اللفظين، والنقص أمر نسبي وهو إنما جاء من تغلب العاطفة على المرأة.

فالرجل يتغلب عقله على عاطفته، والمرأة تتغلب عاطفتها على عقلها، وهذا من حكمة الله عزّ وجلّ فلولا العاطفة القوية عند النساء لما عاش طفل ولا تربى وليد، وتربية الأطفال تحتاج إلى عاطفة قوية لا إلى فلسفة عقلية، والعاطفة تتأرجح وتتبدَّل في كل وقت، ولهذا تقول المرأة للرجل: «مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرَاً قَطُّ» وإنها لكلمة ثقيلة تدل على نكران الجميل، والله الموفق والهادي سواء السبيل.

* * *

مِن مُعجِزاتِ النُّبوَّة

الحديث التاسع والعشرون

عَنْ ثَوْبَانَ رضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ:

«إنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ فرَأَيْتُ مَشارِقَهَا ومَغَارِبَها، وإنَّ مُلْكَ أُمَّتي سَيَبْلُغُ ما زُوِيَ لي مِنْهَا، وأُعْطِيتُ الكَنْزَينِ: الأَحْمَرَ، والأَبْيَضَ، وإنّي سَأَلْتُ ربّي لِأُمّتِي ألاّ يُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عامّةٍ، وألاّ يُسلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوّاً مِنْ سِوى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبيحَ بَيْضَتَهُمْ، وإنَّ ربِّي قَالَ لي: يا مُحمّدُ، إنّي إذا قَضَيْتُ قَضاءً فإنَّهُ لا يُرَدُّ، وإنّي أعْطَيْتُكَ لأمتِكَ ألاّ أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عامّةٍ، وألاّ أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوّاً مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبيحَ بَيْضَتَهُمْ ولَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطارِهَا، حتّى يَكُونَ بَعضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضاً، ويَسْبي بَعْضُهمْ بعضاً».

(رواه مسلم)

الأبحاث العربية

زوى الأرض: أي جمع الأرض وطواها حتى أصبحت مرئيّة أمامه كالبساط المفروش، يحيط ببصره بها. وفي ذلك بشارة من الله عزّ وجلّ لرسوله بانتصار الإسلام، وفتح البلدان حتى يعمّ أطراف المعمورة.

مشارقها ومغاربها: جمع مشرق ومغرب، وهو مكان شروق الشمس وغروبها.. وإنما جمعت باعتبار أن لكل بلدٍ مشرقاً ومغرباً، أو باعتبار طلوعها وغروبها في الشتاء والصيف.

الكنزين : المراد بهما (الذهب والفضة) لأنهما العملة المستعملة في كل زمان، والكنز هو: ما يكنزه الإنسان ويدخره من الأموال، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.

سنة عامة : أي بقحط وجدب يهلك عامة المسلمين، وذلك بأن تمسك السماء عن المطر فلا تنبت الأرض شيئاً.. وتطلق السنة والسنون على (القحط والجدب) قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ... ﴾ وفي الحديث: «اللهمَّ ٱجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِيْنَ كَسِنِي يُوسُفَ».

يستبيح بيضتهم: أي يستأصلهم بالإهلاك فلا يبقي منهم أحداً، وبيضة الشيء أكثره ومعظمه، ومعنى الحديث: لا يسلّط عليهم عدوهم فيفنيهم ويستأصلهم من الوجود.

يسبي : يقال: سباه إذا استرقه، والمعنى: يسترقُّ المسلم أخاه المسلم فيجعله كالرقيق عنده.

الأبحاث النحوية

(إن الله زوى): إنَّ حرف توكيد ونصب ولفظ الجلالة اسمها والخبر هو جملة (زوى الأرض). (إنَّ ملك أمتي): إنَّ حرف توكيد ونصب و (ملك) اسمها والخبر هو جملة (سيبلغ). و (أعطيت الكنزين): أعطيت فعل ماض مبني للمجهول وهو ينصب مفعولين، والتاء نائب فاعل و (الكنزين) مفعول ثانٍ. (الأحمر والأبيض): الأحمر بدل من الكنزين والأبيض معطوف عليه. (حتى يكون بعضهم): حتى حرف غاية ونصب، (يكون) مضارع متصرف من (كان) الناقصة، (بعضهم) اسمها وهو مضاف، والخبر جملة (يهلك بعضاً).

الأبحاث البلاغية

١ ـ قوله: «إن الله زوى» جملة خبرية من الضرب الطلبي لأنها مؤكَّدة بـ (إنّ) والمراد من الخبر إفادة المخاطب الحكم الذي تضمنته الجملة (فائدة الخبر).

٢ ـ قوله: «مشارقها ومغاربها» فيه من المحسِّنات البديعية ما يسمى بـ (الطباق) وهو من نوع (طباق الإيجاب) وهو بين لفظ (المشارق) ولفظ (المغارب).

٣ ـ قوله: «الكنزين» فسره بعضهم بالذهب والفضة فيكون حقيقة، وفسره بعضهم بأنه (بلاد الروم) و (بلاد الفرس) فيكون كناية وهو (كناية عن موصوف).

٤ ـ قوله: «بسنة عامة» كناية عن القحط والجدب فهو (كناية عن صفة).

٥ ـ قوله: «يستبيح بيضتهم» كناية عن الاستئصال والإهلاك فهو (كناية عن صفة).

٦ ـ قوله: «قضيتُ، قضاءً» فيه من المحسِّنات البديعية ما يسمى بجناس (الاشتقاق) وجناس الاشتقاق مثل قول الشاعر:

فَيَا دَمْعُ أَنْجِدْنِي عَلَى سَاكِنِي نَجْدِ

التعريف براوي الحديث

ثوبان هو مولى رسول الله ﷺ وهو صحابي مشهور يقال: إنه من العرب من بني حمير، وقيل: من السراة اشتراه النبي ﷺ ثم أعتقه فخدمه إلى أن مات ثم تحوّل إلى الرملة ثم حمص ومات بها سنة /٥٤/ هجرية. وروى ابن السكن قال: لقيت ثوبان فحدثني أن رسول الله ﷺ دعا لأهله فقلت: أنا من أهل البيت، فقال في الثالثة: مَا لَمْ تَقُمْ عَلَى بَابٍ أَوْ تَأْتِ أَمِيْرَاً تَسْأَلُهُ. وروى أبو داود، عن ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ: مَنْ يَتَكَفَّلُ لِيْ أَنْ لَا يَسْأَلَ النَّاسَ وَأَتَكَفَّلُ لَهُ بِٱلْجَنَّةِ؟ فقال ثوبان: أنا، فكان لا يسأل أحداً شيئاً. (الإصابة في معرفة أسماء الصحابة).

مع هذه الطاقة الجميلة من هدى سيد المرسلين ومع الغرر والدرر التي نطق بها النبي الأمي. . ومع معجزاته الخالدات التي أخبر عنها الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى، تأتي البشائر تتلوها مواكب النصر لهذا الدين العظيم. . فالرسول صلوات الله وسلامه عليه يبشر أمته بأن الله عزّ وجلّ سيفتح عليهم البلاد، وبأن دينه سينتشر في مشارق الأرض ومغاربها، وأن أمته ستملك أكثر المعمورة ويدخل الناس في دين الله أفواجاً، وأكرِمْ بهذه البشارة العظيمة التي بشر الرسول الكريم بها أمته! فما هذه الخيرات، وما هذه الفضائل، إلا من فيض هذا الدين العظيم، ومن بركاته التي لا تنقطع ولا تنضب على مر الأيام ولا تذهب على كرِّ السنين، فلقد أكرم الله هذه الأمّة فجعلها خير الأمم، وجعل دينها خير الأديان، وأنزل عليها أشرف كتاب وقال وهو أصدق القائلين: ﴿ كُنتُم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ. . . ﴾ الآية.

ولقد تحققت بشارة الرسول ﷺ فملك المسلمون مشارق الأرض ومغاربها، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، ففتحوا البلاد وسادوا العباد، وأوصلوا هذا النور الإلّهي إلى آفاق العالم، يحملون راية الحق، ويرفعون لواء العدالة، ويرشدون العالم إلى سواء السبيل ويخرجون الناس من الظلمات إلى النور. ويصدق هؤلاء المسلمين وبإخلاصهم لله ورسوله وبجهادهم وصبرهم وتضحيتهم، كان النصر لدعوة الإسلام وكان الفتح والعزة والسيادة للمسلمين، ولقد بلغت الفتوحات الإسلامية ذروة الكمال، ووصلت قمة المجد، حين اكتسحت أعظم دولتين، وأكبر امبراطوريتين، هما دولة (الفرس) ودولة (الروم). . اللتان كانتا تتقاسمان زعامة العالم، وتمدان نفوذهما على أوسع المناطق وأكثر البلاد، وتكاملت البشارة، وتزايدت الفرحة بالقضاء على هاتين الدولتين الكبيرتين العاتيتين، وحلّ الإسلام في ربوعهما وتحقّق قول الرسول الأعظم: «وَأُعْطِيْتُ ٱلْكَنْزَيْنِ ٱلأَبْيَضَ وَٱلأَحْمَرَ» وما هذان الكنزان الثمينان إلا رمز وإشارة إلى تملُّك أمة محمد ﷺ لهاتين الدولتين ولأملاكهما حيث كان الذهب هو العملة السائدة في بلاد الروم والفضة هي العملة السائدة في بلاد الفرس. . أفليس في هذا معجزة لمحمد بن عبدالله الذي أخبر

وبشّر بأن أمته ستملك أقاصي الدنيا وأن أعظم الدول ستدخل في دين الله؟!.

وبعد ذلك توجهت رأفة النبي الكريم ورحمته بأمته إلى أن يطلب من ربه أن يحفظ المسلمين من عدوهم فدعا لهم بدعوتين عظيمتين كريمتين.

وأكرِمْ بهما من دعوات صالحات!!.

دعا لهم ألاّ يسلِّط عليهم عدواً من غيرهم فيهلكهم، ويستأصل شأفتهم ويجعلهم أثراً بعد عين، ويقضي عليهم القضاء المبرم.. كما دعا ربه ألاّ تهلك أمته بالقحط والجدب كما هلك بعضُ الأمم السابقين حيث أخذهم الله بسنين عجاف وأهلكهم بالجوع والعطش.

وهذه الدعوات الطاهـرات إن دلت على شيء فإنما تدل على كمال شفقته ﷺ على أمّته ورحمته بهم... ولا عجب فقد قال رب العزة جل جلاله ممتناً على هذه الأمة ببعثة السراج المنير: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ وقد استجاب الله دعاءه فمنع عنهم الهلاك بتسليط الأعداء، أو إهلاكهم بسبب القحط والجدب، ولكنه أخبره بأن صيحة الفناء، والدمار سيأتيهم من أنفسهم حيث يقتل بعضهم بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً، وهذا ما ظهرت بعض آثاره في هذا الزمان، وإنا لله وإنا إليه راجعون!.

* * *

أَخبارُ الأرضِ

الحديثُ الثلاثون

عَنْ أبي هُرَيْرةَ رضيَ اللهُ عنهُ، أنَّ رسول الله ﷺ قَرَأ الآية الكريمة:

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أخْبَارَها ﴾ . . ثُمَّ قال:

«أتَدْرُونَ ما أخْبارُها؟ قَالوا: اللهُ ورسُولُهُ أعْلمُ، قالَ: أخْبارُها أن تَشْهدَ على كُلِّ عَبْدٍ أوْ أمَةٍ بمَا عَمِلَ على ظَهْرِهَا، تَقُولُ: عَمِلْتُ في يَوْمِ كذا: كذا وكذا، فهذه أخبارها. . .».

(رواه الترمذي)

الأبحاثُ العربيّة

تحدِّث أخبارها: أي تنبيء عمّا وقع على ظهرها من خير أو شرّ، ومن صالح أو طالح. . والأخبار جمع خبر، وهو الحَدَث، أو الأمر الذي يقع من الإنسان أو عليه، سواءً كان خيراً أو شراً قال الشاعر:

بَيْنَـا يُـرى ٱلإنسَـانُ فِيهـا مُخْبِـرَاً
فَـإذَا بِـهِ خَـبَـرٌ مِـنَ ٱلأخْـبَـارِ

عبد أو أمة : المراد به الذكر والأنثى، وليس المراد بالعبد المملوك الذي يقابل الحرّ، ولا بالأمة المملوكة التي تقابل الحرّة.

الأبحاث النحوية

(قرأ يومئذ): قرأ فعل ماضٍ، والفاعل ضمير مستتر يعود على الرسول، وجملة (يومئذٍ تحدّث أخبارها): كلمة قصد لفظها في محل نصب مفعول به لـ (قرأ) أي قرأ هذه الآية. (أتدرون ما أخبارها؟): الهمزة للاستفهام و (تدرون) مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم و (الواو) فاعل، و (ما) استفهامية في محل رفع مبتدأ، و (أخبارها) خبر المبتدأ، وجملة (ما أخبارها) مفعول به لفعل تدرون.

الأبحاث البلاغية

١ - قوله: «يومئذٍ» التنوين يسمى تنوين العوض، وهو هنا عوض عن كلمة وهي لفظ (القيامة) أي يوم القيامة ففيه هنا مجاز بالحذف ويسمى مجازاً مرسلاً مثل ﴿واسأل القرية﴾ أي أهل القرية.

٢ - قوله: «أتدرون ما أخبارها؟» جملة إنشائية استفهامية وقد خرج الاستفهام عن غرضه الأصلي إلى غرض آخر وهو (التشويق) والترغيب لمعرفة ما يُلقى على الإنسان، وفي هذا الأسلوب إثارة لانتباه السامع.

٣ - قوله: «كذا وكذا» فيه كناية لطيفة فقد كنّي عن الأمر الذي فعله الإنسان في الدنيا بهذه الكناية (كذا وكذا) ومثله قوله: «عَمِلَتْ فِي يَوْمِ كذا» أي في اليوم الفلاني فهو كناية أيضاً.

الشرح الأدبي

هذه الأرض كم شهدت على ظهرها من ظلم.. وكم مرّ عليها من أحداث، وكم تتابعت عليها المشاهد والصور.. من صالح أو طالح، ومن خير أو شر. ثم نسي أهلها ما صنعوا عليها ولكنّها بقيت محتفظة بكل ما وقع فوق ظهرها، وسوف تحدّث بأعمال الناس يوم القيامة ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً ﴾. وسوف تشهد في ذلك

اليوم الرهيب على كل إنسان بما جنته يداه!. عجيب أمر هذا الإنسان وغريب شأنه، يظن أنه إن فعل المنكر خفية، أو أتى بالقبيح مستتِراً، بعيداً عن الناس وبعيداً عن نظراتهم الجارحة فقد نجا من العذاب، وأفلت من الملامة.. وما يدري المسكين أنّ المكان الذي ارتكب فيه المعصية سيشهد عليه، وأنّ الأرض التي مشى عليها ووطئها بقدميه ستشهد على عمله وتخبر بما فعل في تلك اللحظات التي كان غافلاً فيها عن ربه، والتي قاده إليها الشيطان، فهذا هو رسول الله، الصادق المصدوق، الذي لا يقول إلا حقاً، ولا يتكلم إلا صدقاً، يخبر عن تلك الحقيقة التي نسيها الإنسان، وهي أن المكان والزمان، وأن الأشهر والأيام، سوف تكون شاهدة على عمل الإنسان يوم القيامة، وليس هذا بمستحيل على قدرة الله عزّ وجلّ، فالذي أنطق الإنسان سوف ينطق الجماد والنبات وينطق الحواس والأعضاء، وصدق الله: ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾. فرسول الله صلوات الله عليه قرأ يوماً من الأيام هذه السورة الكريمة حتى وصل إلى قوله: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ فسأل أصحابه الكرام سؤال المنبِّه المشير إلى قدرة الله: «أَتَدْرُون مَا أَخْبَارُها»؟ وردّ عليه أصحابه ردّ أدب ووقار فقالوا: (الله ورسوله أعلم) وهنا يبين لهم صلوات الله عليه تلك الحقيقة التي ينبغي أن يضعها الإنسان نصب عينيه، وهي أن الإنسان لن يضيع من عمله شيء، فالأرض تشهد بما صنع، والطبيعة تنطق بما عمل، وسيكون الجزاء على قدر العمل.

فما أحمق ذلك المغرور الجاهل، الذي يعمل الشر بعيداً عن الناس ظناً منه أنه سيفلت من عذاب الله وينجو من حسابه؟.

* * *

حقيقة الحياء

الحديث الحادي والثلاثون

عَنْ أبي هُرَيْرةَ رضيَ اللهُ عنهُ، أنَّ رسول الله ﷺ قالَ:

«استَحيُوا من اللهِ حَقَّ الحَياءِ، قَالُوا: إنَّا لَنَسْتحيي من اللهِ والحمدُ للهِ! قالَ: لَيْسَ ذَاكَ، مَنْ اسْتَحيا من اللهِ حَقَّ الحَياءِ فَلْيحفَظ الرَّأسَ وما وعى، ولْيَحْفظ البطْنَ وما حَوَى، ولْيَذكر الموْتَ والبِلى، ومَنْ أرادَ الآخرةَ تَركَ زينةَ الحياةِ الدُّنيا. مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقدْ اسْتَحيىٰ من اللهِ حَقَّ الحياءِ».

(رواه الترمذي)

الأبحاث العربية

استحيوا : الحياء هو انقباض النفس عن إتيان أمر مخافة الذم، وهو نوعان: حياء ممدوح، وحياء مذموم.. فالممدوح مثل أن يترك القبيح حياءً من الله، والمذموم مثل أن يترك المطالبة بحقوقه، أو يترك السؤال عن أمور دينه وفي حديث عائشة: «رَحِمَ ٱللهُ نِسَاءَ ٱلأَنصَارِ مَا مَنَعَهُنَّ ٱلحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِي ٱلدِّينِ، قال الله تعالى: ﴿ وَاللهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾».

الـرأس وما وعى: المراد ما حواه الرأس وما اجتمع فيه من البصر، والسمع، والكلام، فلا يسمع إلى فحش ولا يتكلم بهُجْر، ولا ينظر إلى محرّم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾.

البطـن وما حوى: المراد يحفظ نفسه مَن أكل الحرام ويحفظ فرجه من الفاحشة والزنى، لأنّ البطن يحوي شهوة الطعام، وشهوة الجنس، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هم لفروجهم حافظون ﴾.

البِلَى : بكسر الباء وفتح اللام بمعنى الفناء والهلاك.

زينة الدنيـا : المراد زخرفها وبهرجها الخادع الذي يفتن به كثير من الناس، قال تعالى: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾.

الأبحاثُ النحْويّة

(استحيوا): فعل أمر و(الواو) فاعل، والجار والمجرور (من الله) متعلق باستحيوا، (حقَّ) مفعول مطلق و(الحياء) مضاف إليه. (ليس ذاك): ليس ناقصة من أخوات كان و(ذاك) اسمها، والخبر محذوف تقديره: ليس ذاكَ الحياءَ المطلوب.

(فليحفظ): الفاء واقعة في جواب الشرط، و(اللام) لام الأمر، و(يحفظْ) مضارع مجزوم بلام الأمر، و(الرأس) مفعول به و(ما) اسم موصول بمعنى الذي معطوف على الرأس، (وَعَى) فعل ماضٍ والفاعل ضمير يعود على الرأس.

الأبحاثُ البلاغيّة

١ ـ قوله: «استحيوا من الله» هذا الأمر خرج عن صيغته الأصلية إلى (الإرشاد) وهو من قسم الإنشاء.

٢ ـ قوله: «ليس ذاك» لفظ (ذاك) كناية عن الشيء المذكور سابقاً أي ليس

الحياء الذي تعدونه بذلك (الحياء الحقيقي) الذي ينبغي أن تكونوا عليه فهو (كناية) عن صفة.

٣ ـ قوله: «الرأس وما وعى، والبطن وما حوى...» إلخ، فيه من المحسِّنات البديعية ما يسمى بـ (السجع) وهو من قبيم (السجع المرصَّع) لاتفاق الحروف في الوزن والتقفية.

٤ ـ قوله: «ومن أراد الآخرة» أي: نعيم الآخرة وسعادة الآخرة فهو على حذف مضاف، مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ أي: أهلها، وهو من نوع (المجاز المرسَل).

٥ ـ قوله: «أراد الآخرة» و «ترك زينة الدنيا» بين هاتين الجملتين من المحسِّنات البديعية ما يسمى (المقابلة) وهي كما تقدم أن يؤتى بمعنيين، أو معان متوافقة، ثم يؤتى بما يقابلها على الترتيب، فإن لفظ (أراد) يقابلها (ترك) ولفظ (الآخرة) يقابلها (الدنيا).

الشرح الأدبي

في هذا الحديث الشريف قبس من نور النبوة، وشعلة من شعل الإيمان، يرشدنا إليها نبي الهدى والرحمة، لنجعلها نبراساً لنا في الحياة، يضيء أمامنا الطريق، ويأخذ بأيدينا إلى معارج العز والسعادة.. فلا خير في الإنسان إذا تعرى عن الفضائل، ولا قيمة له إذا فقد الحياء والأخلاق، فالأمم إنما تشاد بأخلاقها، والمجتمعات إنما توزن بآدابها، وإذا لم يكن عند المرء خلق وأدب فلا خير فيه، وقديماً قال شاعرنا العربي:

إِذَا لَمْ تَخْشَ عَاقِبَةَ ٱللَّيَالِي وَلَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا تَشَاءُ
فَلَا وَٱللهِ مَا فِي ٱلْعَيْشِ خَيْرٌ وَلَا ٱلدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ ٱلْحَيَاءُ
يَعِيشُ ٱلْمَرْءُ مَا ٱسْتَحْيَا بِخَيْرٍ وَيَبْقَى ٱلْعُودُ مَا بَقِيَ ٱللِّحَاءُ

فالرسول صلوات الله عليه يدعو أصحابه في هذا الحديث الشريف إلى التخلق بخلق الحياء الكريم الذي هو من صفات (المؤمن الكامل) ويرشدهم إلى حقيقة

معنى الحياء، الحياء الذي يحبه الله تعالى ويريده لعباده.. الحياء الصادق الذي يعصم صاحبه من الانحراف، ويجنبه من التردي في مهاوي الزيغ والضلال.. فيقول صلوات الله عليه:

«ٱسْتَحْيُوا مِنَ ٱللهِ حَقَّ ٱلْحَيَاءِ» فليس المقصود هو مجرد التظاهر بالحياء، أو التخلق به بالشكل الذي تعارف عليه الناس، بل الغرض أن يعرف المؤمن (حقيقة) معنى الحياء، المنبعث من جوهر الإيمان. فالحياء الحقيقي هو الذي يسمو بصاحبه نحو الكمال، ويرتفع به عن حضيض المعاصي الذي انغمس فيه كثير من الناس، حيث ساروا مع شهواتهم وأهوائهم، ولم يصونوا جوارحهم وأعضاءهم.. ولذلك فقد نبه عليه الصلاة والسلام إلى هذا المعنى الدقيق، حين قال: «مَنِ ٱسْتَحْيَى مِنَ ٱللهِ حَقَّ ٱلْحَيَاءَ فَلْيَحْفَظِ ٱلرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَلْيَحْفَظِ ٱلْبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْيَذْكُرِ ٱلْمَوْتَ وَٱلْبِلَى».

نعم، هذا هو الحياء الحقيقي الذي يدعو إليه نبي الإسلام، وهو أن يحفظ الإنسان حواسّه، يحفظ سمعه وبصره ولسانه، فلا يسمع إلى فحش أو هجر، ولا ينظر إلى محرّم أو شهوة، ولا يتكلم بقبيح أو منكر، وكذلك يحفظ بطنه فلا يُدْخِل إليه حراماً، ويحفظ فرجه فلا يرتكب فاحشة أو يلوّث شرفاً، ويحفظ يديه ورجليه وسائر أعضائه وحواسه، فلا يمشي إلى رجس، ولا يشهد زوراً، ولا يعتدي على إنسان. وهكذا يكون قد تحقق بمعنى الحياء، وتخلق بذلك الخلق الكريم الطاهر، الذي كان من خلق الرسول العظيم.. ولقد صدق عليه الصلاة والسلام حين قال: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ ٱلنَّاسُ مِنْ كَلَامِ ٱلنُّبُوَّةِ ٱلْأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَٱصْنَعْ مَا شِئْتَ».

* * *

مكانة المجاهد في الإسلام

الحديث الثاني والثلاثون

عَنْ أبي هُرَيْرَة رَضِيَ اللهُ عنهُ، عنِ النبي ﷺ، أنهُ قال:

«تَضَمَّنَ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ في سبيلِهِ، لا يُخْرِجُهُ إلا جِهادٌ في سَبيلي، وإيمَانٌ بي، وتَصْدِيقٌ بِرُسُلي، فَهو ضامِنٌ أنْ أُدْخِلَهُ الجنَّةَ، أو أُرْجِعَهُ إلى منزِلِهِ الذي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلاً ما نَالَ مِنْ أجْرٍ أوْ غَنيمَةٍ، والَّذِي نَفْسُ مُحمَّدٍ بِيَدِهِ، ما مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ في سبيلِ اللهِ إلاَّ جاءَ يَوْمَ القِيامَةِ كَهَيْئتِهِ يَوْمَ كُلِمَ. لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ، وريحُهُ ريحُ مِسْكٍ، والَّذِي نَفْسُ مُحمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلا أنْ يَشُقَّ على المُسْلمينَ ما قَعَدْتُ خِلافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو في سبيلِ اللهِ أبداً، ولكِنْ لا أجِدُ سعَةً فأحملُهمْ، ولا يَجِدُونَ سَعَةً ويَشُقُّ عَلَيْهِمْ أنْ يَتخلَّفُوا عَنِّي، والَّذِي نَفْسُ مُحمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أنْ أغْزُوَ في سبيلِ اللهِ فأُقْتَلَ، ثُمَّ أغزُو فأُقْتَلَ، ثمَّ أغْزُوَ فأقتل».

(رواه مسلم)

الأبحاث العربية

تضمَّن : أي تكفَّل على سبيل الإيجاب على النفس تفضّلاً وكرماً.

إيمان بي : الإيمان هو: اعتقاد بالقلب، وتصديق باللسان، وعمل بالجوارح

وأصل الإيمان (الاعتقاد) و (التصديق) الجازم الذي لا يخالطه شك أو ارتياب.

وتصديق برسلي: أي اعتقاد بصدق الرسل الكرام، وفيه دليل على أن الإيمان كلٌ لا يتجزأ فلا يصح الإيمان ببعض الأجزاء وإنكار بعضها الآخر كالإيمان بالله وتكذيب الرسل.

نفس محمد بيده: هذا قسَم بالذات المقدسة، ذات الباري تبارك وتعالى، لأنَّ نفوس جميع الخلائق بيده، فهو المتصرِّف فيها بالإحياء والإماتة، والخلق والإيجاد.

كَلْم: أي جرح ومعنى يُكْلم أي يجرح، والمراد ما من جرحٍ يجرح في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة على هيئته، لونه كلون الدم وريحه كريح المسك.

أجر أو غنيمة: الأجر ثواب الآخرة، والغنيمة ما يربحه المجاهدون من أعدائهم.

يَشُقّ: أي يصعب عليهم، قال تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾، وفي الحديث: «لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلاَةٍ».

خلاف سرية: أي ما تركت الخروج في سبيل الله مطلقاً بل كنت أخرج في كل غزوة ومع كل جماعة تجاهد في سبيل الله، والسريَّة: الكتيبة من الجيش.

سعة: المراد لا أجد قدرة، ولا أجد مالاً يكفي لتجهيزهم للجهاد في سبيل الله.

الأبحاث النحوية

(إلاّ جهاد): إلاّ أداة حصر، و (جهاد) فاعل مؤخر ليخرجه وروي بالنصب (إلا جهاداً) فيكون مفعولاً لأجله، أي: لا يخرج إلا من أجل الجهاد في سبيل

الله. (أن أدخله): أن وما بعدها في تأويل مصدر مفعول به (لضامنٌ) لأن اسم الفاعل يعمل عمل الفعل. (نائلاً): حال منصوب وقوله: (ما نال) (ما) اسم موصول في محل نصب مفعول به (لنائل). (كلم يكلم): كَلْم مجرورة بمن وجملة (يكلم) من الفعل ونائب والفاعل في محل جر صفة لِكَلِم. (أن يتخلفوا): أنْ وما بعدها في تأويل مصدر فاعل ليشق، أي: يشق عليهم تخلفهم عني.

الأبحاث البلاغية

١ - قوله: «تضمن الله لمن خرج في سبيله...» إلخ، جملة خبرية يقصد منها (التشويق وتحريك الهمة) إلى الجهاد في سبيل الله. «لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي...» إلخ، جملة معترضة لبيان أن الجهاد لا يكون مقبولاً عند الله إلا إذا كان الغرض منه إعلاء كلمة الله.

٢ - قوله: «إلا جاء كهيئته يوم كلم» فيه تشبيه يسمى (مرسَلاً مفصَّلاً) وقد تقدم معك أمثلته.

٣ - قوله: «لونه لون دم» و«ريحه ريح مسك» في كلٍ من الجملتين تشبيه يسمي (التشبيه البليغ) وأصله لونه كلون الدم في الصورة، وريحه كريح المسك في الطيب فحذفت منهما أداة الشبه ووجه الشبه فأصبح تمثيلاً بليغاً.

الشرح الأدبي

بهذه الصورة الرائعة يصوِّر الرسول الكريم أجر الغازي والمجاهد في سبيل الله، ذلك الإنسان الذي ضحّى بنفسه وماله في سبيل رفعة شأن الدين وإعزاز كلمة الله، وأيُّ أجرٍ أعظم بل أية منزلة أسمى من تلك المنزلة الرفيعة التي خصّ الله عزّ وجلّ بها المجاهدين في سبيله؟ حين قال عنهم: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، فَرِحِيْنَ بِمَا آتَاهُمُ ٱللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِيْنَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾. إنها الحياة الأبدية السرمدية في جنان الخلد ودار النعيم، هي بعض ما أكرمهم الله عزّ وجلّ به، عدا ما أعدّ لهم من الذكر الحسن في الدنيا حيث تخلّد أسماؤهم في

سجل الخالدين، فهم أحياء حتى بعد مماتهم، ذكرهم على كل لسان، وحبُّهم في كل قلب، وهذا هو السرُّ في نهينا عن القول في الشهداء بأنهم أموات، ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتٌ، بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾. لأن الله عزّ وجلّ خلّد ذكرهم، ويكفي ذلك شرفاً وفخراً لهم.

وقد بيّن هذا الحديث النبوي الشريف أن الله عزّ وجلّ قد تكفل بالجنّة لمن جاهد في سبيل الله، مخلصاً عمله لله، مؤمناً برسله، مصدِّقاً بوعد الله تبارك وتعالى، وليس هذا الجزاء العظيم إلا للمجاهد الذي يبتغي من وراء جهاده إعلاء كلمة الله، وإعزاز شأن الدين، ولقد سئل الرسول ﷺ عن الرجل الذي يقاتل للشهرة ليُعرف أنه شجاع، أو يقاتل للمغنم، أو يقاتل حميّةً لعشيرته، فقال كلمته الرائعة المأثورة: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ». وقد ختم عليه الصلاة حديثه بالقَسَم بأنه لولا أن يقع المسلمون في ضيق وحرج، ولولا المشقة التي ستلحق بالمؤمنين لما تخلّف عن الخروج في غزوةٍ من الغزوات أبداً، ولكنه لشفقته ﷺ على أمته ترك الخروج في بعض الغزوات.

ولقد تمنّى صلوات الله وسلامه عليه أن يقتل في سبيل الله ثم تعود إليه الحياة فيجاهد ثم يقتل، وهكذا، لما يعرف من ثواب الشهادة في سبيل الله.. فأكرِمْ به من قائد وزعيم، وما أجمل كلمة الأديب التركي المسلم: إذا لم تحترق أنت، ولم أحترق أنا، فمن أين يخرج النور؟؟.

اللهم اجعلنا ممن جاهد في سبيلك ابتغاء مرضاتك، إنك سميع مجيب الدعاء، اللهم آمين.

* * *

حَقيقةُ الإفلاسِ

الحديث الثالث والثلاثون

عَنْ أبي هُرَيْرةَ رضيَ اللهُ عنهُ، عن رسُول اللهِ ﷺ، أنه قَال:

«أتدْرونَ مَنْ المُفْلِسُ؟ قالوا: المُفْلِسُ فِينا مَنْ لا دِرْهَمَ لَهُ ولا مَتاعَ، فَقَالَ ﷺ: إنَّ المُفْلِسَ مِنْ أُمَّتي مَنْ يَأتي يَوْمَ القِيامةِ بِصلاةٍ، وصِيَامٍ، وزكاةٍ، ويأتي وقدْ شَتَمَ هَذَا، وقَذَفَ هَذَا، وأكَلَ مال هذا، وسَفَكَ دَمَ هذا، وضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطى هذا مِنْ حَسنَاتِهِ وهَذَا مِنْ حَسَناتِهِ، فَإنْ فَنِيَتْ حَسنَاتُهُ قَبْلَ أنْ يُقْضى ما عَلَيْهِ أُخِذ مِنْ خَطَاياهُمْ فطُرِحَتْ عَلَيهِ ثُمَّ طُرِحَ في النَّارِ».

(رواه مسلم)

الأبحاث العربية

أتدرون من المفلس: يقال: أفلس الرجل إذا فقد ما يملك من مالٍ أومتاع، وقد شاع استعمال الإفلاس في النواحي المادية يقال: ضرب الإفلاس عليه أطنابه، والرسول ﷺ أشار إلى الإفلاس من الحسنات والإفلاس من الخير، واعتبره هو الإفلاس الحقيقي فهناك مفلس من المال، ومفلس من الحسنات.

سفك دم هذا : أي أراق دمه وقتله بدون حق وقد جاء في الحديث: «لَا يَحِلُّ دَمُ ٱمْرِىءٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ. . .» الحديث.

وقذف هذا : أي شتمه ورماه بالفاحشة أي الزنى، وأصل القذف الرمي بالحصى أو الحجر، ثم توسع فيه، فأصبح الرمي باللسان وبالكلام يسمى (قذفاً) تشبيهاً له بمن يرمي الحجارة، أو الشيء الصلب بيده قال ﷺ: «اجْتَنِبُوا ٱلسَّبْعَ ٱلْمُوبِقَاتِ. . وعدّ منها: قَذْفَ ٱلْمُحْصَنَاتِ ٱلْغَافِلَاتِ ٱلْمُؤْمِنَاتِ» أي رميهنّ بالزنى.

فنيت حسناته : أي نفدت ولم يبق منها شيء، والمراد أن الغرماء أصحاب الحقوق أخذوا من حسناته يوم القيامة بدل حقوقهم التي لهم عليه.

يقضى ما عليه : أي يوفى ما عليه من حقوق للناس في ذمته.

طرحت عليه : أي أخذت ذنوب المظلوم فجعلت على الظالم، أي: في كفة سيئاته. وفي الحديث: «مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ فَلْيَتَحَلَّلْ مِنْهُ ٱلْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لا يَكُوْنَ دِرْهَمٌ وَلَا دِيْنَارٌ. . .» الحديث.

الأبحاث البلاغية

١ - قوله: «أتدرون من المفلس؟» جملة إنشائية من القسم (الطلبي) والاستفهام في هذه الجملة جاء (بالهمزة) وهي تدل هنا على التصديق لأنه أريد بها النسبة وقد خرج الاستفهام عن صيغته ومعناه الأصلي (وهو طلب العلم بمجهول) إلى غرض آخر وهو (التشويق إلى معرفة الشيء) فهذا مثل قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ؟ ﴾ استفهام غرضه التشويق.

٢ - قولهم: (المفلس فينا. . .) إلخ، جملة خبرية من النوع (الابتدائي) لعدم وجود المؤكد والغرض منها (فائدة الخبر).

٣ - قوله: «إن المفلس من أمتي» جملة خبرية من النوع (الطلبي) لوجود المؤكد وهو (إنّ) والمراد بها (فائدة الخبر).

٤ ـ قوله: «وقد شتم هذا» لفظ (هذا) هنا وفيما بعده (كناية) عن الشخص المشتوم فهو (كناية عن موصوف).

٥ ـ قوله: «وطرحت عليه» فيه استعارة (تصريحيّة تبعيّة) وطريق إجراء هذه الاستعارة أن يقال: شبهت الخطايا والسيئات بشيء ثقيل كالحمل الذي تحمله الدابة مثلاً بجامع التعب والمشقة التي تعتري الحامل ثم استعير لفظ (الطرح) للحمل الثقيل واشتق منه (طَرحَ) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، فكأنّ الذنوب تُطرح عن ظهر المظلوم إلى ظهر الظالم فتزداد أثقاله وآصاره ثم يُطرح في جهنم.

الأبحاث النحوية

(أتدرون من المفلس؟): الهمزة للاستفهام، و(تدرون) فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل (مَن المفلس) من: اسم استفهام في محل رفع خبر مقدم (والمفلس) مبتدأ مؤخر، والجملة من المبتدأ والخبر مفعول به لـ(تدرون). وإنما تقدّم الخبر لأنّ أسماء الاستفهام لها الصدارة، والأصل (المفلس من هو؟). (قالوا: المفلس فينا من لا درهم له): جملة (المفلس فينا) مقول القول وإعراب هذه الجملة أن نقول: (المفلس) مبتدأ و(فينا) جار ومجرور متعلق بالمفلس لأنه اسم فاعل، (من) اسم موصول بمعنى الذي في محل رفع خبر المفلس (لا درهم) ولا نافية للجنس تعمل عمل إن (درهم) اسمها والجار والمجرور (له) هو الخبر أي لا درهم موجود عنده. (وقد شتم هذا) الواو واو الحال، والجملة في محل نصب على الحال.

الشرح الأدبي

لم يترك رسول الهدى والرحمة طريقاً من طرق الخير إلا دلّ أمته عليه، ولم يترك سبيلاً من سُبل الشرّ إلا حذر أمته منه، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وفي هذا الحديث النبّوي الشريف يلفت الرسول الكريم أنظار الصحابة رضوان الله عليهم إلى أمر عظيم هام، وإلى ناحية دقيقة، طالما غفل

كثير من الناس عنها ولم يفطنوا لها تلك هي تصور مفهوم (الإفلاس) على حقيقته، فالناس يعتبرون المفلس من لا يملك من المال شيئاً أو من فقد ثروته وماله، فهم يحصرون الإفلاس في المادة فحسب ويجعلونه قاصراً على الدرهم والدينار والمتاع، والرسول عليه الصلاة والسلام ينظر إلى الإفلاس من زاوية أوسع لأنه يهتم بالحقيقة دون الصورة، وبالجوهر دون المظهر، فهو يخاطب أصحابه بأسلوب فيه إثارة إلى البحث والتفكير، وفيه تنبيه لهم إلى أن يغوصوا إلى أعماق الموضوع لتظهر لهم الحقيقة ناصعة جليّة، فليس ضياع المال والمتاع بالشيء المخيف، ولا بالأمر الخطير، ولكن الإفلاس الحقيقي هو أمور تضيع في الدين، وفي الأعمال الصالحة، وفي الحسنات التي تقرّب العبد من ربه وتجعله سعيداً في آخرته ودنياه هذا هو الشيء الخطير.. فكم من أناس ملكوا الدنيا، وكدّسوا الثروات الضخمة، وعاشوا في هذه الحياة مترفين، ولكنهم كانوا تعساء لأنهم أناس مفلسون، قد ذهبت حسناتهم، وتلاشت خيراتهم، وذهبت إلى أولئك المظلومين الذين اعتُدي عليهم...

وهكذا يمضي عليه الصلاة والسلام في بيان حقيقة المفلس الذي ينبغي أن نرثي لحاله فيقول: «إِنَّ ٱلْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا...» إلخ. أليس هذا ممّا يدعو إلى الحسرة والإشفاق، أن يجمع الإنسان الحسنات ثم يأتي يوم القيامة وقد ذهبت لخصومه ولم يبق له منها إلا سيئات خصومه الذين ظلمهم في الدنيا فتطرح عليه ثم تكون نهايته صفر...

اللهم جنّبنا السوء والفحشاء واجعلنا من عبادك الصالحين.

* * *

الجَنَّةُ تحتَ ظِلالِ السُّيُوفِ

الحديث الرابع والثلاثون

عَنْ عبدالله بن أبي أوفى رضيَ اللهُ عَنْهُما، أنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ:

«يا أيُّها النَّاسُ لا تَتَمنَّوا لِقَاءَ العَدُوِّ، واسْأَلُوا الله العَافِيَةَ فإذَا لَقِيتُموهُمْ فَاصبِرُوا واعْلمُوا أنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلالِ السُّيوفِ، ثُمَّ قَالَ النبيُّ ﷺ: اللَّهُمَّ مُنزِلَ الكتابِ ومُجْريَ السَّحابِ، وهَازِمَ الأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ وانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ».

(رواه الشيخان)

الأبحاث العربية

لا تتمنَّوا لقاء العدو: أي لا تطلبوا لقاء العدو ولا تشتهوه، وأصل التمني هو: طلب الشيء المحبوب، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ...﴾ الآية، وفي الحديث الشريف: «لَيْسَ ٱلإِيْمَانُ بِٱلتَّمَنِّي وَلَكِنْ مَا وَقَرَ فِي ٱلْقَلْبِ وَصَدَّقَهُ ٱلْعَمَلُ».

اسألوا الله العافية: أي اطلبوا من الله السلامة، وأصل العافية السلامة من جميع ما يؤذي ويسوء من أمور الدنيا أو الآخرة وقد أوصى النبي ﷺ عمّه العباس أن يطلب العافية من الله وعلّل له ذلك بقوله: «سَلِ ٱللهَ

ٱلْعَافِيَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَها فَقَد أُعْطِيتَ خَيْرَيِ ٱلدُّنْيا وَٱلآخِرَةِ».
اللهم إنا نسألك العفو والعافية وحسن الختام.

مجري السحاب: مسيِّر السحاب من جهة إلى جهة ومن بلد إلى بلد، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾.

هازم الأحزاب: المراد بالأحزاب هم أئمة الضلال الذين اجتمعوا وتحزَّبوا لقتال النبي ﷺ وقد اشتهرت تلك الغزوة باسم (غزوة الأحزاب)، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَأَى ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا ٱللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً ﴾. وقد هزمهم الله ونصر عباده المؤمنين ورفع راية الدين وجعل كلمة الذين كفروا السفلى.

الأبحاث البلاغية

١ ـ قوله: «الجنة تحت ظلال السيوف»: قال القرطبي: هذا من الكلام النفيس البديع الذي جمع ضروب البلاغة من جزالة اللفظ، وعذوبته وحسن استعارته، وشمول المعاني الكثيرة مع الألفاظ الوجيزة بحيث تعجز الفصحاء اللسن والبلغاء المصاقع عن الإتيان بنظيره وشكله فإنه استفيد منه مع وجازته الحضّ على الجهاد والإخبار عن ثوابه... إلى أن قال: وهذا كما جاء في الحديث الشريف: «ٱلْجَنَّةُ تَحْتَ أَقْدَامِ ٱلأُمَّهَاتِ». انتهى.

ففي التعبير استعارة تصريحيَّة فالمجاهد في سبيل الله يدخل الجنة بسبب جهاده وصبره على لقاء العدو وضربه بالسيف حتى كأنَّ السيوف أصبح لها ـ من كثرتها ـ ظلال تظل الضاربين بها...

فِي ظِـلَالِ ٱلسُّـيُـوفِ جَنَّـةُ رَبِّـي   وَٱلْـمَعَـالِـي فِي رُؤُوسِ ٱلْـعَـوَالِـي

٢ ـ قوله: «منزل الكتاب، مجري السحاب، هازم الأحزاب»: فيه من علم البديع ما يسمى (بالسجع المرصع) وهو ما اتفقت فيه أكثر الفقرات في الوزن والتقفية، ولا يستحسن السجع إلّا إذا جاء عفواً.

التعريف براوي الحديث

عبدالله بن أبي أوفى الأسلمي ويكنى (أبا إبراهيم) واسم أبيه (علقمة بن خالد) وهو من هوازن. شهد الحديبية، وكان ممن بايع بيعة الرضوان، نزل الكوفة بعد وفاة رسول الله ﷺ وكان آخر من مات بها من الصحابة سنة ٨٧ هـ وكان قد شهد حنيناً، روي عنه أنه قال: (غزوت مع النبي ﷺ ست غزوات نأكل فيها الجراد)... وقد توفي بعد أن ذهب بصره، وقد أصابته ضربة في يده من المشركين. روي عن إسماعيل بن أبي خالد، أنه قال: (رأيت على ساعد عبدالله بن أبي أوفى ضربة فقلت: ما هذه؟ فقال: ضُربتها يوم حنين) رضي الله عنه وأرضاه وجعل الجنة مسكنه ومأواه آمين.

الشرح الأدبي

الجهاد في سبيل الله شعار هذا الدين، وعز هذه الأمة وحصنها المتين، فما تركت أمة الجهاد في سبيل الله إلا ذلّت وهانت، ولهذا كان الجهاد في شرعة الإسلام فريضة لازمة لا بد منه لنيل العزة، وكان ذروة أعمال الإسلام، وقد جاء في الحديث الشريف: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِغَزْوٍ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً». والغرض من الجهاد إعلاء كلمة الله، ونشر المبادىء الإنسانية الكريمة التي جاءت بها الشرائع السماوية، ودفع كيد المعتدين، ولهذا أمر الله جلّ ثناؤه بالجهاد وحضّ عليه ووضّح الغرض منه، فقال عزّ من قائل: ﴿ ٱلَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ ٱلشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾.

ومع أن الجهاد فريضة مقدسة من أجل إعزاز الدين ورفع مناره، مع ذلك فقد جاءت السنة النبوية المطهرة تنهى عن تمني لقاء العدو، وتأمر بالصبر عند احتدام المعركة، فالأصل في المسلم أن يطلب السلامة والمعافاة، وألا يتعرض للبلاء والفتنة، ولكنه حينما لا يكون مناص من القتال والحرب فلا بد له من الصبر وعدم الفرار من ساحة الشرف، ومن ميدان الكفاح والنضال كما أشارت الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ

كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ ٱلأَدْبَارَ، وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ ٱللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾. فلا بد من الصبر عند تعانق السيوف والتحام الصفوف، ولا بد من توطين النفس على تحمّل المكاره، فإن الجنة لا تُنال إلا بالصبر عند الشدائد وبتحمل الأذى في سبيل الله، والله تعالى قد وضح هذا المعنى بقوله: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللهُ ٱلَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّابِرِينَ ﴾.

وقد دعا الرسول الكريم بأن ينصره الله على أعداء الدين فقال: «اللَّهُمَّ مُنْزِلَ ٱلْكِتَابِ وَمُجْرِيَ ٱلسَّحَابِ وَهَازِمَ ٱلأَحْزَابِ ٱهْزِمْهُمْ وَٱنْصُرْنَا عَلَيْهِمْ». فلا بد إذاً من الاستعداد ثم اللجوء إلى الله وطلب النصرة منه: ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ ٱللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ، إِنَّ ٱللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾.

* * *

الأسلوب الحكيم في التربية والتعليم

الحديث الخامس والثلاثون

عن معاوية بنِ الحكَم السُّلَمِي، قال: «بينَا أنا أُصلِّي مع رسول الله ﷺ إذ عَطَسَ رجلٌ من القومِ، فقلتُ: يرحمُكَ اللهُ! فرماني القومُ بأبصارهم، فقلتُ: واثُكْلَ أُمِّياهُ، ما شأنكم تنظرونَ إليَّ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يُصَمِّتُونني لكنِّي سَكَتُّ، فلمَّا صلَّى رسولُ الله ﷺ، فبأبي هو وأمي!! ما رأيتُ مُعَلِّماً قَبلَهُ ولا بعده، أحسنَ تعليماً منه، فواللهِ ما كَهَرَني، ولا ضَرَبني، ولا شَتَمني، وإنما قال:

«إن هذه الصلاة لا يصلحُ فيها شيءٌ من كلامِ الناس، إنما هو التسبيحُ، والتكبيرُ، وقراءةُ القرآن».

(رواه مسلم)

الأبحاث العربية

وَاثُكْلَ أمِّيَاهُ : الثُّكْلُ: فقدانُ المرأةِ ولدَها، وهو بضم الثاء، وكذلك الثَّكَلُ بالتحريك، لغتان كالبُخْلِ، والبَخَلِ، حكاهما الجوهري في الصحاح، ويُقال: امرأةٌ ثَكْلَى وثاكِلٌ، وَثكِلَتْهُ أُمُّه ثُكْلاً، وأثكَلَهُ اللهُ أمَّه، والمعنى: وافَقْدَ أمي إيَّايَ فإني قد هلكتُ. وكلمة «وا» تختص بالنُّدبة في النداء، و«ثُكل أمياه» مندوبٌ، و«أمِّياهُ» أصلُها

أمي، دخلت عليها الألف لأجل مدِّ الصوت بالمندوب، إظهاراً لشدة الحزن، والهاءُ بعدها هاءُ السكت، ولا تكون إلا في آخر الكلمة.

ما شَأْنُكُمْ؟ : الشأنُ: الحالُ والأمر، يُقال: لأفضحنَّ شأنهم، أي لأفسدنَّ عليهم أمرهم وأكشفنَّ حالهم، والشأنُ واحد الشؤون، ويُقال: ما شأنتُ شأنه أي لم أكترثْ له، أفاده الجوهري.

فلمّا رأيتهم : أي فلمّا علمتهم، فرأى هنا بمعنى «علم» رؤية قلبية، وليست من الرؤية البصرية، ومنه قول الشاعر:

رأيتُ اللهَ أكبرَ كُلِّ شَيءٍ
مُحاولةً وأكثَرَهم جُنُوداً

أي اعتقدتُ وأيقنتُ وعلمتُ.

يُصَمِّتُونني : أي يسكّتونني، من الصمت بمعنى السكوت، يُقال: «صَمَتَ دَهْراً ونَطَق كُفْراً» والصَّمْتُ والصُّماتُ بمعنى واحد، وجواب «لَمّا» محذوف تقديره: غضبتُ وتغيَّرتُ لكنِّي سكتُّ.

كَهَرَني : الكَهْرُ: الانتهارُ والزجرُ، قال الكسائي: كَهَره وقَهَره بمعنىً، وقال علماء اللغة: الكهرُ، والنَّهرُ، والقهرُ، ألفاظٌ متقاربة، وكلُّها يفيد الزجر والقهر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أي لا تزجره وتقهره بما فيه إزعاجٌ له، والمراد بقوله: «ما كهرني» أي ما نهرني ولا زجرني بغلظة إنما أرشدني وعلَّمني.

الأبحاثُ النحويّة

(بينا) ظرف بمعنى الحين والزمن، وأصلُها بين أُشبعت الفتحة فصارت ألفاً، و«بينما» زيدت عليها «مَا» والمعنى واحد، تقول: «بينما نحن جلوس» و«بينا نحن جلوس» كما قال الشاعر: «فَبَيْنَا نَحْنُ نَرْقُبُهُ أَتَانَا» أي أتانا في الوقت الذي كنا نرقب فيه مجيئه، وقالت حُرقة بنت النعمان بن المنذر:

فبينا نسوسُ النَّاسَ والأمرُ أمرُنا
إذا نحنُ فيهم سُوقَةٌ نُتَنَصَّفُ
فأفٍّ لِدُنيا لا يَدُومُ نَعِيمُها
تَقَلَّبُ تاراتٍ بنا وتَصَرَّفُ

(لقلت يرحمك الله): جملة (يرحمك الله) من الفعل والفاعل في محل نصب مقول القول، لأن (قال) تنصب الجمل، كما في الآية الكريمة ﴿ قال إني عبدُالله ﴾ ولا تنصب المفردات.

(ما شأنكم تنظرون): (ما) اسم استفهام في محل رفع مبتدأ، و (شأنُ) خبر، وهو مضاف، والميمُ علامة الجمع، وجملة تنظرون حالية.

(فبأبي هو وأمي): الجار والمجرور متعلق بفعلٍ محذوف تقديره أفديه بأبي وأمي.

(ما رأيت معلماً): رأى تنصب مفعولين (معلماً) مفعول به أول، وأفعلُ التفضيل (أحسنَ) هو المفعول الثاني، و (تعليماً) تمييز منصوب بالفتحة الظاهرة.

(إن هذه الصلاة لا يصلح): جملة (لا يصلح فيها شيء) في محل رفع خبر (إنَّ).

(إنما هو التسبيح): (إنَّما) كافة مكفوفة ملغاة لا عمل لها. (هو التسبيح والتكبير) مبتدأ وخبر، والجملة تفيد الحصر.

الأبحاث البلاغية

١ ـ قوله: «فرماني الناسُ بأبصارهم» استعارة تصريحيّة، فقد استعار الرمي للنظر، لأن الرمي يكون بالشيء الثقيل أو المحدد، كالحجر والسهم، والمعنى: نظروا إليَّ حديداً كما يُرمى بالسهم، زجراً بالبصر من غير كلام.

٢ ـ قوله: «واثكل أمياه» فيه صيغة الندب، لأن «وا» خاصَّةٌ في النداء بالندبة، والجملة دعائية للتنبيه على أمرٍ خطير حدث منه، كأنه يقول: فقدتني أمي على ما فعلتُ.

٣ ـ قوله: «ما شأنكم تنظرون إليَّ؟» جملة استفهامية تفيد معنى التعجب.

٤ ـ قوله: «قبله ولا بعده» بين كلمة «قبله» و«بعده» طباقٌ، وهو من المحسِّنات البديعية.

٥ ـ قوله: «إنما هو التسبيحُ والتكبيرُ وقراءة القرآن» قصرُ موصوف على صفة كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ﴾ وأداة القصر (إنما).

ترجمة الراوي

هو (معاويةُ بنُ الحكَم السُّلَمِي) يُكنى أبا عمر، كان يسكن في منازل بني سليم وينزل المدينة المنورة، قال البخاري: له صُحبةٌ، يُعدُّ في أهل الحجاز، وروايته للأحاديث قليلة، روى له هذا الحديثَ الإمام مسلم في صحيحه، وله تتمة جمع فيه أبواباً من الفقه، في الكهانة، والطيرة، والخط، وتشميت العاطس، وعتق الجارية، ولا تُعرف سنةُ وفاته.

وتتمة الحديث كما في مسلم: «قلتُ يا رسول الله: إني حديثُ عهد بجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام، وإنَّ منَّا رجالاً يأتون الكُهَّان!! قال: فلا تأتهم، قال: ومنا رجال يتطيَّرون!! قال: ذاك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصُدَّنكم، قال: قلتُ: ومنا رجال يخطُّون!! قال: كان نبيٌّ من الأنبياء يخطُّ، فمن وافق خطَّه فذاكَ ـ يعني به علم الرَّمل ـ قال: وكانت لي جاريةٌ ترعى غنماً قِبَل أحدٍ، فاطَّلعتُ ذات يومٍ فإذا الذئب قد ذهب بشاةٍ من غنمها، وأنا رجل من بني آدم آسفُ ـ أي أغضبُ ـ كما يأسفون، لكني صككتها صكَّةً ـ أي ضربتها بيدي على وجهها مبسوطة ـ فأتيتُ رسول الله ﷺ فعظُم ذلك عليَّ، قلتُ: يا رسول الله أفلا أعتقُها؟ قال ائتني بها، فأتيتُه بها، فقال لها: أينَ الله؟ قالت: في السماء، قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله، قال: أعتِقْها فإنها مؤمنة»[1]. صحيح مسلم ٣٨١/١.

الشرح الأدبي

نورٌ وضياء من هدْي سيِّدِ الأنبياء، يرشدنا إليه، ويلفت أنظارنا عليه، هذا الحديثُ النبويُّ الشريف، في صورٍ مشرقة من البيان والجمال، تتراءى للأنظار،

(١) انظر ترجمته في الإصابة لابن حجر ١٤٨/٦؛ وفي أُسْد الغابة لابن الأثير ٢٠٧/٥؛ وفي تهذيب التهذيب لابن حجر ٢٠٤/١٠.

كأنها دررٌ نُظِمتْ حبَّاتُها في عِقْدٍ ثمين، ليكونَ بهجةً للناظرين، وكما يكمُنُ الدُرُّ في الصَّدَفِ، كذلكَ يكون الدُرُّ في الألفاظ وحلاوة الكلام.

هذا رجلٌ من صحابة رسول الله ـ كان بعيداً عن الفقه في الدين لبُعْدِ مسكنه عن المدينة المنورة ـ يأتي إلى مسجد رسول الله ﷺ، ليقبس من معين النبوة، علماً يستنير به قلبه، ويستضيء به عقله، وليرجع إلى قومه مرشداً وهادياً، يدخل المسجد ورسولُ الله في الصلاة، يؤمُّ المؤمنين في صلاة الظهر أو العصر، ويشرع بالصلاة مع رسول الله عليه السلام وبينما الناس في خشوع وإخباتٍ، إذ عطس رجلٌ من المصلِّين، فسارع هذا الصحابي إلى تشميته بقوله: (يرحمك الله) على أساس ما علمه من أمور الدين، أن تشميت العاطس سنة نبوية مأثورة، فحدَّق الناس أبصارهم به، تنبيهاً له على خطئه، فيما فعل من الكلام وهو في الصلاة، فإن الصلاة سكونٌ وخشوع، وتذلُّلٌ وإخبات، ـ وقد كان الناس قبل أن تنزل الآية ﴿ وقوموا للهِ قانتين ﴾ يُسلِّم بعضهم على بعض وهم في الصلاة، ويسأل بعضهم بعضاً إذا جاء إلى الصلاة: كم ركعةً صليتم؟ ثم نُسخ هذا الحكم بنزول الآية، وحُرم الكلامُ في الصلاة ـ ولكنَّ هذا الصحابي لم يكن يعلم ذلك، فشمَّت العاطس، ظناً منه بجواز الكلام في الصلاة، حسب ما كان جارياً، ولمَّا رماه الصحابة بأبصارهم ليزجروه عن الكلام، زاد في حديثه وكلامه فجعل يقول: (واثكل أميَّاه ما شأنكم تنظرون إليَّ؟) أي: فقدتني أمي، ماذا حدث مني، حتى أصبحتم تنظرون إليَّ بهذه النظرات الحادة؟.

ولمَّا كان الموقف يستدعي تعريفه ضرورة السكوت وعدم الكلام لأنه في صلاة، ولا يستطيعون أن ينبهوه على خطئه بالقول، لذلك أخذوا بالإشارة يسكِّتونه، بضرب أيديهم على أفخاذهم، وهنا شعر الرجل بالخطأ، وعرف أن المراد من ذلك أن يكفَّ عن الكلام، قال (لكني سكتُّ) أي إنه التزم الأمر، فسكت ولم يتكلم، امتثالاً للطاعة والأدب. ويمضي رسول الله ﷺ في صلاته، حتى إذا ما انتهى منها، دعا ذلك الرجل ـ وهنا يأتي دورُ التعليم والتوجيه ـ فيرشده رسول الله ﷺ بلطفٍ وشفقةٍ ولين، إلى واجب الإنصات في الصلاة، والخشوع لربِّ العزة والجلال فيها، وتسبيحه وحمده وتقديسه، وتلاوة القرآن فيها مع

الخضوع والخشوع، وأن يبقى حاضر القلب مع الله عزّ وجلّ، بعيداً عن الشغب والكلام الدنيويّ الذي يقطع العبد عن ربه، ويشغله عن مناجاته، فيقول له عليه السلام: إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيحُ والتكبير وقراءة القرآن. لطفٌ في التوجيه، ولينٌ في الكلام، وأسلوبٌ رائعٌ في النصح والتذكير، يوجِّه إليه المربي الأكبر ﷺ ذلك الرجل دون أن يجرح شعوره أو يوبِّخه بعنفٍ وشدة، لأنه أساء في شعيرةٍ من شعائر دين الله، هي الصلاة التي شرعت للمناجاة بين العبد وربه، ولتصل هذا العبد الضعيف بخالق الأرض والسماء، مالك الملك، الذي تعنو له الوجوه ذلّاً وخضوعاً. ويطالعنا بهذا التوجيه الكريم، ويُعرِّفنا به، ذلك الصحابي الذي هزَّ قلبَه ووجدانه، خُلُقُ النبي الرحيم، وما جُبِل عليه من جليل الفضائل وعظيم المآثرَ قلب هذا النبي الكريم، فيقول الرجل - مشيراً إلى تلك الكمالات في سيرة النبي الأعظم -: (فبأبي هو وأمي، ما رأيتُ قبله ولا بعده معلِّماً أحسن تعليماً منه، فوالله ما كهرني - أي نهرني - ولا ضربني ولا شتمني، وإنما قال: إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس. . .) إلخ.

إنه درسٌ في التربية النبوية السليمة، وتوجيه سديد رشيد، للدعاة والمرشدين، ليقتفوا أثر الهادي المرشد ﷺ في أسلوبه، ودعوته، وحكمته، وكيف غزا القلوب بسيرته العطرة، وأسلوبه الفذّ الحكيم، في معالجة الأمراض الاجتماعية، والأخطاء الشخصية التي تحدث من الإنسان؟، فلم يكن رسول الله ﷺ يوماً من الأيام غليظاً في طبعه، قاسياً في كلامه، إنما كان مثلاً يُحتذى في حسن التربية والتوجيه، وصدق الله العظيم ﴿ فبما رحمةٍ من اللهِ لنتَ لهم، ولو كنتَ فظاً غليظَ القلب لانفضُّوا من حولك. . . ﴾.

هذا الخُلُق ضيَّعه كثير من الدعاة اليوم، فظنوا أن القسوة في القول، والغلاظة في الكلام، هو الأسلوب الذي يردع الجاهل عن خطئه، والعاصي عن ذنبه، وأنه من الصلابة في الدين، والغيرة على انتهاك المحارم، وما دروا أنه أسلوب ينفِّر، لا يوصل إلى الغرض المطلوب، وقد قال ﷺ: «يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا» وقوله: «إنكم بُعثتم ميسرين ولم تُبعثوا معسرين».

الرَّأفَةُ بالحَيوانِ

الحديث السادس والثلاثون

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«بينما رجلٌ يمشي بطريقٍ اشتدَّ عليه العطشُ، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب، ثم خرج، فإذا كلبٌ يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلبَ من العطش مثلُ الذي كان بلغ بي، فنزل البئرَ فملأ خُفَّه ثم أمسكه بفيه، فسقى الكلبَ، فشكر الله له فغفر له، قالوا يا رسول الله: وإنَّ لنا في البهائم أجراً، فقال عليه السلام: في كل كبدٍ رطبةٍ أجرٌ».

(رواه البخاري)

الأبحاث العربية

يلهثُ : لَهَثَ الكلب بالفتح يلهَثُ، لَهْثاً، ولُهَاثاً: إذا أخرج لسانه من التعب أو العطش، كذا في الصحَاح للجوهري، ولَهَث الرجل إذا أعيا كقوله تعالى: ﴿ إنْ تحمِلْ عليه يَلْهَثْ أو تتركه يَلْهَثْ ﴾ فإذا حملتَ على الكلب وطاردته نبح وولَّى هارباً، وإن تركته شدَّ عليك ونبح، فيخرج لسانه من التعب.

الثَّـــرَىٰ : الترابُ فوق الأرض ومنه قوله تعالى: ﴿ وما تحت الثَّرَىٰ ﴾ ومنه قولهم: الفرْقُ بينهما كما بين الثَّرى والثُّرَيَّا.

خُفُّــهُ : الخُفُّ هو الذي يُلبسَ في الرِّجْلِ، وجمعُه أخفاف، وسُمِّي خُفًّا لأن الرجل إذا لبســه يَخِفُّ عليه المشيُ، ومنــه المسحُ على الخُفَّيْن، وخفَّ الشيء خِفَّة صَار خفيفاً بكسر الخاء، ومنه قول الشاعر:

لــو أنَّ خِـفَّــةَ عَـقْــلِهِ فــي رِجْـلِهِ
سَـبَقَ الـغَــزَالَ ولم يَـفُـتْــه الأَرْنَـبُ

أمسكه بفيه : أي أمسكه بفمه، يُقال: فم، وأفواهٌ.

البهائـم : الدواب التي تُركب، وكلُّ حيوانٍ يُقال له بهيمة، لأنه أُبهم عن الكلام أي ليس بقدرته النطقُ، قال الشاعر:

أبـنـيَّ إن مــن الــرجــال بـهــيـمــةً
فــي صــورة الـرجـل الـسـمـيـع المـبـصـر
فَـطِنٌ بُـكـلِّ مصـيبــةٍ فــي مَـالِـهِ
فــإذا أُصِـيـبَ بدينِـه لـم يَـشْـعُـر

رطبــة : الرُّطبُ: ضدُّ اليابس، والمراد به هنا الكبد التي فيها رطوبة الحيــاة.

الأبحاثُ النحويّة

(بينما رجل يمشي) بينما ظرف زمانٍ، وأصله (بَيْنَ) زيدت عليه (ما) يُقال: (بَيْنَا) و(بينما) وهما ظرفا زمانٍ بمعنى المفاجأة، وكلٌّ منهما لا بدَّ من إضافته إلى جملةٍ من فعلٍ وفاعل، أو مبتدأ وخبر، ويحتاجان إلى جواب يتمُّ به المعنى، والأفصح في جوابهما ألا يكون فيه (إذ) ولا (إذا). و(بينما) هنا أضيف إلى المبتدأ والخبر، وجوابه: اشتد عليه العطش. (رجل يمشي بطريق) رجلٌ: مبتدأ، وسوَّغ الابتداء به مع أنه نكرة وجودُ الصفة وهي من المسوِّغات، وجملة (يمشي)

من الفعل والفاعل في محل رفع صفة لرجل، والتقدير: بينما رجل ماشٍ بطريق. (فإذا كلبٌ يلهثُ): (إذا) ظرف لما يُستقبل من الزمان، خافض لشرطه منصوبٌ بجوابه، و(كلبٌ) فاعل لفعلٍ محذوف يفسِّره المذكور، لأن من شروط (إذا) أن يليها فعل، فإذا جاء بعدها اسم، أُعرب فاعلاً أو نائب فاعل، والتقدير هنا: فإذا يلهث كلبٌ، مثل: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ تقديره: إذا انشقت السماء انشقت. (بلغ هذا الكلبَ): بلغ فعل ماضٍ، و(هذا الكلب) مفعول به مقدم و(مثلُ الذي بلغ بي): فاعل مؤخر أي بلغ مثلُ ما بلغ بي هذا الكلب. (وإنَّ لنا في البهائم أجراً) «إنَّ» حرفُ توكيد ونصب، تنصب الاسم وترفع الخبر، والجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر إنَّ مقدم، و(أجراً) اسمها مؤخر، وتقديره: إنَّ أجراً لنا في سقي البهائم؟ (في كل كبدٍ رطبةٍ أجرٌ): الجار والمجرور خبر مقدَّم مرفوع، و(رطبة) صفة لكبدٍ، و(أجر) مبتدأ مؤخر.

الأبحاث البلاغية

١ ـ قوله: «كلب يلهث» جملة «يلهث» وقعت حالاً من الكلب، وجيء بصيغة المضارع المفيدة للتجدد والاستمرار، للتنبيه على شدة الحالة التي وصل إليها الكلب، ولم يقل: فإذا كلبٌ لاهثٌ، لأن هذا التمثيل يوضِّح مبلغ العناء والجهد الشديد، وكذلك «يأكل الثرى من العطش» جيء بصيغة المضارع للغرض نفسه.

٢ ـ قوله: «فنزل ثم خرج» بين لفظة (نزل) و(خرج) طِبَاقٌ، لأن معنى (خرج) أي صعد من البئر، وهذا من المحسِّنات البديعية، كقوله تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾.

٣ ـ قوله: «بلغ من العطش مثل الذي بلغ بي» فيه تشبيه يسمى (التشبيه المرسَل المجمَل) لوجود أداة التشبيه وهي (مثل) وحذْف وجه الشبه وهو الجهد والشدة والعناء، فيسمى «مرسلاً مجملاً».

٤ ـ قوله: «فشكر الله له» فيه حذف بالإيجاز، أي: فشكر الله له صنيعه وعمله، وفُهم هذا من السياق، والبلاغةُ في الإيجاز.

٥ ـ قولهم: «وإن لنا في البهائم أجراً؟» استفهام يُراد به التعجب، كأنهم يعجبون من هذا الأمر الغريب، أن يكون لهم ثواب في الإحسان إلى البهائم.

٦ ـ قوله: «في كل كبدٍ رطبةٍ أجرٌ» كنّى عن الحياة برطوبة الكبد، أي: في كل ذي روحٍ من إنسانٍ أو حيوان أجرٌ، فالمراد بالرطبة ـ في الحديث ـ رطوبة الحياة، فالعبارة كناية عن المخلوق الحيّ.

التعريف براوي الحديث

تقدمت ترجمة الراوي أبي هريرة رضي الله عنه في الحديث الأول، وانظر بقية ترجمته وقصة إسلام أمه في الحديث الخامس عشر.

الشرح الأدبي

ديننا الإسلاميُّ الحنيفُ، دينُ الشفقة والرحمة، ودين المحبة والإحسان، وليست الرحمة والإحسان قاصرة على الإنسان، بل تتعداها إلى كل مخلوق، وإلى كل حيوان، وذلك لأن الإسلام دين الحياة بأسمى معانيها، وأبهج صورها، عمّت رحمته العوالم، ووسع إحسانه الخلائق، ولا أدلّ على ذلك من قول الله العلي الكبير: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ ومن هذه الرحمة السابغة، ما أمر به الرسول ﷺ من الإحسان إلى كل ذي روحٍ، من آدمي أو دابة، من برٍّ أو فاجر، كما جاءت بذلك تعاليمه الرشيدة، في قول نبي الرحمة: «إِنَّ ٱللَّهَ كَتَبَ ٱلإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا ٱلْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا ٱلذِّبْحَةَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ ـ أي السكّين ـ وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ».

هذا هو النبي العظيم، البرُّ الرحيم، يرشد أمته إلى طريق الجنة، برحمة العباد والخلق، والإحسان إلى كل مخلوق، من إنسانٍ أو حيوان، ويخبر عن رجلٍ اشتد عليه العطش ـ وكان في فلاة ـ فرأى بئراً، فنزل وشرب منه، ثم صعد، وبينما هو يمشي إذ رأى كلباً يكاد يَهلك من شدة العطش رَقَّ قلبه عليه، وأشفق على حالته، فنزل البئر ـ ولم يكن معه شيء يملأ الماء به ـ فنزع خفَّه فملأه، ثم أمسكه بفمه، لأنه كان يعالج مشقة وعُسراً من الصعود فيستعين بيديه على

الخروج، لصعوبة البئر وعمقه، ثم لمَّا خرج جاء نحو الكلب فسقاه، فشكر الله له صنيعه فغفر له ذنوبه وأدخله الجنة، لرحمته لذلك الكلب، فإذا كان هذا حال الإسلام، مع من أن أحسن إلى حيوان، فكيف به مع من أنقذ إنساناً من المهالك، أو سعى لتخليصه من موتٍ محقَّق؟ وإذا غُفرت ذنوب من سقى كلباً، فما هو الظنُّ بمن سقى مؤمناً موحِّداً وأحياه بذلـك؟.

هذا هو موقف الإسلام من البرِّ والإحسان، فهو دين الرحمة، ودين الشفقة، ودين العطف والبِرِّ بكل مخلوق، من إنسانٍ أو حيوان!! والحضارة الغربية قد أخذت طرفاً من هذا الإحسان، فهي تشفق على القطط والكلاب، فتعتني بطعامها وشرابها وشؤونها، وتنشىء جمعيات للرفق بالحيوان، وتنسى الإنسان الذي كرَّمه الله على سائر المخلوقات، فلا تقيم له وزناً، ولا تسمع أنينه وتقطِّع كبده من الجوع، فكم من أناس هلكوا تحت غائلة الجوع والحرمان، بل هناك مئات الآلاف يموتون في كل عام من آثار الجوع والجفاف، أفلا يحقُّ لنا أن نقول: رفقاً بالإنسان يا معشر البشر، أحسنوا إليهم كما تحسنون إلى أحبابكم من الكلاب!!.

اللهم نوِّر بصائرنا بنور هذا الوحي المجيد، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنك سميعٌ مجيب الدعاء، يا أرحم الراحمين.

* * *

قَوَاعِدُ الإسْلامِ وَأرْكانُه

الحديث السابع والثلاثون

عن عبدالله بنِ عمر بنِ الخطاب رضي الله عنهما ـ وقال له رجل ألا تغزو؟ ـ فقال: إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«بُني الإسلام على خمسٍ: شهادةِ أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسـول الله، وإقامِ الصـلاة، وإيتاءِ الـزكاة، والحـجِّ، وصـومِ رمضان».

(أخرجه البخاري ومسلم)

التعريف براوي الحديث

راوي الحديث هو الصحابي الجليل «عبدالله بن عمر» وقد تقدمت ترجمته في الحديث الحادي عشر، ونزيد هنا كلمة يسيرة، وهي أنه كان شديد التتبع والاقتداء بأحوال الرسول عليه الصلاة والسلام، في عباداته وأحواله، حتى التي هي من خصائصه عليه السلام، والتي لا يُدرك معناها، وذلـك من شدة حرصه على اتباع الرسول الكريم والاقتداء بسيرته العطرة، روي أن مالكاً سئل: هل سمعت الشيوخ يقولون: من أخذ بقول ابن عمر، لم يدع من الاستقصاء شيئاً؟ ـ أي لم يترك من تحري أفعال الرسول شيئاً ـ قال: نعم. فهذه شهادة من أكابر التابعين بحرص ابن عمر علـى هدي الرسول الكريم، وكان رسول الله ﷺ يثني عليه ويشهد له بالصلاح ويقول: «نِعْمَ ٱلرَّجُلُ عَبْدُٱلله» وفي رواية: «إنَّ عَبْدَٱلله

رَجُلٌ صَالِحٌ» كما رواه مسلم في فضائل الصحابة، وناهيك بهذا إشادة بمآثره وفضائله، رضي الله عنه وأرضاه.

سبب الحديث

لم يذكر في الحديث السابق سبب الحديث، ولا سبب السؤال، وقد جاء موضحاً في كتاب التفسير من صحيح البخاري، ولفظه هكذا: يا أبا عبد الرحمن، ما حملك على أن تحج عاماً، وتعتمر عاماً، وتترك الجهاد في سبيل الله، وقد علمتَ ما رغَّبَ الله فيه؟ فقال ابن عمر: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «بُني الإسلام على خمسٍ . . .» وذكر الحديث.

وأوضح منه في بيان الباعث على إيراد الحديث والرد على السائل في تركه للقتال، ما صرَّح به البخاري في مكان آخر عند تفسير سورة البقرة حيث ذكر أنه أتى رجلان ابن عمر في فتنة ابن الزبير فقالا: (إن النَّاس قد ضُيِّعوا وأنت ابن عمر، وصاحبُ رسول الله ﷺ، فما يمنعك أن تخرج؟ قال: يمنعني أن الله حرَّم دمَ أخي. فقالا: ألم يقل الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾؟ فقال: قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدينُ لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله). ومن هذه القصة نفهم أمرين:

الأول: أن السؤال لم يكن عن جهاد الكفار، بل عن القتال بين المسلمين.

الثاني: أن ابن عمر كان لا يرى ذلك من القتال في سبيل الله، بل كان يراه من الفتن، التي ينبغي الفرار منها، وعدم التلوث بدمائها، وإن كان البعض يراها قتالاً مشروعاً، كقتال البغاة الخارجين على الإمام، عملاً بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾.

وعلى كل حال فالأمر حدث عن اجتهادٍ بين الصحابة، وكلُّهم مأجور على اجتهاده، منهم من له أجر، ومنهم من له أجران، ولا كلام لأحدٍ بعد أن قال الله فيهم: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾!!.

يبني : البناءُ هو تشييد البيت بالحجارة، يُقال بَنَى يَبْني بِناءً، وبنياناً، كما قال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بنيانَهُ على تَقْوى من اللهِ ﴾، وقال تعالى عن امرأة فرعون: ﴿ ربِّ ابنِ لي عندكَ بيتاً في الجنة ﴾ وكلُّ من أشادَ بيتاً، أو أقام سكناً يُقال: بناه. قال الشاعر:

بناها فابتنَى سَبْعَاً شِدَاداً
بلا عَمَدٍ يُرَيْنَ ولا رجالِ

إقام الصلاة : أصلُه إقوام لأنه من أقام يُقيم، حذفت الواو فصارت إقام، والقاعدةُ أن يُعوَّض عنها التاء فيقال: إقامة الصلاة، وقد ورد بلفظ «وإقامة» وإنما لم تعوَّض هنا لأنها أضيفت، والإضافة عوضٌ عن التاء، ومنه قوله سبحانه: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَاةِ ﴾. ومعنى الصلاة في اللغة: الدعاءُ، ومنه قوله سبحانه: ﴿ وصَلِّ عليهم إنَّ صَلاَتَك سَكنٌ لهمْ ﴾ وسميت صلاةً لأنها صلة بين العبد وربه، وفيها ثناء وتمجيد ودعاء.

وإيتاء الزكاة : الإيتاء مصدر آتى بمعنى أعطى، وأما «أتى» فمعناه جاء، والزكاة في اللغة: النماء والطهارة، يُقال: زكى الزرعِ أي نما، وزكّى نفسه أي طهَّرها: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زكَّاها، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ وسميت «زكاة» لأنها طهارة للمال والنفس من أوضار الشح والبخل كما قال سبحانه: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾.

والحجّ : معنى الحج في اللغةِ: القصدُ، وفي الشرع: القصدُ إلى معظَّم، وهو البيت العتيق لزيارته والطواف حوله للنُسكِ، قال تعالى: ﴿ وأذِّنْ في الناس بالحجِّ يأتوك رجالاً . . . ﴾ أي: يسعون مشياً على أرجلهم.

وصوم رمضان: الصومُ في اللغة: الإمساك، والمراد به الإمساك عن الطعام والشراب والمفطرات.

الأبحاث البلاغية

١ ـ قوله: «بني الإسلام» فيه استعارة مكنيّة، فقد شبُّه الإسلام ببناء شامخ، قام على أسس ودعائم متينة، فذكر المشبَّه، وطوى ذكر المشبَّه به، وذكر ما هو من خواصِّه وهو البناء على طريقة الاستعارة المكنية، ويجوز أن يكون استعارة تمثيلية، وذلك بأن يُمثّل الإسلام مع أركانه الخمسة بخباءٍ أو فسطاطٍ، أُقيم على خمسة أعمدة، منها أربعة قصيرة في الأطراف الأربعة، ومنها واحد أعلى في الوسط هو قطب رحاها، بحيث لو سقط هذا العمود الأوسط، سقطت الخيمة، وزال عنها اسم البيت وصورته بالكلية، وهو كلمة التوحيد «شهادة أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله» والأركان الأربعة، وهي الدعائم التي تسند البيت هي: «الصلاة، والزكاة، والصومُ، والحج» فبحصولها يكمل البناء، وتتم المنفعة، وما أجمله من تشبيه تمثيلي رائع!!.

٢ ـ قوله: «وإقام الصلاة» أطلق الصلاة وأراد بها الصلوات الخمس المفروضة، فهو مجاز مرسل من باب إطلاق البعض وإرادة الكل، وفي لفظ (إقام) إشارة إلى الإتيان بالصلاة على الوجه الكامل، بشروطها وخشوعها، وآدابها، ومواقيتها، وهذا هو السرُّ في تعبير القرآن عن الصلاة بالإقامة مثل: ﴿ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ و﴿ أَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ و﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ و﴿ ٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ولا نجد في القرآن ذكر الصلاة بدون الإقامة، لأن المقصود هو الصلاة الخاشعة المنيبة، التي تعطي ثمرتها، كما قال سبحانه: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾.

٣ ـ قوله: «وإيتاء الزكاة» فيه حذف أحد المفعولَين للعلم به، لأن الإيتاء متعدٍّ إلى مفعولين، والتقدير: وإيتاء الزكاة لمستحقيها، ففيه إيجاز بالحذف.

٤ ـ قوله: «والحج» فيه حذفٌ أيضاً فهو مجاز بالحذف، أي: وحج بيت الله العتيق، والألف واللام فيه بدل من المضاف إليه.

ما أعظم الإسلام دين الله الخالد، وشرعه المستقيم، وصراطه الموصل إلى جنة الخلد والنعيم!! إنه الدين الذي ارتضاه الله لعباده، وبعث به رسله وأنبياءه، وجعله سبيل النجاة من عذابه، وطريق السعادة في الدارين ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾.

هذا الدين العظيم يقوم على دعائم وأركان، لا يصلح بدونها، ولا يقوم بغيرها، وهي أساسه وعماده، ومظهر خلوده وبقائه، ولو انهدَّ ركنٌ منها تداعى ذلك الصرح إلى السقوط والانهيار.

وأول دعائم هذا الصرح الشامخ: هو الشهادتان، أن يشهد المسلم «أن لا إلَه إلا الله وأن محمداً رسول الله» فهذه كلمة التوحيد والإيمان، وهي أعظم أركان هذا البناء، وهي مفتاح الجنة الذي لا يفتح بدونها، ولهذا قال عليه السلام: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهِ إِلاَّ الله دَخَلَ الْجَنَّةَ»، وبهذه الكلمة ـ كلمة التوحيد ـ يعصم الإنسان نفسه وماله من المهالك والمعاطب، وينجيها من الخلود في نار الجحيم، كما قال عليه أفضل الصلاة والتسليم «أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلَه إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلاَّ بحقِّ الإسلام، وحسابهم على الله تعالى».

أما الدعامة الثانية: فهي الصلاة، التي هي عماد الدين، وركنه الأعظم والأهم، بعد الشهادة وكلمة التوحيد، وهي صلةٌ بين العبد وربه، تقف بالعبد بين يدي ربه، خاشعاً منيباً، بتذلل وخضوع، فترتفع بروحه إلى مقام القدس، وتجعله يشعر بلذة العبادة، لأنها حوار بين المخلوق والخالق، ومناجاة بين المحبِّ ومحبوبه، وكان ﷺ إذا حَزَبه أمر ـ أي أصابته شدة وكرب ـ قال: «أرحنا بها يا بلال» فيدخل في الصلاة، فينسى الدنيا وهمومها، والحياة ومتاعبها، فالصلاة معراج العارفين، ومفتاح السالكين، وراحة المؤمنين. وقد ضرب لها ﷺ مثلاً في غاية الوضوح والجمال، مثّل لها بالجسم يحتوي على أعضاء، ولكنَّ الأعضاء تختلف قيمةً وقدراً، فالعين ليست كاليد، والرِّجلُ ليست كاللسان، والأذن ليست

كالقلب، فمن الأعضاء ما يكون فقده نقصاً، كاليد إذا قطعت لا يموت الإنسان، وكالعين إذا فُقئت لا يفقد الإنسان الحياة، ولكن إذا تعطّل القلب، أو قُطع الرأس، يموت الإنسان ولا يبقى فيه جنس الحياة، فمثل الصلاة كمثل الرأس للجسد، هكذا مثّله عليه الصلاة والسلام بقوله: «أَلَا لَا دِيْنَ لِمَنْ لَا صَلَاةَ لَهُ، إِنَّمَا مَنْزِلَةُ الصَّلَاةِ مِنَ الدِّيْنِ كَمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الجَسَدِ».

أما الدعامة الثالثة: لذلك البناء الشامخ: فهي (الزكاة) التي هي عون للفقير والمسكين، تكفكف دمعة البائس الحزين، بما يقدمه له أخوه المؤمن، من المساعدة المالية، لقضاء حاجاته، وتخفيف آلامه، ثم هي بعد ذلك تقوّي الروابط الاجتماعية بين الغني والفقير، فيشعر كلٌّ منهما بالأخوّة الإيمانية، وهي مع هذا كله طهارة للنفس، وتزكية للمال.

أما الدعامة الرابعة: فهي صوم رمضان، بانقطاع المؤمن عن شهوات البطن، والجنس، تقرباً لله عزّ وجلّ، والصوم مدرسة روحية، ترتفع بالعبد من حيوانية الأرض، إلى ملائكية السماء، فتجعله كالملائكة المقربين، الذين لا يأكلون ولا يشربون، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ويغرس فيه الصوم حبَّ الشفقة والحنان على بني الإنسان، فيشعر بألمهم، ويحسُّ بمشاعرهم، وتمتد يده إلى العطاء والسخاء، ولله تلك الحكمة البليغة التي قالها يوسف الصدِّيق، حين سئل لم تجوع وأنت على خزائن الأرض؟ فقال: أخشى إذا أنا شبعتُ أن أنسى الجائع، ويا لها من حكمة فاقت كثيراً من المواعظ.

أما الدعامة الخامسة: فهي الحج لبيت الله العتيق، الذي يلتقي فيه المؤمنون في مؤتمر عالمي سنوي، يلتقون فيه على طاعة الله، ويتدارسون فيه أوضاعهم ومصالحهم، لا يتميز فيه غني عن فقير، ولا أمير عن أجير، الكل بلباسٍ واحد، يتشبهون بأهل المحشر يوم القيامة، فما أجمل الإسلام، وما أسمى فرائضه وأركانه؟!.

* * *

نَبيُّ الرَّحمةِ يُعلِّمُ الأعرابيَّ الجاهِلَ

الحديث الثامن والثلاثون

عن انس بن مالك رضي الله عنه قال:

«بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ في المسجد، دخل رجلٌ على جملٍ فأناخه في المسجد ثم عقله، ثم قال: أيكم محمد؟ ـ والنبيُّ متَّكِيءٌ بين ظَهْرَانَيْهِمْ ـ فقلنا: هذا الرجل الأبيضُ المرتفق، فقال له الرجل: ابنَ عبدِ المطَّلب! فقال له النبي ﷺ: قد أجبْتُك، فقال الرجل: إني سائلك فمشدِّدٌ عليك في المسألة، فلا تجدْ عليَّ في نفسك، قال: سلْ عمَّا بدا لك، فقال: أسألك بربك وربِّ من قَبْلَك: آلله أرسلك إلى الناسِ كلهم؟ قال: اللهمَّ نعم.

قال: أنشدك بالله تعالى: آلله أمركَ أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال: اللهمَّ نعم.

قال: أنشدك بالله تعالى: آلله أمرك أن نصومَ هذا الشهر من السَّنة؟ قال: اللهمَّ نعم.

قال: أنشدك بالله تعالى: آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقةَ من أغنيائنا فتردَّها على فقرائنا؟ قال: اللهمَّ نعم.

فقال الرجل: آمنتُ بما جئتَ به، وأنا رسول مَنْ ورائي مِنْ قومي، وأنا «ضِمَامُ بنُ ثعلبة» أخو بني سعد بن بكر».

(رواه البخاري ومسلم)

فأناخه : أناخ الجَمَلَ: أقعده فبرك على الأرض.

عقله : عَقَل البعيرَ يعقِلُه عقلاً: إذا شدَّ ذراعه مع ركبته جميعاً بحبل وذلك الحبلُ هو العقال، قاله الأصمعي.

أيكم محمد؟ : أي من منكم الذي يسمى محمداً؟ وفي رواية أبي داود: أَيُّكم ابنُ عبدِ المطلب؟ فنسبه إلى جدِّه، لأنه أشهر في العرب إذ تُوفِّي أبوه صغيراً، ولم يقل: أيكم رسولُ الله؟ لجهله بأدب الخطاب.

متكىء بين ظَهْرانَيْهِم: الاتكاء: الاعتماد على عصا أو يد أو مسندةٍ أو غيرها، والاتكاء في الجلوس يكون بمعنى الاعتماد على اليد كالمضطجع الذي استند على شيء للراحة. و(ظهرانَيْهم) تثنية ظهر، مع زيادة الألف والنون للمبالغة، ويقال: جلس بين أظهرهم بالجمع أيضاً، ومعناه جلس بينهم وهم حافُّون به، والعرب تُقحم الظهر للدلالة على المظاهرة والحماية، كأنه تقوَّى واحتمى بجماعته وقومه.

الأبيض المرتفقُ: قال في القاموس: المرتفقُ: المتكىء على مرْفق يده أو على المخدَّة، وفي رواية النسائي «الأمغرُ المرتفق» ومعناه الذي في وجهه حمرةٌ في بياضٍ صافٍ، وهذا هو المعروف من أوصافه وشمائله عليه السلام، أنه كان أبيض مشرباً بحمرة.

ابنَ عبد المطلب: نداءٌ له بحذف أداة النداء أي يا ابن عبد المطلب، كقوله تعالى: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَاةِ ﴾ أي: يا رب.

فلا تجدْ عليَّ في نفسك: أي لا تغضب عليَّ، ولا تحمل في نفسك البغض لي، إذا أثقلتُ عليك في السؤال، وأغلظتُ عليك في القول، وهي مأخوذة من المَوْجدة وهي الغضبُ والانفعالُ، يريد الأعرابي أن يقول: سأسألك وأغلظُ لك في السؤال، فلا يكن في صدرك حرج من ذلك، وهو تمهيدٌ بالاعتذار قبل الإثقال، وقبل أن تشتعل نار

الغضب، فيكون هذا بمثابة وضع الماء قبل النار، حتى إذا تحركت نار الغضب لا تجد لها ضِرَاماً، فتعود برداً وسلاماً، وهو أسلوب لطيف.

بدا لك : ظهر لك، يُقال: بدا له الأمرُ إذا ظهر وانكشف.

أنشدك الله : أي أسألك بالله واستحلفك به أن تصدقني فيما أسألك عنه، وهو أسلوب غليظ ولكنه قدَّم له بالاعتذار.

آلله أمرك : هذه همزة الاستفهام أي هل الله عزّ وجلّ أمرك أن نفعل ذلك؟ أم هو من عند نفسك؟.

الصلوات الخمس: التعريف في الصلوات للعهد الذهني أي الصلوات المفروضة في كل يوم وليلة، وهي الصلوات الخمس التي أشارت إليها الآية الكريمة ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين ﴾.

هذا الشهر : المراد به شهر رمضان، فالتعريف هنا كسابقه للعهد الذهني، المعروف في ذهن كل مؤمن، من فريضة صيام شهر رمضان.

هذه الصدقة : المراد بها فريضة الزكاة، كقوله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ أي: خذ من أموالهم فريضة الزكاة.

الأبحاث البلاغية

١ ـ قوله: (جلوس في المسجد) أطلق المسجد وأراد به (مسجد المدينة) فهو من باب العام أُريد به الخاص لشهرته وفضله.

٢ ـ قوله: (أناخ بعيره في المسجد) فيه حذف المضاف، أي: أناخ بعيره على باب المسجد، كقوله سبحانه: ﴿ وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ أي: أهل القرية ففيه مجازٌ بالحذف، ويدلُّ عليه ما في رواية أبي داود: «فأناخ بعيره على باب المسجد»، ولو أدخل البعير إلى داخل المسجد لم يُؤمن تلويثه.

٣ ـ قوله: (والنبيُّ متكيء بين ظهرانَيْهم) جملة اعتراضية بين السؤال

والجواب، والفائدة من هذا الاعتراض بيان تواضع الرسول بالجلوس مع أصحابه دون تميُّزٍ عنهم، والألفُ والنون في قوله «ظهرانيهم» للمبالغة والتكثير.

٤ ـ قوله: (هذا الرجل الأبيضُ المتكئ) فيه إطنابٌ بالتوسع والزيادة في الجواب، وكان يكفي أن يقولوا: هذا الرجل، وفائدة الإطناب هنا كمال التعريف والتشريف لرسول الله عليه السلام.

٥ ـ قوله: «قد أجبتك» جملة إنشائية بمعنى نعم، أو وعدٌ بالإجابة أُخرج في صورة الماضي لتحقيق وقوعه.

٦ ـ قوله: (سائلك فمشدِّدٌ عليك في المسألة فلا تجدْ عليَّ في نفسك) فيه حسنُ التمهيد بالاعتذار قبل الزلة، وبين «سائل» و«المسألة» جناسُ الاشتقاق.

٧ ـ قوله: (أسألك بربك ورب من قبلك) تأكيد الجملة بالقسم، لأن السائل شاكٌ في أمر الرسالة، فيحتاج إلى مؤكِّد أو أكثر، وفي الكلام اقتضاب للسؤال تكمِّله رواية مسلم، ولفظها: يا محمد أتانا رسولُك فزعم أنك تزعم أن الله أرسلك.

٨ ـ ولا يخفى أن في قوله: قال: «اللهم نعم» من التأكيد ما تؤديه صيغة القسم أو تزيد، لأن معنى «اللهم نعم» أي الله شهيد على ما أقول، فاللهمَّ اشهدْ.

٩ ـ قوله: (نصلِّي الصلوات) بينهما جناس الاشتقاق وهو من المحسِّنات البديعية. (من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا) بين لفظ (أغنياء) و(فقراء) طباق يسمى طباق الإيجاب، وهو من المحسِّنات البديعية.

١٠ ـ وفي تكرار (أنشدك بالله) ثلاث مرات، تنبيهٌ على عظم أهمية ما يسأل عنه ليتثبت من الأمر، ففيه إطناب بتكرار القسم لفخامة الأمر، والله أعلم.

التعريف براوي الحديث

تقدمت ترجمته في الحديث الثالث والعشرين.

الشرح الأدبي

ما أعظم الإسلام دين الله الخالد، وشرعه الدائم إلى يوم الدين، إنه سفينة

النجاة من ركبها نجا، ومن تركها غرق، ولا سعادة للإنسانية إلا بتطبيق منهج الإسلام، الذي أنزله الله ليكون منقذاً للبشرية، وقائداً لهم إلى جنة الخلد والنعيم، وقد بعث الله محمداً هادياً ومرشداً إلى هذا الدين القويم، فبلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، فجزاه الله خيراً عن الإسلام والمسلمين.

الإسلام أشبه ما يكون بمدرسة تربوية، تتنوَّع مناهجها الدراسية، وتختلف أساليبها التعليمية، ولكنها كلها في سبيل إسعاد الإنسان، وإخراجه من ظلمات الجهل، إلى نور العلم والعرفان.

هذا هو أعرابي يقدم على رسول الله عليه السلام، بعد أن بلغه أمر الإسلام، ووصله بعض أخباره وتكاليفه وأحواله، يأتي على جملٍ يركبه سائلاً متعلماً، يريد طريق الهداية، وسبيل النجاة، ويدخل على رسول الله عليه السلام بعد أن يعقل جمله بفناء المسجد، ثم يُقبل يسأل الصحابة أيكم محمد؟.

لم يكن رسول الله يتميز عن أصحابه في مجلسٍ، أو ملبس، أو هيئة كما يفعل الملوك والعظماء، بل كان من خلقه التواضع، يجلس على الأرض، ويحادث أصحابه كواحدٍ منهم، ويأكل في بعض الأحيان معهم، وكأنه إنسان عاديٌّ، لا يحب الشهرة وحبَّ الظهور، فلم يكن الغريب القادم، يفرِّق بين الرسول وصحابته، لتواضعه وبعده عن مظاهر العظمة والكبرياء، فيضطر أن يسأل عنه، كما فعل هذا الأعرابي حين دخوله، ولم يكن هذا الأعرابي يعرف أسلوب مخاطبة العظماء، ولا يتقن طرق المصانعة في الحديث، ولا يعرف نظم (البروتوكولات) التي استحدثها الناس، لأنه رجل عاش على الفطرة، فهو على سذاجته وبساطته يسأل: أيكم محمد؟ ولا يقول: أيكم الملِكُ العظيم الذي يدَّعي النبوة والرسالة، أو أيكم رسول الله؟ وهنا يشير له الصحابة فيقولون: «هذا الرجل الأبيض المتكىء» ولا يزيدون على ذلك بذكر الألقاب الفخمة، التي تُخلع عادة على الكبراء والعظماء، لأنهم يعلمون كراهيته لها عليه الصلاة والسلام، وهكذا شأن النفس العظيمة الأبيَّة، ويناديه الأعرابي (ابنَ عبد المطلب) فلا يغضب الرسول ولا يعبس في وجهه، بل يقول له: «قد أجبتُك» أي سلْ ما تريد، فأنا حاضر أجيب سؤالك، ولا أرفض مقالك، فيقول له الأعرابي بفطرته البدوية: (إني

سائلك فمشدِّدٌ عليك) فيجيبه الرؤوف الرحيم، صاحب الخُلق العظيم: «سلْ عمّا بدا لك» فإني لا أنهر السائل، ولا أغضب على أحد، فينطلق الأعرابي يبثُّ إليه ما في قرارة نفسه، من ظنونٍ وتساؤلات، وقبل أن يسأله ينشده ويحلّفه فيقول: (أسألك بربك وربِّ من قبلك: آللهُ أرسلك إلى الناس كلهم؟) أي هل أنت رسولٌ لجميع الخلق كما تدَّعي وتقول، فيجيبه الرسول اللهم نعم، والله شهيدٌ على ما أقول.

ويسأله سؤالاً آخر، مقسماً عليه بالله أن يقول الحقيقة ولا يخفيها: هل اللهُ أمرك أن نصلي الصلوات الخمس؟ فيجيبه الرسول: اللهم نعم، ثم يسأله عن الصوم، والزكاة، وفي كل مرة يناشده بالله، فيجيبه الرسول نعم، فيعلن الأعرابي إسلامه مصدِّقاً النبي العظيم، في كل ما جاء به وأخبر من شرائع دين الإسلام، ولا يكتفي الأعرابي بإشهار إسلامه، بل يريد أن يكون جندياً من جنود الإسلام، وداعياً إلى الله إلى هذا الدين الحق، الذي ارتضاه الله لعباده، فيقول: «آمنتُ بما جئتَ به، وأنا رسولٌ من ورائي من قومي» وهكذا ينتشر الإسلام في عشيرته، بسبب صدقه وإخلاصه، فما كان سؤاله للرسول تعنتاً، إنما كان تثبتاً، ويا له من أعرابي لبيب، التقى بالنبي الحبيب، وفي جلسةٍ واحدة انتقل من ظلمات الشرك، إلى نور التوحيد والإيمان!!.

* * *

الزواج طريق العفة والسعادة

الحديث التاسع والثلاثون

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغضُّ للبصر، وأحصنُ للفرْجِ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجَاءٌ».

(رواه البخاري ومسلم)

الأبحاث العربية

يا معشر الشباب : المعشرُ: الجماعةُ والطائفةُ من الناس، وهم الذين يجمعهم وصف واحد، فالشيوخ معشر، والشباب معشر، والنساء معشر، وأقلُّه ثلاثة، سُمُّوا معشراً لاجتماعهم ومعاشَرة بعضهم لبعض، مأخوذ من العِشرة وهي الصحبة، قال الجوهري: الواحد معشر، وجمعه معاشر، وهم جماعاتُ الناس، والعَشِير: المعاشِرُ.

البـاءةُ : النكاحُ والوطءُ، هذا أصلُه اللغوي، وقيل: الباءةُ مُؤَنُ وتكاليفُ الزواج، قال في الصحاحِ: الباءةُ مثل البَاعة لغةٌ في المباءة، ومنه سُمِّي النكاحُ باءً، وباءةً، لأن الرجل يتبوأ من أهله أي يستمكن منها، كما يتبوأ من داره. وقال العيني في شرحه على البخاري

٢٠/٦٨: والأولى حمله على الأعم، من القدرة على الوطء، ومؤن التزوج.

أغضُّ للبصر: يُقال: غضَّ بَصَرَهُ إذا خفضه وصرفه عما لا يحلُّ، قال الشاعر:

فَغُضَّ الطرف إنك من نُمَيْرٍ
فلا كعباً بلغت ولا نزارا

والصيغة صيغة تفضيل أي أشدُّ حفظاً لغض البصر، ومنه قوله تعالى: ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ﴾.

وأحْصَنُ للفَرْجِ: أي أشدُّ حفظاً وصيانةً لفرج الإنسان، وهو أفعل تفضيل، من الحصانة بمعنى العِفَّة، قال تعالى: ﴿ ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المُحْصَنَاتِ ﴾ أي العفيفات الطاهرات. والفرجُ: عورةُ الرجل، وعورةُ المرأة، يُطلق على كلٍّ منهما، وليس خاصاً بالمرأة كما يذهب إليه العامة، قال تعالى: ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون. إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم... ﴾ الآية. والمراد بقوله: (أحصن للفرج) أي أبعدُ عن الوقوع في الزنى.

فإنه له وِجَاءٌ: الوجاءُ بكسر الواو: ما يُخفِّف شهوة الإنسان إلى الجماع، قال الجوهري ١/٨٠: الوِجاءُ: رَضُّ عروق البيضتين حتى تنفضخ، فيكون شبيهاً بالخِصاء، ويُقال: وجأْتُ عنقه إذا ضربته، ومثله وجأته بالسكين أي ضربته به، ومعنى (فإنه له وجاء) أي قاطع لشهوته مذهِبٌ لها.

الأبحاث البلاغية

١ - قوله: «من استطاع منكم الباءة» كَنَّى عن الجماع بالباءة وهي كناية لطيفة، وأصلُ الباءة المقدرة على النكاح، وهذه الكناية من الآداب النبوية الكريمة.

٢ ـ قوله: «من استطاع» و «من لم يستطع» بينهما طباقٌ يسمى طباق السلب، كقوله تعالى: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ ﴾. وهو من المحسِّنات البديعية.

٣ ـ قوله: «أغضُّ.. وأحصنُ» كلاهما من صيغ المفاضلة فهو أفعل تفضيل، أي أشد غضاً للبصر، وأشدُّ عفّةً وحصانةً للفرج.

٤ ـ قوله: «ومن لم يستطع» فيه مجاز بالحذف ـ أي بحذف بعض الكلمات ـ أي ومن لم يستطع النكاحَ والجماعَ، لعجزه أو لسببٍ آخر من الأسباب.

٥ ـ قوله: «فعليه بالصوم» أي: فلْيزم الصَّوم ولْيُكْثِر منه لأنه يُقلِّل الشهوة.

٦ ـ قوله: «فإنه له وِجَاءٌ» فيه تشبيه بديعٌ، أي: فإن الصوم كالوجاء له حُذفت أداةُ التشبيه، ووجهُ الشبه، فأصبح التشبيه بليغاً، كما نقول: محمد قمرٌ أي كالقمر، وهنا حذفت الأداة ووجه التشبيه أي الصوم كالوجاء للراغب في الزواج يصونه ويحفظه عن المفاسد، بما يضفي عليه من العبادة الروحية الصافية.

قصة تتعلق بورود الحديث

لهذا الحديث الشريف قصة رواها الإمام البخاري في صحيحه ٢٠/٦٦ من عمدة القاري للعيني، وهي ما رواه علقمة بن قيس قال: كنت مع عبدالله بن مسعود، فلقيه عثمان بمنى، فقال: يا أبا عبد الرحمن وهي كنية عبدالله بن مسعود ـ إن لي إليك حاجة، فَخَلَيا، فقال عثمان: هل لك يا أبا عبد الرحمن في أن نزوِّجك بِكْراً تذكِّرك ما كنت تعهد؟ ـ وفي رواية لمسلم: لعلَّها أن تذكِّرك ما مضى من زمانك ـ فلما رأى عبدالله أن ليس له حاجة إلا هذا، أشار إليَّ فانتهيتُ إليه وهو يقول: أما لئن قلت ذلك، لقدْ قال لنا النبي ﷺ: «يا معشر الشباب...» الحديث فذكره.

التعريف براوي الحديث

هو عبدالله بن مسعود الهُذَلي، نسبة إلى (هُذَيْل) حيٌّ من مضر، يكنى أبا

عبد الرحمن، وهو من أقدم الناس إسلاماً وصحبة، وهو سادس من أسلم، وأول من جهر بالقرآن في وجوه المشركين بمكة، فهـو من السابقين الأولين من المهاجرين، وكان من أكثر الصحابة علماً وقرآناً، ومن ألزمهم للسنة، فهو فقيه، مفسِّر، محدِّث، وهو أحد القراء الأربعة الذين أمر الرسول الكريم بالأخذ عنهم، شهد بدراً والمشاهد بعدها، وكان ملازماً لرسول الله عليه السلام، يحمل نعليه، ووسادته، ومِطْهرته، حتى كان يظن الناس أنه من أهل بيت النبي لكثرة دخوله عليه، شهد فتوح الشام، وبعثه عمر رضي الله عنه إلى الكوفة ليعلِّم أهلها دينهم، فمكث بها مدة ثم رجع إلى المدينة المنورة وعاش فيها يعلم الناس ويفقههم أمور الدين، حتى توفي بها سنة ٣٢ هـ رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

الشرح الأدبي

مع باقةٍ جديدة من هدي سيد المرسلين، في توجيه الشباب، بإنارة الطريق أمامهم، إلى حياة العزة والعفة، وطريق الفضيلة والطهر، ليبقى لهم صفاؤه ونقاؤه، فهم عماد الأمة، وأملها بعد الله عزّ وجلّ، وقد أسدى الرسول لهم النصح، وأرشدهم إلى سبيل السعادة، فأمرهم بالزواج المبكِّر، الذي يحصِّن به الإنسان نفسه، من مزالق الهوى، ونزغات الشيطان «يَا مَعْشَرَ ٱلشَّبَابِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ مِنْكُمُ ٱلْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ». فالزواج في الإسلام عفَّةٌ وحصانة، وبناءٌ لكيان أسرةٍ فاضلة، تعيش على الطهر وتقوى الرحمن، وليس هو مجرد علاقةٍ جسدية، ولذَّة عارضة، يستمتع بها المرء في حياته، ليخفِّف من وطأة تلك الشهوة الجامحة، ويقضي أربه ثم ينصرف، بل هو ارتباط بحياة جديدة، تسودها الألفة والمحبة، والطهر والعفاف، فيبني الشاب عُشَّ الزوجية، على أساس الطهر والفضيلة، ويؤسس البيت المسلم، الذي يمدُّ المجتمع بالأبناء والبنات، الذين عاشوا في كنف الأسرة الفاضلة، فكانوا للمجتمع والأمة عمادها ودعامها.

وإنه لتوجيه نبويٌ كريم، للشباب خاصة، وللأمة عامة، أن يسلكوا الطريق السويَّ، وهو طريق الزواج الشرعي، الذي به تحفظ الأمة أفرادها، وتصون عزتها

وكرامتها، وهو الذي رغّب القرآن فيه وحثّ عليه، وأمر بتيسير أسبابه، وتسهيل تكاليفه وشؤونه، فقال تقدست أسماؤه: ﴿ وَأَنكِحُوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم، إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم ﴾ والأيامى جمع أيِّم، وهو كلُّ من لا زوج له من الرجال والنساء، فالشاب غير المتزوج يسمى أيِّماً، والفتاة التي لا زوج لها تسمى أيِّماً، فالله الحكيم العليم، شرع الزواج لِحِكَمٍ سامية، وغاياتٍ نبيلة، وفرض على الناس تيسير أسبابه، لأنه هو الطريق السليم للتناسل، وعمران الأرض بالذرية الصالحة، ولم يشأ الله تعالى أن يترك الإنسان، كغيره من المخلوقات الكثيرة، فيدع غرائزه تنطلق دون وعي، ويترك الاتصال بين الذكر والأنثى فوضى، بلا ضوابط ولا قيود، كما هو الحال عند الحيوان، بل وضع النظام الملائم، الذي يحفظ للإنسان كرامته، ويصون له شرفه، فجعل اتصال الرجل بالمرأة، اتصالاً طاهراً، نظيفاً بريئاً من القذارات والنجاسات، وبهذا وضع للغريزة طريقها المأمون، وحمى النسل من الضياع، والأسرة من التشتت والتشرد. . ثم جاءت توجيهات النبوة، لتكمِّل الطريق، لحياة العفة والصيانة، فأمر الرسول صلوات الله عليه الشباب بالزواج، وخصَّهم بالخطاب لأن الغالب فيهم وجود قوة الداعي إلى النكاح، بخلاف الشيوخ، فالخطر على الشباب أعظم، والانحراف فهم أكبر وأضخم، ثم دلَّهم عليه الصلاة والسلام إذا لم يتيسر لهم الزواج المبكِّر، إلى علاج مخفِّف مهدِّىء، لا يقضي على جذوة الشهوة من أصلها، ولا يقطعها ويذهبها كالإخصاء للحيوان، بل يخفِّف من غلوائها وطغيانها، ألا وهو الصوم، فقال صلوات الله عليه: «وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ» أي: فإن الصوم قاطع لتلك الشهوة، مخفِّف لها، فهو يشبه الخصاء مع أمن ضرره.

وهكذا يرشدنا معلِّم البشرية، ومهذب الإنسانية، إلى طريق الحياة الهنيئة السعيدة، التي بها نصون الشباب، ونحفظ كرامتهم، ونُثري المجتمع بطريق الزواج الإسلامي بالذرية والبنين، ليعيشوا سعداء هانئين.

* * *

الاجتماعُ على ذِكرِ اللهِ

الحديث الأربعون

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«إنَّ للهِ ملائكةً يطوفون في الطُّرق، يلتمسون أهل الذِّكر، فإذا قوماً يذكرون الله، تنادَوْا هلُمّوا إلى حاجتِكم، فيَحُفُّونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم ـ وهو أعلمُ منهم ـ ما يقول عبادي؟ قالوا: يقولون يُسبِّحونك، ويُكبِّرونك، ويحمدونك، ويمجِّدونك، فيقول: هل رأوني، فيقولون: لا واللهِ ما رأوك، فيقول: وكيف لو رأوني؟ قال: يقولون لو رأوكَ كانوا أشدَّ لك عبادة، وأشدَّ لك تمجيداً، وأكثر لك تسبيحاً. قال فيقول: فما يسألوني؟ قال: يسألونكَ الجنة، يقول: فهل رأوها؟ قالوا: لا واللهِ يا رب ما رأوها، فيقول: فكيف لو أنهم رأوها؟ فيقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشدَّ عليها حرصاً، وأشدَّ لها طلباً، وأعظم فيها رغبة. قال: فممَّ يتعوَّذون؟ فيقولون من النار، فيقول: وهل رأوها؟ يقولون: لا واللهِ ما رأوها، فيقول: فكيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها كانوا أشدَّ منها فراراً، وأشدَّ لها مخافة. فيقول: فأُشهدكم أني قد غفرتُ لهم، فيقول مَلَكٌ من الملائكة: فيهم فلانٌ ليس منهم

إنما جاء لحاجة، فيقول الله تعالى: وله قد غفرتُ، هم القومُ لا يشقى بهم جليسهم»

(رواه البخاري ومسلم)

الأبحاث العربية

يطوفون في الطرق: أي يدورون في الشوارع والطرقات، ليتعرفوا على عباد الله الصالحين، وطاف: دار ومشى حوله ومنه ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ والطُرُقُ: جمع طريق، وهو الشارع الموصل إلى الغرض، سمي طريقاً لأن الناس يطرقونه بأقدامهم.

يلتمسون أهل الذكر: التماسُ الشيء: طلبه والبحث عنه، والمراد أنهم يطلبون المؤمنين الذاكرين لله تعالى.

هلُمُّوا إلى حاجتكم: هلُموا: اسم فعل أمر بمعنى تعالَوْا وأقبلوا، وهذه لغة تميم، لا يسوُّون بين الواحد والجمع، فيقولون للواحد هلُمَّ، وللجماعة هَلُمُّوا، وأهل الحجاز يقولون للواحد، والاثنين، والجمع: هلُمَّ بلفظ الإفراد، وبلغتهم نزل القرآن ﴿قُلْ هَلُمَّ شهداءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ أي: ائتوني بالشهداء على صحة دعواكم.

فيحفونهم بأجنحتهم: أي يطوِّقونهم بأجنحتهم، ويحيطون بهم من كل جانب، يبسطون عليهم أجنحتهم رضى بما يصنعون.

فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: أي يسأل الملائكة وهو جلَّ وعلا أعلمُ بما عليه عبادتهم من التسبيح والذكر، ووجه سؤال الملائكة مع علمه تعالى بأحوال عباده، وهو الإظهار للملائكة فضل بني آدم، وإظهار الحكمة في خلق النوع الإنساني، وأن فيهم المسبِّحين والمقدِّسين، وفيه تنبيه لهم على خطئهم حينما قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ؟﴾.

وأشدُّ لك تمجيداً: التمجيدُ: التعظيمُ والإجلال للكبير المتعال، يقال: مجَّدهُ أي عظَّمه وأجلَّه وأثنى عليه وفي الحديث القدسي: «فإذا قَالَ الْعَبْدُ:

ٱلْحَمْدُ للهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ، يقول الله تعالى: حَمِدَنِي عَبْدِيْ.. فإذا قَالَ: مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّيْنِ، قال الله تعالى: مَجَّدَنِي عَبْدِي».

فممَّ يتعوذون؟: أي من أيِّ شيء يستجيرون؟ من عاذ يعوذ إذا احتمى واستجار، ومنه: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللهِ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ ﴾.

هم القوم لا يشقى بهم جليسهم: الجليسُ: المجالسُ الذي يجلس معك ويصاحبك، يريد أن من جالس هؤلاء الأتقياء الأبرار، لا يناله شقاء ولا بلاء، فإن الصحبة لها تأثير عظيم، وإن جلساء السعداء سعداء، كما قال الشاعر:

بصحبتك الكرام تُعَدُّ منهم
فلا تُرَيَنْ لغيرهمُ أَلُوفاً

الأبحاث البلاغية

١ ـ قوله: «إن لله ملائكة» أكّده بذكر «إنَّ» للتنبيه على تحقق الأمر، حتى يزول الشكُّ عن السامع، ويسمى هذا الضرب في علم المعاني (طلبياً) يحسن فيه التوكيد لإزالة الشك والوهم.

٢ ـ قوله: «يطوفون.. يلتمسون» وردت الجملة بلفظ المضارع فيهما، لإفادة التجدُّد والحدوث، فإن المضارع يدل على التجدد والاستمرار، كما تقول: المطر ينزل، فكأن هذه وظيفتهم وهي الطواف والدوران على حلقات الذكر والعلم.

٣ ـ قوله: «وهو أعلم بهم» جملة اعتراضية، وردت ضمن الكلام، للتنبيه على أن علم الله سابق، فهو ليس بحاجةٍ إلى سؤال الملائكة لمعرفة أحوال عباده، وإنما السؤال لتنبيه الملائكة على فضلهم.

٤ ـ قوله: «يُسبّحونك ويُكبّرونك ويحمدونَكَ ويُمجّدونك» جاءت بأسلوب الإطناب تلذذاً بالكلام، وتعظيماً لجلال الله الملك العلاّم، وكذلك في قولهم: «لو رأوك كانوا أشدَّ لك عبادة، وأشدَّ لك تمجيداً، وأكثر لك تسبيحاً» جاءت بطريق الإطناب تلذذاً بالخطاب، وهكذا شأن العرب تطنب في المديح والثناء،

وتوجز إذا أرادت الاعتذار فيقولون: عفواً، وصفحاً. . . إلخ، أي ألتمس منك العفو، وأطلب منك أن تصفح عن زلتي.

٥ ـ قوله: «هل رأوني» استفهام يراد به التعظيم والتشويق لرؤية ذي الجلال، ومثله قوله عن الجنة: «هل رأوها؟ وكيف لو رأوها» كل ذلك للتعظيم والتشويق.

٦ ـ قوله: «لا والله ما رأوها» تأكيد الخبر بالقَسم، لحاجة التوضيح والبيان، ولاستدعاء أسلوب المبالغة له.

٧ ـ قوله: «فيهم فلان ليس منهم» كلمة (فلان) كناية عن شخص مبهم لم يكن مع الذاكرين، ولم يذكروا اسمه ستراً عليه.

٨ ـ قوله: «هم القوم لا يشقى بهم جليسهم» فيه أسلوب يسمى (أسلوب القصر) ومعناه إثبات الحكم للمذكور، ونفيهُ عما عدَاه، كأنه يقول هنا: هم القوم الفضلاء السعداء لا غيرهم، كقوله تعالى: ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ﴾ أي: هم الأعداء لا غيرهم.

لطيفة: يُحكى أن المتفلسف الكِنْدي ركب إلى أبي العباس الإمام المبرد، وقال له: إني لأجد في كلام العرب حشواً لا ضرورة له!! فقال أبو العباس: في أيِّ موضعٍ وجدت ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولون: عبدالله قائم، ويقولون: إن عبدالله قائم، ويقولون: إن عبدالله لقائم، فالألفاظ متكررةٌ والمعنى واحد، فما فائدة الحشو في زيادة بعض الكلام؟.

فقال له أبو العباس: بلَ المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ، فالأول إخبارٌ عن قيامه، والثاني جوابٌ عن سؤال سائل، والثالث جوابٌ عن إنكار منكر لقيامه، فقد تكررت الألفاظ لتكرار المعاني، فأفحم المتفلسف «ولم يَنْبِسْ ببنتِ شَفَة».

التعريف براوي الحديث

تقدمت ترجمة أبي هريرة راوي الحديث، واسمه (عبد الرحمن بن صخر الدوسي) في الحديث الأول، وكذلك قصة إسلام أمه في الحديث الخامس عشر، وفيها معجزةٌ لرسول الله عليه السلام بسرعة استجابة دعائه.

ما أسعد المسلمَ حين يتعلق قلبُه بحبِّ اللهِ، ويلهجُ لسانهُ بذكر اسمِه الجليل!!.

والقلبُ ما دام مغموراً بالإيمان، فلا بدَّ أن يتعلق بحب الرحمن، وأن يردِّد ذكره، ويُعظِّم أمره، ويجعل ذكر اسم اللهِ الجليل على لسانه، في كل صباح ومساء، بل في كل حين وآن ﴿ الَّذِيْنَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قلوبُهُمْ بذكرِ الله، ألاَ بذكرِ اللهِ تطمئنُّ القلوبُ ﴾ وإذا أحبَّ الإنسان شيئاً أكثر من ذكره، فكيف بالمؤمن الذي سكن حبُّ الله في قلبه، وخالطت حلاوة الإيمان قرارة نفسه؟ هل يسلو عن ذكر الحبيب وهو له سامع مجيب؟.

هذا هو رسولُ اللهِ إمام العابدين، وسيِّد الذاكرين، يرشدنا في هذا الحديث الشريف إلى فضل ذكر الله تبارك وتعالى، ويرغبنا في حضور مجالس الذكر، التي تحفُّها ملائكة الرحمن بأجنحتها، وليس الذكر قاصراً على التسبيح والتحميد والتكبير، بأن نذكره بلساننا، ونحمده بجوارحنا، بل هو أعَمُّ وأشملُ يتناول المصلي في محرابه، والتالي لآيات الله في كتابه، والمتفقِّه في دين الله، والمعلِّم لهدي رسول الله، فالكل في ذكرِ للهِ تعالى، طالما هم في طاعته ومرضاته، ومن أظهر الدلائل على ما نقول، أن الذكر ليس قاصراً على اللسان، بل هو يشمل كل نوع من أنواع العبادة والطاعة، قول الله العلي الكبير ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِيْنَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ ٱللهِ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُوْنَ ﴾. فهل أراد بالذكر هنا غير الطاعة والعبادة؟ وهل سميت صلاة الجمعة ذكراً للهِ إلاّ لهذا المعنى: ﴿ يَا أَيُّها ٱلَّذِيْنَ آمَنُوا إِذَا نُوْدِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللهِ ﴾ أي: اسعوا إلى الصلاة، فهذا هو المعنى الصحيح لذكر الله الذي نبَّه على فضله الحديث الشريف. فالملائكة الأبرار الأطهار يلتمسون أماكن العبادة والطاعة، في بيوت الله، في مجالس العلم، في حِلَق الذكر، في أماكن الطاعة للرحمن، التي يباهي الله عزَّ وجلَّ بها ملائكته، كما قال عليه الصلاة والسلام: «وما اجتمع قوم في بيتٍ مِن بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلاّ نزلت عليهم السكينة، وحفَّتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده».

والذِّكرُ حياةٌ للقلب، وغذاء للروح، يصل العبد بربه، ويوثِّق الرابطة بين الخالق والمخلوق، فيشعر المؤمن بلذة العبادة، ولذة المناجاة، فيظل سعيداً مرتاح البال، لا يشعر بشقاءٍ في الحياة، لأنه في ذكر دائم لله، والله يذكره كما ذكر هو مولاه: ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ، وَٱشْكُرُوا لِيْ وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾.

وحين سأل رجل من الصحابة رسول الله عليه السلام عن شيء يتمسك به، ويواظب عليه، لأن طرق الخير كَثُرتْ وتشعَّبتْ عليه، قال له عليه السلام: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطِباً مِنْ ذِكْرِ ٱللهِ». والقلب الغافل عن الله قلبٌ ميِّتٌ، لا خير فيه ولا حياة، تسكنه الشياطين، وتتكاثف فيه الظلمات، وما أجمل هذا التمثيل الذي ضربه الرسول ﷺ للذاكر والغافل «مَثَلُ الذي يذكر ربه، والذي لا يذكر، مَثَلُ الحيِّ والميت». أخرجه البخاري. فهنيئاً للذاكرين، الذين عمروا حياتهم بذكر الله وطاعته، وتوحيده وعبادته، فحييت قلوبهم بنور الإيمان، واطمأنت نفوسهم بذكر الرحمن، فهم السعداء الذين لا يشقى بهم جليس.

ونختم كتابنا بما ختم به الإمام البخاري صحيحه، فقد روى فيه هذا الحديث الشريف، في فضل الذكر لله عز وجل فقال: حدثنا أحمد بنُ إشكاب، حدثنا محمد بن فُضيل، عن عُمارة بن القعقاع، عن أبي زُرعة، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «كلمتان حَبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم». اهـ.

اللهم اجعلنا من الذاكرين الشاكرين، واختم لنا بالسعادة يا رب العالمين، ووفقنا لطاعتك ومرضاتك يا أرحم الراحمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وأصحابه أجمعين
والحمد لله رب العالمين

تم تأليف هذا الكتاب في البلد الحرام (مكة المكرمة) شرَّفها الله وحرسها، وصانها من كل فاجر أثيم، وكان الفراغ منه في: غرة جمادى الأولى عام تسعين وثلاثمائة وألف من هجرة سيد المرسلين، والحمد لله في البدء والختام.

* * *

مُخْتَارَاتٌ مِنْ أَحَادِيثِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ

زِيَارَةُ أَهْلِ الصَّلَاحِ

عن أنسٍ رضي الله عنه، أن أبا بكر الصدّيق قال لعمر رضي الله عنهما بعد وفاة رسول الله ﷺ: (انطلقْ بنا إلى أمّ أيمن -رضي الله عنها- نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما انتهيا إليها بكت، فقالا لها: ما يبكيك؟ أما تعلمينَ أنَّ ما عند الله خير لرسول الله ﷺ؟ فقالت: إنيّ لا أبكي أني لا أعلم أنَّ ما عند الله تعالى خير لرسول الله ﷺ، ولكن أبكي أنَّ الوحيَ قد انقطع من السماء، فهيّجَتْهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها).

(رواه مسلم)

سَمَاعُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

عن عبدالله بن مسعودٍ رضي الله عنه أنه قال، قال لي النبي ﷺ: «اقرأ عليَّ القرآن، قلت يا رسول الله: عليك أقرأ، وعليك نزل؟ قال: فإني أُحبُّ أن أسمعه من غيري، فقرأت عليه سورة النساء، حتى جئت إلى هذه الآية: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيْدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيْدَاً. يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِيْنَ كَفَرُوا وَعَصَوْا ٱلرَّسُوْلَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُوْنَ ٱللهَ حَدِيثَاً ﴾ قال: حسبُك الآن، فالتفتُّ فإذا عيناه تذرفان».

(متفق عليه)

البكاء من خشية الله

عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، أنه قال: أُتي أبو عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه بطعام ـ وكان صائماً ـ فقال: (قُتِل مُصْعَبُ بنُ عُمَيْر رضي الله عنه وهو خيرٌ مني، فلم يوجد له ما يُكَفَّنُ فيه إلا بردةٌ إنْ غُطِّي بها رأسُه بدت رجلاه، وإن غُطِّي بها رجلاه بدا رأسه. ثم بُسط لنا من الدنيا ما بُسط، قد خشينا أن تكون حسناتنا عُجِّلَتْ لنا، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام).

(رواه البخاري)

الاقتصاد في الطاعة

عن أبي وهب بن عبدالله رضي الله عنه، أنه قال: (آخى النبي ﷺ بين (سلمان) و(أبي الدرداء) فرأى أم الدرداء متبذلة فقال: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً، فقال له: كلْ فإني صائم، قال (يعني سلمان) ما أنا بآكل حتى تأكل، فأكل رضي الله عنه فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، فقال: نمْ، فنام، ثم ذهب يقوم، فقال له: نمْ، فلما كان آخر الليل قال سلمان: قم الآن، فصَلّيا جميعاً، فقال له سلمان: (إنَّ لربك عليك حقاً، وإنَّ لنفسك عليك حقاً، وإنَّ لأهلك عليك حقاً، فأعط كلَّ ذي حقٍ حقه) فأتى أبو الدرداء إلى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: صدق سلمان).

متبذِّلة: أي تلبس ثياباً بالية رثّة، لا تلبسها عادة المرأة المتزوجة.

(رواه البخاري)

الإسلام دين اليسر

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «إن هذا الدين يسر،

ولن يشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه، فسدِّدوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغَدوةِ والرَّوْحةِ، وشيءٍ من الدُّلْجة».

(رواه البخاري)

(الغدوة): السير من أول النهار، (الروحة): السير من آخر النهار، (الدلجة) آخر الليل. وهذا الحديث فيه مجاز وتمثيل معناه: استعينوا على طاعة الله عزَّ وجلَّ بالأعمال الصالحة والعبادات التي تقربكم من الله في وقت نشاطكم وفراغ قلوبكم بحيث تستلذّون بالعبادة ولا تسأمونها وتبلغون مقصودكم، كما أن المسافر الحاذق يسير في هذه الأوقات ويستريح هو ودابته في غيرها فيصل المقصود من غير تعبٍ ولا نصبٍ، فعليكم بطاعة الله في وقت النشاط بدون تشديد على النفس ولا إرهاق لها. (انظر كتاب دليل الفالحين).

الدّعوة إلى الله

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ دعا إلى هدى كان له من الأجر مثلُ أجور مَنْ تبعه، لا ينقص ذلكَ من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مثل آثام مَن تبعه، لا ينقص ذلكَ من آثامهم شيئاً».

(رواه مسلم)

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

عن ابن مسعود رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم في مجالسهم وواكلوهم وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داودَ وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، فجلس رسول الله ﷺ

وكان متكئاً ثم قال: لا، والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحقِّ أطراً».

معنى تأطروهم: أي تحملوهم وتجبروهم على قبول الحق والإذعان له جبراً.

رَدْعُ الظَّالِمِ

عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، أنه قال: (يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الناس إذا رأوا الظَّالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمَّهم الله بعقابٍ منه»).

(رواه أبو داود النسائي والترمذي)

معنى الحديث الشريف أن الناسَ يخطئون في فهم هذه الآية الكريمة ويظنون أنَّ الإنسان لا يسأل عن عمل غيره وأنه لا يضرُّه كفر الكافرين ولا معصية العاصين، مع أن الناس إذا تركوا واجب النصح والإرشاد، وتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، استحقوا العذاب لأنهم قصروا في واجبهم، فلا ينبغي للمسلم أن يتهاون في النصح والتذكير.

الإِصْلَاحُ بَيْنَ النَّاسِ

(عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ بلغه أنَّ بني عمر وبني عوف كان بينهم شرٌّ، فخرج رسول الله ﷺ يصلح بينهم في أناس معه، فجلس رسول الله ﷺ وحانت الصلاة فجاء بلال إلى أبي بكر رضي الله عنهما فقال: يا أبا بكر، إن رسول الله ﷺ قد حُبس وحانت الصلاة، فهل لك أن تؤم الناس؟ قال: نعم إن شئت، فأقام بلال الصلاة

وتقدّم (أبو بكر) فكبّر وكبّر الناس وجاء رسول الله ﷺ يمشي في الصفوف حتى قام في الصف، فأخذ الناس في التصفيق وكان أبو بكر رضي الله عنه لا يلتفت في الصلاة فلما أكثر الناس التصفيق التفت فإذا رسول الله ﷺ، فأشار إليه رسول الله ﷺ فرفع أبو بكر يده فحمد الله ورجع القهقرى وراءه، حتى قام في الصف فتقدم رسول الله ﷺ فصلى بالناس، فلما فرغ أقبل على الناس فقال: «أيها الناسُ مالكم حين نابكم شيء في الصلاة أخذتم في التصفيق؟ إنما التصفيق للنساء، من نابه شيء في صلاته فليقل: سبحان الله، فإنه لا يسمعه أحد حين يقول: سبحان الله إلا التفت، يا أبا بكر ما منعك أن تصلي بالناس حين أشرت إليك؟ فقال أبو بكر: ما كان ينبغي لابن أبي قحافةَ أن يصلي بالناس بين يدي رسول الله ﷺ).

قوله: حُبس، أي: أمسكوه ليضيفوه. (نابه شيء): أي أصابه شيء. (أبو قحافة) هو والد أبي بكر الصدِّيق. قوله: التفت، أي: برأسه لا بصدره فإنَّ الالتفات بالصدر يفسد الصلاة لأنه لا يصير متوجهاً إلى القبلة.

ظُلمة القبور

(عن أبي هريرة رضي عنه، أن امرأة سوداء كانت تقمُّ المسجدَ، ففقدها رسول الله ﷺ فسأل عنها فقالوا: ماتت، فقال: «أفلا كنتم آذنتموني بها»، فكأنهم صغَّروا أمرها فقال: «دُلُّوني على قبرها»، فدلوه فصلى عليها ثم قال: «إن هذه القبور مملوءة ظلمة على أهلها، وإنَّ الله تعالى ينوِّرها لهم بصلاتي عليهم»).

(تقمُّ): تكنس وتنظِّف، «آذنتموني»: أخبرتموني وأعلمتموني «بصلاتي عليهم»: بدعائي لهم.

(متفق عليه)

من جوامع الكلم

- نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة، والفراغ.
- إنَّ مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت.
- اتق الله حيثما كنت، وأتبعِ السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن.
- من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.
- البِرُّ لا يبلى، والذنب لا ينسى، والديَّان لا يموت، اعمل ما شئت كما تدين تدان.
- ليس الإيمان بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدَّقه العمل.
- الناس معادن، كمعادن الذهب والفضة فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فَقُهوا.
- المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً.
- خيركم من طال عمره وحسن عمله، وشرُّكم من طال عمره وساء عمله.
- ألا أدلكم على خير ما يكتنز المرء، المرأة الصالحة: إذا نظر إليها سرَّته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته في ماله وعرضه.
- الأرواح جنود مجنَّدة، فما تَعارف منها ائتلف، وما تناكَرَ منها اختلف.
- كلُّ المسلم على المسلم حرام: دمُه، وعرضُه، وماله.
- من نفَّسَ عن مؤمنٍ كربةً من كُرَب الدنيا، نفَّس الله عنه كربةً من كرب يوم القيامة.
- المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجرُ من هجر ما نهى الله عنه.